ميشيل كيلو
Michel Kilo

مزار الدُّب

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ميشيل كيلو
Michel Kilo

مزار الـــدُّب

روايـــــة

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجَدِيد
Dar al Jadeed

الحقـــوقُ محفوظـــةٌ لعائلة ميشيل كيلو
الطَّبْـعَـــة الأولـــــــــــى ٢٠٢٢
دارة محســـن سليـــم، جبـــل لبنـــان
بيـــــــــروت ـ لبنـــــــــان
لوحـــة الغـــلاف: بيتـــــر بروغـــــل
الغـــلاف: إليســـــــار الرشـعينـــي
التحـــريـــر: قلـــم دار الجـــديـــد
الترقيـــم دولـــي: 978-9953-11-225-1

www.dar-al-jadeed.com
www.LokmanSlim.org
daraljadeedbeirut@gmail.com

مؤسسة دَار الجَدِيد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجَدِيد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

أبي

رحلَ أبي ميشيل كيلو وعيناه مفتوحتان على أسرابِ أحلامٍ لا عدَّ لها تُحلِّق في سماءٍ سوريةٍ لا تسمحُ إلا بمرور المطر، وخربشةِ ذكريات العصافير، وفي قلبه الذي يَنُوء بالوطن والإنسان حسراتٌ وحسرات؛ واحدةٌ منها هذه الرواية مزار الدُّبّ التي كتبها في التسعينيّات من القرنِ الماضي ثم فقدها مع الوطنِ الذي أُكرِه على فقده، وكما حملَ في قلبه كلّ الوطن وخرج مهجّرًا، كان يحمِلُ حسرةَ فقده لمخطوط هذه الرواية(*) التي كتبها لتكون الجزء الأول الممهِّد لروايته الثّانية دير الجسور(**).

وقد شاءتِ الأقدار أن أعثر على مخطوط مزار الدُّبّ بعد رحيله بشهور، لتتحوّل حسرتُه التي كُفِّنت معه على فقدها إلى حسرة أبديّة في قلبي لأنّ القدر أخّرني عن مشاركته فرحتي وفرحة محبّيه في إيجادها ونشرها.

شذا كيلو
باريس، ٢٠٢٢

(*) كتبت رواية مزار الدُّب بين آذار ـ أيلول ١٩٨٨ و كانون الأوّل ١٩٩٠ بباريس.

(**) صدرت رواية دير الجسور عن دار ميسلون للطباعة والنّشر، ٢٠١٩.

مؤسسة دَارالجَدِيد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الإهـــــداء

إلى وديعـة حبيبـة العمـر التـي مـلأتْ حيـاتي سـعادةً وحبًّـا، علّمتنـي الكثـيرَ مـن دروس الحكمـة والصَّـبر عـلى المـكاره، وكنـتُ أعمـل دومًـا لأن أبقـى حيـث أرادت لي أن أكـون مـع الحـقّ والنّـاس.

م.ك

’ أُمـرتُ أن أشـفيَ هـذه القريـةَ، وأُغنـيَ أهلهـا؛ أسـتنقِذهم أو أملّكهـم أمـلاك أصحابهـا. ‘

تاريـخ أخبـار القرامطـة، ثابـت ابـن سـنّان وابـن النديـم. ترجمـة الحسـن الأعصـم القرمطـي، تحقيـق سـهيل زكّار.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

انحــدرتُ مـن وادي جَهَنّــم،

بــين أشــجار الصّنوبــر الكبــيرة إلى الــدّوّار الواســع، حيــث كنــتُ أســبحُ وأقــراني. كان الــدّوّار يقــعُ أســفل جبــل هائــل الارتفــاع، تخــال وأنــت تســبح فيــه أنّــك دخلــتَ إلى رحِــم الوديــان المحدودبــة الظّهــر، التــي تتســلّقها أشــجار ســنديان وصنوبــر ودلــب عملاقــة تغطّيهــا بلــون أخــضر بهيــج نــاشرًا فيهــا رائحــةً يغمُــر شــذاها «مــزار الــدُّبّ» ويصــل الى القســم الشّــمالي مــن «الــوادي الوســطاني» حيــث كنّــا نلعــبُ ونلهــو في غابــاتٍ أبديّــةِ الخــضرة، تحــدُب عليهــا ســماءٌ عميقــةُ الزّرقــة، تحــدّق بالمــزار فينطلــق مــن وجههــا ضيــاءٌ بهيــجٌ يغمــر الجبــال والوديــان، وينعكِــسُ عــلى ســطح الــدّوّار الكبــير.

كنــت أنزلــق إلى النّهــر مــن هــذا المــكان وحــده، لأنّ القســم الغــربيّ مــن الغابــة كان يضــم كــور ـ حجــر ـ الضبعــة؛ المغــارة الهائلــة الأغــوار، التــي كان أهــالي المــزار يجهلــون أسرارهــا، مــع أنّ بينهــم مــن أقســمَ آلاف المــرّات أنّ أجــداد القريــة حَكَــوا في أماســيهم قصصًــا كثــيرةً عــن نهــر ينبــع مــن جوفهــا الخفــيّ، قالــوا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إنّهم كانوا يصيخون السَّمع إلى صوت خريره الهادر، دون أن يروا مياهه أو يعرفوا إلى أين تذهب؛ بل إنّ منهم من قرأ في الكتب القديمة أنّه كان يشقُّ طرقًا خفيّةً إلى الجَنّة.

هذه المغارة آوت فيما بعد ضبعةً عظيمةَ القوّة شديدةَ الشّراسة، قالت جدّتي في البداية إنّها قدِمَتْ من مكان لا يعرفه أحد، وإنّها شرَعت تغزو القرى المجاورة لمزار الدُّبّ، حيث كانت تختطِفُ حيواناتها وتَخْفيها في مكانٍ قصيٍّ من وَكْرها لا يعرفه سوى الجانّ أو من يتّصلون بهم من أبناء آدم.

فيما بعد، أفشتْ جدّتي سرَّ الضَّبُعَة، وهي تترحّمُ على روحها، وقالت إنّ هذه كانت صبيّةً جميلةً من المزار اسمها زهرة، عشِقَت فتًى من قرية المحفورة، قتله بعد عُرسه بيوم رجالٌ لم يسبِقْ لأحدٍ أنْ رآهم من قبل. لم تُصدّقْ زهرةُ أنّ زوجها مات، بل قالت إنّه سافرَ وسيرجِعُ إليها. بعد أشهر من الانتظار غادرتِ الفتاةُ القريةَ إلى مكان لم تخبر به أحدًا، فقال الأهالي إنّها هامت في البراري بحثًا عن حبيبها الغائب. كان بطن زهرة يصل آنذاك إلى ذقنها، كما يقولون في مزار الدّبّ، فقد كانت تنتظر مولودًا حملت به في الليلة الوحيدة التي أمضتْها مع فتًى هام بها وهامت به سنوات لا يعرف عددها إلّا العالمون بالغيب، بدأت قبل لقائهما في هذه الدّنيا، كما قال أحدُ الشّيوخ الرحّالين، الذين كانوا يمرّون بالمزار في طريقهم إلى أماكن لا يفصحون لمخلوقٍ عنها.

اختفـت زهـرة في ليلـة تطايـرت نجومهـا حـول القريـة كالجمـر المتقافـز في الكانـون. بعـد أيّـام وجـد الأهـالي طفلـةً صغـيرةً أمـام بـاب المغـارة لم يعرفـوا لهـا أبًـا أو أمًـا، احتضنتهـا زوجـة أيّـوب الناعـس بطلـبٍ منـه. بعـد حـين ظهـرت الضّبعـة لأيّـوب في أوّل الحـرش، فـأدرك أنّ منيّتَـه قـد دنـت، إلّا أنَّهـا اقتربـتْ مِنْـهُ تشـكُرُه، كـما روى في اليـوم التّـالي والحُمّـى تعصِـفُ ببدَنـه، وتطلـب إلى أهلهـا وأبنـاء ضيعتهـا الدّعـاء لروحهـا المعذّبـة، وتسـألهم وضـع قنّينـة مـن الزّيـت عـلى مـزار الشـيّخ يحيـى، عسـاه يـرأف بحالهـا ويُعينهـا عـلى الآلام التـي تُكابدهـا، فيصفَـح عـمّا سـتفعله انتقامًـا لزوجهـا المحتجـب، ويعيدهـا في الحيـاة الأخـرى إلى قريتهـا ذاتِهـا، لتسـتأنفَ العيـشَ مـع أهلهـا وأحبابهـا. قـال أيّـوب: سـألتها إن كانـت ستشـمَل المـزار بأذاهـا، بكـت ولامتنـي عـلى ظنّـي السـيّيء بهـا، وأخبرتنـي أنّهـا سـتقطن المغـارة لتبقـى قـرب ابنتهـا وتحمـي المـزار. قـال الرّجـل أنّـه عاهدهـا عـلى رعايـة ابنتهـا، واسـتغرب بلغـةٍ مسـتنكرة التدبـير الرّبـاني الـذي قـضى بعقابهـا. وأعلمهـا أنّـه سـيطلب إلى سـكّان المـزار الصـلاة والدعـاء لهـا في الـسرّ والعلـن، عـسى أن يعيدهـا اللـه مـن جديـد إلى ردائهـا الآدمـي الزّائـل. بكـت زهـرة، كـما قـال أيّـوب والدمـوع تتدفّـق مـن عينيـه، إلى أن خنقتهـا عبراتُهـا، وانصرفَـت عنـه منتحبـةً بصوتهـا الآدمـيّ القديـم، الـذي جعـل النّاعـس يُقْسِـمُ أنّهـا زهـرة وليسـت أيّ مخلـوقٍ آخـر، ويطلـب إلى مسـتمعيه تصديـق مـا حـكاه.

كـم رأيـتُ جـدّتي تركـع طالبـةً إلى العـليّ القديـر أن يأخـذ بيـد

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الضبعة فيفكّ رصْده عنها، ويُعفيها من العقاب الذي فرضه عليها، بعد أن تعرّضت في الدّنيا والآخرة لعذاب لا يفوقه إلّا عذاب ابنتها، التي أسماها أيّوب النّاعس كلثومًا. وكم سمعتُها تستيقظ في الليالي الشّتوية الباردة داعيةً لها وطالبةً إلى ربّ الأنس والجان إعادتها إلى ابنتها وإنقاذ شبّان مزار الدّبّ وفتياتها من المصير الذي لاقته. كانت جدّتي تُخرج عندئذ يدها الناحلة من تحت لحافها كي تتحسّسنا، نحن أحفادها الصّغار، مطمئنّةً إلى أنّنا ما نزال على حالنا، لم تمَسَسْنا يدُ الجان، الذين كانت واثقةً أنّ أسَرًا كاملةً منهم تقاسمنا بيتنا، وأنّ قتَلة زوج زهرة كانوا منهم، وأنّهم هم الذين تسلّطوا على المرأة المسكينة، وحوّلوها إلى ما هي عليه. قال جدّي ذات مرّة إنّ جدّتي كثيرًا ما كانت تبربر مخاطبةً شركاءنا في السّكَن، حين كانت تختلفُ مع نسائهم على استخدام قدور البيت أو موقد النّار، أو تنهَر أولادهم الأشقياء، الذين أمسكت بهم مرّات كثيرة وهم يعبثون بفستانها وحتّى بسروالها.

كنتُ أسألُ جدّتي التي تركت مزار الدُّبِّ وجاءت تسكن عندنا في مرحلة مبكّرة من شيخوختها، عمّا جرى للمزار وعن حكاية كُلثوم، فكانت تنتابها حالةٌ محيّرة تنتهي دومًا بانهمار الدّموع من عينيها المطفأتين منذ عشرين عامًا، وإلى عجزها عن الكلام لأيّامّ عديدة، تصابُ خلالها بمرض غامض يُفقدها القدرة على الحركة، ويُشَوَّش ذاكرتها، ويشِلُّ ما تبقّى من حواسّها.

قالت جدّتي: أثارت حكاية أيّوب مع زهرة كوامن الشّجن في نفوس مَن عرفوا الفترة البشريّة من حياة الضبعة، وأحيت من جديد الذّكرى الطّريّة لكلثوم، التي قالت جدّتي، بعد أيّامٍ وأشهرٍ من الصمت، إنّها كانت صبيّةً كالرُّمح، جميلةً فتيّةً مقبلةً على الدنيا، صوتُها هو الأقوى في الأعراس، ودبكتُها هي الأكثر رشاقةً وفتنةً بين دبكات الصّبايا؛ يتحلّق من حولها الشبّان والرّجال والكهول والصّبايا، ما إن تخرجَ من بيتها إلى النّبع، والرّاقصون والرّاقصات والمغنّون وضاربو الطّبول ونافخو الزمّور آنَ تقصِد عرسًا من الأعراس أو سهرةً من السّهرات. قالت جدّتي أيضًا إنّ هؤلاء كانوا يديرون معها أحاديث داخليّةً حول رغبتهم في لقائها منفردةً داخل حرش الصنوبر الذي يشطره وادي جهنّم إلى نصفين. بل إنّ العذارى أنفسهنّ كنّ يُدرن معها حوارات مكبوتة، تتوعّدها بالويل والثبور، وتبثّها في الوقت نفسه لهفتهنّ على التشبّه بها، هي التي أعطاها الله حصصهنّ من الجمال، دون أن يأبه لِما انتابهنّ من حسرة على نصيبهنّ من الحُسن الضائع. كان من المحال إذن لقاء أحد في مزار الدّبّ لم يجعل من كلثوم موضوعًا لأحاديثه، مثلما كان من الصّعب تصوّر القرية دون هذه الرّيحانة اليانعة، التي كانت تسطع كالشّمس على الغابة والنّهر والجبل والوادي، ويصل ضياؤها حتّى إلى داخل المغارة المفزِعة. فهل نستغرب بعد هذا أن تتحوّل الفتاة إلى حكاية تعيد الأخْيلة نسجها كلّ ليلة في بيوت القرية، تجعلها مرّةً من سبْط سيّدنا يوسف أمير الحسن، الذي أنجبها قبل

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

أعـوام لا عـددَ لهـا، ثـمّ أطلقهـا في العـالم بالطّريقـة المحـيّرة التـي جعلَتْهـا تولـد مـن ضبعـة مظلومـة؛ وتـرى فيهـا مـرّةً اخـرى نـورًا تخـثّر في صـورة إنسـان، يتبـدّد ضيـاؤه شـيئًا فشـيئًا إلى أن يتـلاشى فتمـوت.

هـذه الحكايـة الأخـيرة جعلـت أمّ ديـب البصّـارة تخبرهـا بالفعـل أنّهـا سـتتلاشى يـوم يبلـغ القمـر تمامـه للمـرّة الثّلاثـين، دون أن تعـرف السّـعادة لحظـةً واحـدةً. كانـت حكايـات كلثـوم تثـير ضحـك القريـة، عندمـا كانـت العجائـز يحصـين، في الأمـاسي الشـتويّة الطويلـة، عشّـاقها، أو يـشرن بخـوف إلى كـثرة زيـارات الـدّرك إلى بيـت أبيهـا. وقـد روَت إحـدى العجائـز أنّ واحـدًا مـن الـدّرك هـام بهـا، فأخـذ يلطـو في الغابـة المقابلـة لبيتهـا مـن مـشرق الشّـمس إلى مغيـب القمـر، وأنّـه مكـث عـلى هـذه الحال إلى أن فقـد عقلـه، فـسرح لصـوص الأبقـار والخيـول والحمـير في القـرى، وأخـذوا يقطعـون طـرق السّـابلة في عـزّ الظّهـر، حتـى ظـنّ كبـار السـن أنّ مـا يجـري لا يتّصـل بشـؤون الدّنيـا، بـل هـو مـن علامـات يـوم القيامـة الـذي غـدا وشـيكًا. عندمـا أحسّـت الحكومـة بخطـورة مـا يحـدث، أرسـلت مندوبًـا رفيـع الشّـأن مـن المدينـة الكبـيرة، لكـنّ هـذا هـام بكلثـوم لحظـة رآهـا، فـما كان منـه إلّا أن طـرد الـدّركي العاشـق وحـلّ محلّـه في الغابـة، بـل إنّـه نـسي نفسـه، فطالـت لحيتـه واتّسـخت ثيابـه واهـترأت جزمتـه وهجـر النّـوم والطّعـام، إلى أن وافتـه المنيّـة، فدفنـوه حيـث مـات في الحـرش. صبيحـة اليـوم التّـالي اسـتيقظ الخلـق

ليجدوا مكان القبر بناءً ذا قبّة بيضاء مطليّة بالكلس أسموه «مزار الهائم» آمنوا جميعهم أن بُناته كانوا من سكّان العالم ما تحت الأرضيّ.

بسبب هذه الوقائع والحكايات، خالط مشاعر سكان المزار خوف شديد على وردتهم اليانعة، التي أكدّت مصائر عشّاقها أنّ الاقتراب منها مميت، وإن حصل عن بعد أو تمّ في الخيال. كما تساءلت الأمّهات وبناتهنّ الحاسدات إلى متى سيرى الرّجال في كلثوم تلك المعجزة، التي تدفعهم رغبتهم فيها إلى الاستهانة بالموت؟ وكم تمنّين لو تعقّل شبّان المزار وطلبوا الزّواج من مخلوقات الله العاديّات. صحيح أنّ زواجًا كهذا سيكون موتاً بطيئًا تتخلّله متعٌ صغيرة، إلّا أنّه أحسن بالتأكيد من التطلّع إلى كلثوم، الذي ساق عشّاقها إلى هلاك سريع وغامض تلا حالة من الجنون والحرمان، جعلت منهم ضحايا قوّة عاتية تشُعّ من حياتها ووجودها، أعادتها النسوة إلى أصلها الغريب ومنبتها المجهول.

كانت أمّ ديب البصّارة تقصّ لعدد من عجائز القرية حكاية الجاسم مع بيت الخرّاط، عندما جاءت حنّة العرجا تخبر النسوة ما اعتبرته مُزاحًا ثقيلًا رفضن تصديقه. قالت العرجا إنّها مرّت ببيت النّاعس منذ لحظات، فوجدتهم في حالة من الاضطراب والحزن الشّديد؛ وإنّ أيّوب سألها إن كانت كلثوم قد زارتها في اليوم السابق، وهي عائدة من النبع. أجابته بالنّفي فازداد لون وجهه امتقاعًا ووجّه كلامه إلى زوجته:

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لقـد اختفـت. إنّ عينًـا حاسـدةً أصابتهـا وأخذتهـا منّـا. ثـم شرع يبـكي ويُـشْرِقُ بدموعـه.

اختفـت كلثـوم دون أن يكـون هنـاك مـا يـبرّر اختفاءهـا أو يوحـي بـه.

أفـاق النّـاس؛ جلسـوا عـلى مصاطـب بيوتهـم الطينيّـة ينتظـرون ذهابهـا الصّباحـي إلى نبـع المـاء ليمتّعـوا أنظارهـم بمرآهـا البهيج، فلـم تمـرّ أمـام أعينهـم المترقّبـة. اعتقـدوا أنّ مرضًـا أصابهـا، وقالوا في السّـهرات: إنّ يومهـم هـذا لا يجـوز أن يُعـدّ مـن حياتهـم. ثـمّ تدفّقـوا عـلى بيـت أيّـوب، ليجـدوا أمّهـا في حالـة مـن النّحيـب، وأباهـا عاجـزًا عـن النّطـق والحركـة. طرحـوا أسـئلةً حائـرةً ملتاعـةً، فأتاهـم جـوابٌ مبهـم: اسـتيقظنا فلـم نجـد لهـا أثـرًا في البيـت. قـال صـوت لم يتبـيّن أحـد صاحبـه، لشـدّة الذّهـول الـذي اسـتولى عـلى النّفـوس: هـذه واحـدة مـن ألاعيـب حـوّاء. ردّت النسـوة صارخـاتٍ، وقـد شرعـنَ يتجمّعـن في البيـدر الصّغـير أمـام بيـت أبيهـا وفي البيـت نفسـه: وهـل كانـت في حاجـة إلى لفـت الأنظـار إليهـا، وهـي التـي وهبهـا ربّهـا جـمالًا يفـوق جـمال سـيّدنا يوسـف الحسـن؟

أفـاق القـوم أخـيرًا مـن حالـة عـدم التصديـق، فقـرّروا تكويـن جماعـات للتفتيـش عنهـا، تقلب الأرض، وتتسـلّق الأشـجار؛ تسرح في الـبراري القريبـة والبعيـدة، تغـوص إلى أعـماق النهـر بحثًـا عـن وردة القريـة الفوّاحـة، كـما وصفتهـا أمّ ديـب البصّـارة بـأسًى، قبـل أن تهمـس في أذن إحـدى العجائـز: لـن يجدهـا الأنـس،

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ولـو قلبـوا الأرض وغاصـوا إلى أعماقهـا. لـن يجـد كلثومًـا أحـدٌ تعرفونـه مـن أهـل هـذه القريـة.

بحثـت القريـة الملتاعـة أسـبوعًا كامـلًا دون طائـل. صرخ الرّجـال والنّسـاء ونـادوا ودخلـوا إلى أحـراشٍ وأدغـال ومعـاص لم يسـبق لأحـد منهـم أن وضـع قدمًـا فيهـا. أشـعلوا النّـيران، دحرجـوا الحجـارة الكبـيرة إلى أعـماق الوديـان السّـحيقة التـي عجـزوا عـن بلوغهـا. تسـلّقوا جبـالاً سـامقات وانحـدروا مـع المسـاقط الجارفـة، فلـم يعـثروا لهـا عـلى أثـر. أخـذوا يفكّـرون عندئـذٍ في احتـمال أن تكـون الأرض قـد ابتلعتهـا، أو خافـوا أن يكـون طـير جـارح انقـضّ عليهـا مـن السّـماء واختطفهـا. بـل إنّ بعـض النّسـوة أقسـمن أنهـنّ شـاهدن وجهها فـوق صفحـة القمـر قبـل انبثـاق الفجـر، وزعمـت إحداهـنّ أنّهـا سـمعت صـوت الغائبـة يخاطبهـا مـن هنـاك، لكـنّ العجائـز الحـاضرات اسـتهولن هـذا الزّعـم وقلـن إنّ روايـة سـلقوطة (هـذا هـو اسـم العجـوز) لا يعقـل أن تكـون صحيحـةً، لكونهـا طرشـاء أوّلًا، ولأنّ ربّ العالمـين منـع البـشر مـن توجيـه الأحاديـث إلى الأرض مـن فـوق القمـر، بعـد أن انفـرد هـو نفسـه بالـكلام مـن هنـاك مـع سـيّدنا عيـسى عليـه السـلام.

كان الخلـق يذهبـون مـن الغابـات المحيطـة بالقريـة إلى البيـدر الكبـير، حيـث تجمهـر حشـد كان لا يفتـأ يتعاظـم مـن الرّجـال والشّـبان والفتيـات والأطفـال حـول أيّـوب النّاعس. وكان يتوسّـط القـوم درك المنطقـة بأسرهـا، الّذيـن كانـوا يسـتنطقون مـن حـين

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لآخر أحد الحضور بطريقة اتّهاميّة تتخلّلها عبارات التّهديد والوعيد، ويصدرون إلى الباحثين في البراري تعليمات عن الأماكن التي يرجّح وجود كلثوم فيها، مستعينين في نبوءاتهم ببعض أصحاب الرأي الرّاجح من أهالي مزار الدّبّ. وقد بدا في فترة من فترات البحث أنّ القرية أصابها هوس جماعيّ، جعلها تدقّ الطبول وتنفخ في القصب المحروق المثقوب، وتطلق الصّراخ الهستيريّ في الأودية القفراء الخطرة، حيث الفهود والنّمور والضّباع والذّئاب والدّببة، وتلقي الحجارة من الجبال إلى المنحدرات الحادّة التي كانت تهوي إليها، مطلقةً ضجيجًا يصّم الآذان، يشبه الدويّ الذي يسبق البراكينَ. بل إنّ جنون المزار ضرب القرى الأخرى، فتدفّق سكّانها يستعلمون عن صحّة الخبر الذي لا يُعقَل أن يكون صحيحًا؛ ثم ما فتئوا أن انخرطوا بدورهم في الحالة العامّة، وشرعوا يبحثون بدورهم عن فتاة المزار بحثًا قرّبهم من الجنون، وجعلهم ينسَون أولادهم ونساءهم وفتياتهم، خاصّةً عندما أعلن أيّوب أنه سيقدّم ابنته زوجًا لمن يعثر عليها أو يأتي بدليل على وجودها حيّة.

في اليوم الخامس من البحث، أعلن ظافر الهادي خبرًا لم يصدّقه أحد في البداية، فقال إنّ ابنه حمدان عثر على الفتاة الضّائعة وأنّه سيكون على استعداد للزّواج منها خلال أسبوع. من هو حمدان هذا، أليس هو حمدان الأبرص؟ تساءلت القرية بأسرها، كأنّها تسمع الاسم للمرّة الأولى.

أعقب هذا التّساؤلَ المستنكَرَ هرجٌ ومرجٌ عظيمان، ساقا حسّانًا الأشهب إلى حالة من الجنون، جعلته ينقضّ على حمدان بفزّاعة كانت في يده، ويسدّد إليه ضربةً فصلت أذنه اليسرى عن رأسه. رأى القوم ما حدث. سارعوا إلى حسّان الذي كان يرفع يده ليضرب بالفزّاعة عنق غريمه، فإذا بالأبرص يركض نحو أذنه المقطوعة، فيلتقطها من الأرض ويلعق ما علق بها من تراب بلسانه، قبل أن يعيدها إلى حيث كانت، كأنّها لم تنفصل عنه منذ لحظات قليلة.

هذه الحادثة المحيّرة، التي رآها القوم بأعينهم، دفعتهم إلى الامتناع عن طرح المزيد من الأسئلة، ودفعت حسّانًا إلى مغادرة القرية إلى مكان مجهول، قيل أنّ ملك الجنّ الأزرق حدّده له بنفسه، خلال زيارة ليليّة قام بها إلى بيته، هدّده خلالها بالقضاء على مزار الدّبّ وتحويل كلثوم ذاتها إلى قرد، بعد أن حوّل أمّها إلى ضبعة، إن هو رفض مغادرة القرية. قالت جدّتي: إنّ سلقوطة رأت بأمّ عينها الملك المخيف يخرج من بيت حسّان، وإنّه غادر المزار في العتمة، يحيط به حشد من الجان، كلّفهم ملكهم بمرافقته إلى خارج القرية، وربّما إلى المكان الذي أمروه بالذّهاب إليه.

تذكّر القوم عندئذٍ ما كانوا قد نسَوه أو تناسوه، وعادت بهم أفكارهم إلى اليوم الذي أعلن ظافر فيه عثوره على طفل صغير تحت شجرة الصّنوبر الكبيرة قرب نبع الماء الوسطانيّ، حيث كانت القرية بأسرها قد شاهدت أعدادًا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

كبيرةً من الجان في فترات زمنيّة متقاربة؛ وكان المارّة من أبنائها يذكرون اسم الله الحامي في عزّ الظهيرة، حين يبلغون البلاطة المستديرة، التي كان ملك الجنّ الأزرق يتناول عشاءه فوقها كلّ ليلة، ثم يقفز من فوقها إلى الدّوّار الذي تلوّن ماؤُه بلونه، حتى أسماه النّاس في السرّ «الدّوّار الأزرق» وقد كان معروفًا في القرية أنّ الملك يترك تنظيف البلاطة وإعدادها لسهرة اليوم التّالي لأوّل أنسيّ يمرّ بها في الصّباح التّالي، وإلاّ فالويل له ولذريّته من بعده.

تذكّر الناس أيضًا طريقة ظافر في الحياة، فهو لا يخالطهم، لا يقبل دعواتهم ولا يدعو أحدًا منهم إلى بيته. بل ينطلق مع غروب الشّمس إلى جولة تسوقه إلى قسم من الغابة يشرف على البلاطة، في طريقه نحو أبعد منطقة في الحرش، حيث يبقى إلى مطلع الفجر، حين توشك القرية أن تصحو من النّوم. قالت جدّتي وهي تطلب الرحمة لروح ظافر: إنّ حسّانًا تبعه إلى الغابة، وشاهده يدخل إلى أحد الصّخور العملاقة، بعد أن وقف وتلفّت حوله مرّات عديدة. أقسم حسّان أنّه سمع صوتًا عذبًا ينادي حمّودًا من بطن الصّخرة التي كانت تتوهّج بالضّياء، وأنّه تعالى صخبٌ وضجيج في قلب الصخرة خرج في إثره أطفالٌ صغار إلى حيث البلاطة، فألقوا بأنفسهم في أحضان جدّهم الملك الأزرق، الذي ضمّهم إلى صدره، وصرخ طالبًا إلى صهره مشاركته العشاء، بينما أحفاده يتراقصون ويتلاعبون حول مائدته العامرة بالعرق

واللّحـم. قالـت جـدّتي بصوتهـا الهامـس: إنّ أحـد الأطفـال كان أبيـض الشـعر، وإنّـه هـو حمـدان الأبـرص، الـذي جـاء بـه أبـوه فيـما بعـد إلى عـالم الأنـس، ليعالجـه الشّـيوخ بالدّعـاء والبخّـور والحجابـات والتضرّعـات مـن مـرض لم يصـب أنسـيًّا أو جنيًّـا مـن قبلـه، لكنّـه اسـتعصى عـلى ربّ العالمـين (أسـتغفر اللـه وأتـوب إليـه) فلـم تنفعـه حتّـى الصلـوات التـي حـرّك بهـا سـيّدنا مـوسى الجبـال، ولم يشـفِه بخّـور الهنـد، الـذي تشّـق رائحتـه القلـب إلى نصفـين؛ بـل إنّ ذكْـر الأنبيـاء وأوليـاء اللـه الصالحـين كان بـدوره عبثًـا لا نفـعَ فيـه، فيئـس الشّـيخ الـذي كان يعالجـه مـن شـفائه وطلـب إلى أبيـه ردّه مـن حيـث جـاء، لكـنّ الأب اليائـس رجـاه إبقـاءه في حوزتـه، علّـه يسـتجيب للدعـاء في مقبـلات الأيّـام. قبِـل الشّـيخ، رضـوان اللـه عليـه، رجـاء الأب الخائـف عـلى ولـده وتـولاّه بالدّعـاء والرّعايـة الرّوحيـة، وضمّـه إلى حاشـيته المقرّبـة، وعلّمــه الحجامــة والــكيّ وشــفاء أمــراض العيــون وإخــراج الشــياطين مــن الأبــدان، إلى أن عــلا نجمــه وذاع صيتــه، وفــاق فيــما بعــد صيــت ســيّده وســيدنا الشّــيخ، الــذي لم يكــن ربّ العالمـين قـد خلـق مثلـه حتّـى ذلـك الوقـت.

سـألت جـدّتي وهـي تخفـض صوتهـا إلى أقـصى درجـات الهمـس، لخوفهـا علينـا مـن الأسرار التـي كانـت ترويهـا لنـا: هـل فهمتـم الآن لمـاذا طـرد ملـك الجـن الأزرق حسّـانًا الأشـهب مـن مـزار الـدّبّ؟ نعـم، نعـم، لأنّـه شـاهد مـا حكيـت لكـم عنـه. بمثـل هـذه الأسرار المفزعـة كانـت جـدّتي تغفـو وهـي تحمـد اللـه لأنّنا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لم نُمض كلّ طفولتنا في المزار، حيث يسرح الجان والأبالسة والشّياطين ويمرحون في بيادر القرية وغاباتها وحقولها، ويتسلّطون حتّى على نفوس أبنائها وأرواحهم.

في صباح اليوم التّالي كنّا نذكّر العجوز بآخر واقعة قصّتها من حكاياتها، طالبين إليها إكمالها في المساء، فكانت تقسم أغلظ الأيمان أنها لم تحك لنا شيئًا مما ندّعيه، وأنّ أعداء الله الذين لحقوها إلى هنا، وسطَوا على عقول أحفادها الصغار هم الذين يوسوسون لنا بحكايات كالتي نقول إنّها روتها لنا، أو إنّهم كانوا يضعونها على لسانها دون علمها. إلاّ أنّها ما كانت تلبث أن تنسى في المساء ما أنكرته في الصّباح، فتستأنف حكاياتها عن مزار الدّبّ.

ما إن عاد الأبرص إلى القرية، حتّى حصلت غرائب لم تعشْها قريةٌ من قبل في المنطقة الممتدة من وادي جهنّم إلى شير الضّبعة، وهي منطقة يعرف القاصي والدّاني أنّها تعجّ بأنواع مختلفة من الأبالسة والشّياطين الكبيرة والصّغيرة، وبأصناف من أسباط الجان السّبعة، وببشر لا يعرف أحدٌ أصلهم وفصلهم. فقد سرحت في ليلة من الليالي آلاف الأفاعي الرّقطاء في الحقول والأزقّة، ودخلت المئات منها إلى البيوت، تزفر السُّمّ من أشداقها الواسعة، وتصفر زاحفةً بين المساند والفرش والخوابي والحجارة كأنّها تمارس طُقسًا، أو تقوم بلعبة تدرّبت عليها من قبل، أو تتحرّك بإرادة مدبّر قدير. وقد دخلت إحداها في "شنتان" سميعة، التي اعتقدت لوهلة أنّ

زوجها يمدّ شيئه بين فخذيها، ثمّ سرعان ما لاحظت أنّ طوله لم يصل في أيّ يوم من أسفل بطنها إلى ركبتها، فانتفضت عندئذٍ تستطلع الأمر. حين شاهدت ذنب الأفعى ينسلّ إلى داخل لباسها؛ سحبتها فسحقت رأسها بكعب قدمها وألقت بها إلى خارج البيت دون أن توقظ أحدًا.

أحضر الأهالي جنيداتي القرية إلى منازلهم، إلّا أنّه فشل في إخراج أفعى واحدة من مكمنها، رغم جهوده التي بدأت بأوامر قطعيّة وانتهت إلى توسّلات ذليلة ترجوها الاستجابة لصلواته وتضرّعاته، وتذكّرها أنّها كانت تخرج في السّابق من أوكارها بإشارة من يده، لتسارع إلى الدائرة التي يرسمها لها فوق التّراب، كي تتكوّر على نفسها آمنةً بين يديه الحانيتين.

لم تؤذ الأفاعي المتغلغلة إلى البيوت أحدًا عدا الجنيداتي، الذي انتهت أسطورته في تلك الليلة العجيبة، التي اعترف في نهايتها بعجزه أمام هذا النّوع من الأفاعي الذي لم يسمع لغة سيّدنا سليمان من قبل، ولم يفهم حرفًا واحدًا منها، فكأنّه قَدِم من خارج المنطقة التي كان الجنيداتي يعتقد جازمًا أنّ نبيّ الله المبارك ما زال يحكمها ويوجّه أقدار حيواناتها.

تغلغلت الحيّات في سقوف البيوت وجدرانها وعتباتها، وفي العنابر والمعالف وأكوام التّبن والقش والحطب الجافّ، ولطت بين الثياب والأغطية غير آبهة ببني الانسان، كأنّها هي صاحبة البيوت التي يعيشون فيها.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

في اليـوم الثّـاني داهـم القريـة طـارئ جديـد. فقـد امتـلأت طرقاتهـا وأزقّتهـا وسـطوح بيوتهـا بذئـاب جائعـة مهتاجـة، هاجمـت الحيوانـات دون البـشر وراحـت تكـسر الأسـيجة الخشـبيّة المنصوبـة لحمايـة الـدوابّ القليلـة، التـي كانـت تبيـت في زرائـب ملحَقـة بالبيـوت، تفصلهـا عـن البرّيّـة قواطـع خشـبيّة معـدّة عـلى عجـل.

بـات النـاس ليلتهـم والخـوف يكتـم أنفاسـهم، فالأفاعـي بـين أحضانهـم والذّئـاب مـن حولهـم، وهـم في حـيرة مـن أمرهـم لا يعرفـون لِـما يجـري سـببًا.

عندمـا جـردوا في اليـوم التـالي خسـائرهم، وجـدوا أنّ كلّ بيـت في القريـة فقـد شـيئًا مـا، عـدا البيـت الـذي يقطنـه حمـدان العائـد.

لم تعـد الذّئـاب إلى مهاجمـة القريـة، إلّا أنّ أصواتهـا كانـت تُسـمع بوضـوح في الليـالي؛ وقـد روى العـشرات أنهـم شـاهدوها بـأمّ أعينهـم تحيـق بالقريـة الخائفـة.

مـا إن غربـت شـمس اليـوم الثّالـث، حتّـى انهالـت عـلى البيـوت والبـشر أكـوام مـن الحجـارة. لجـأ القـوم إلى منازلهـم، فلـم ينقطـع انصبـاب شـلاّل القطاريـف والكتـل الصّخريـة عليهـم، وقـد اسـتمرّ تهاطُلها الليـل كلّـه، حتـى خـال الأهـالي أنّ قريتهـم سـتُدفن تحـت أكـوام الحجـارة التـي انهالـت عليهـا كمطـر غاضـب.

بـدت القريـة بعـد الغـارة كقلعـة نجـح أعداؤهـا في تهديـم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بعـض جدرانهـا وأبراجهـا وسـقوفها، وأكرهـوا المدافعـين عنهـا عـلى تـرك مواقعهـم والنّـزول إلى طوابقهـا السّـفلى. حـين أشرقـت الشّـمس، علـم السـكّان أنّ الـدّبّ قـد رابـط بـدوره فـوق التّـلال المشرفـة عـلى بيوتهـم.

انتـشرت العقـارب في اليـوم الرّابـع مـن أيّـام الغمـوض والرّعـب المتعاقبـة، فلـم يعـد ثمّـة في القريـة مـن مـكان آمـن. امتـلأت الأرض بجمـوع مـن ذوات الذّيـل المعقـوف، راحـت تلـدغ مـا يعـترض تقدّمهـا نحـو البيـوت الخائفـة، حيـث اندسّـت الآلاف منهـا في الثيـاب والفـرش والأغطيـة، وكمنـت تحـت المصاطـب والمسـاند والمقاعـد.

جـاء اليـوم الخامـس بثعالـب راحـت تخيّـل في القريـة مهاجمـةً الدّجـاج في وضـح النّهـار، مطلقـةً عواءهـا بصـوت ناعـم يسـتهتر بالسّـكّان وببنادقهـم الطّويلـة الّتـي بعثـت في الماضي أشـدّ الرّعب في قلوبهـا. كان المشـهد شـبيهًا باحتفـال تقدّمـه الحيوانـات التـي راحـت تلـفّ وتـدور في المـكان، قافـزةً أو راكضـةً أو منبطحـةً أو متمرّغـةً فـوق الأرض المعشوشـبة. كان عـدد الثعالـب كبـيرًا كأنّها خرجـت مـن نبـع دفّـاق، أو كأنّ حشـدها المتلاطـم المتدافـع المتتـالي المتواثـب القافـز الرّاكـض الزّاحـف اللاهـي اللاهـث بـلا نهايـة.

حـين أحـصى القـوم خسـائرهم، وجـدوا أنّ دجاجهـم غـدا نـادرًا. ندبـت النسـوة عندئـذ حظّهـنّ العاثـر ودجاجاتهـنّ الشـهيدات بدمـوع الحـزن المتفجّـر، المتناسـب مـع درجـة تقدّمهنّ في السـنّ.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

آوى الخلق إلى بيوتهم طيلة اليوم السّادس، لذلك لم يُلحق بهم سيل الخنازير الذي اجتاح ضيعتهم إلّا أقلّ الأذى. كانت شبابيك البيوت مغلقةً وأبوابها موصدةً، وكانت طرق القرية ودروبها خاليةً، حتّى ليخال المرء أنّ طاعونًا حطّ رحاله فيها أو أنّ الحياة لم تعرف من قبل سبيلها إليها.

استراحت القرية في اليوم السّابع، وقد زال عالمها الآمن، تاركًا محلّه جوًّا من الذعر والقلق، وضع النّاس في حالة لم يألفوها من قبل، ولم يعرفوا لها مثيلًا حتى في الأيّام السوداء، التي اضطرّتهم إلى ترك قريتهم الجميلة والاحتماء بهذا الكهف الكبير، الغائر تحت جبل لم يقطنه من قبل أحد سوى الدّببة، فأسموه لهذا السبب «مزار الدّبّ».

مثلما خلق الرّبّ الكون في ستّة أيّام واستراح في اليوم السّابع، كذلك خلقت القوّة التي تسلّطت على القرية عالمها في ستّة أيام واستراحت في يومها السّابع؛ فكان ما صنعته بداية حياة جديدة لن تتخلّص «مزار الدّبّ» منها، ومن الظّواهر الغريبة التي واكبتها، وحوّلت قرية كانت فيما مضى مزارًا للدّببة إلى مقر لشياطين لا يعرف نوعها وعددها سوى الله وحده، الذي ما عاد أهالي المزار يدرجون أنفسهم في عداد عباده الصّالحين.

بدت الأحوال في اليوم الثّامن وكأنّها عاودت مسارها العاديّ القديم، فخرج الناس من بيوتهم، وقصدوا حقولهم دون أن

يعترضهـم أيّ ذئـب أو يصادفـوا أيّ ثعلـب. لكـنّ سـطح الحيـاة الهـادئ كان خادعًـا، يخفـي ضيـاع السّـكينة الرّوحيّـة التـي يحيـا بهـا عـادةً مسـتوطنو المعـازل النّائيـة، فتمّدهـم بقـوّة تعينهـم عـلى تجـاوز مخـاوف تبـدأ بالطّبيعـة ولا تقـف عنـد حـدٍّ، شـاملةً الكـون بمـا فيـه ومـن فيـه.

التقـى القرويّـون الخائفـون في الطرقـات والحقـول. والتقـت القرويّـات في البيـوت وحـول نبـع المـاء وفي الغابـة القريبـة، لم يطـرح أحـد منهـم أيَّ سـؤال حـول مـا حصـل ولم يخمّـن أحـد أسـبابه. اكتفـى القـوم بتبـادل نظـرات تنـمّ عـن الدهشـة والذعـر، ودوّروا عيونهـم الواسـعة وهـزّوا أكتافهـم المتهدّلـة حـيرةً واسـتغرابًا.

حتّـى في الأمـاسي التـي تلـت أسـبوع الآلام، كان مـن جـرؤوا عـلى الخـروج مـن منازلهـم يسـعون إلى تنـاسي مـا عايشـوه، كأنّـه حصـل أيّـام أجـداد أجدادهـم وليـس قبـل أيّـام قليلـة. بـل إنّ النّسـوة اللّـواتي نققـنَ عـلى دجاجاتهـنّ، هجمـن، وهـن مـا زلـن تحـت تأثـير التّنبيهـات الصّـادرة إليهـنّ مـن رجالهـنّ، عـلى عبـلا، ابنـة الجنيـداتي، حـين قالـت إنّهـا تعـرف سرّ مـا حـدث ومـن كان وراءه. تسـاءلت النّسـوة باسـتغراب وحنـق عـمّا تريـده عبـلا، وعـمّا يكمـن وراء اسـتدراجها لهـنّ إلى مـا لا يردْنـه، وسـألنَها عمّـن سـلّطها عليهـنّ وكيـف يجيـز لنفسـه تهديـد قريتـه ووضعهـا في مواجهـة أخطـار لا قِبَـل لهـا بهـا، مـع أنّ أمـره افتُضـح وظهـرت أكاذيبـه فعجـز عـن الإمسـاك بحيّـة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

واحـدة، رغـم تبجّحاتـه أنّـه مرصـود يعـرف لغـة الأفاعـي مهـما كان لونهـا أو حجمهـا أو مكانهـا، وأنّـه رأى في شـبابه سـيّدنا نبـيّ اللـه سـليمان في الحلـم، فتعلّـم منـه مخاطبتهـا، وصـار وكيـلًا لـه عليهـا في مـزار الـدّبّ والقـرى المجـاورة.

ظنّـت النّسـوة أنّ الجنيـداتي دفـع ابنتـه إلى توريـط الآمنـين فيـما لا يخـدم أحـدًا سـواه، ثـمّ نفـرْن عائـدات إلى بيوتهـن، وبينهـنّ مـن لم يمـلأن جرارهـنّ بالمـاء.

كانـت القريـة في حالـةٍ مـن الذهـول، فقـد واجهـت في أيّـام قلائـلَ مـا قالـت القصـص أنّ غيرهـا ربّمـا يكـون قـد واجهـه في أجيـال. وزاد مـن خوفهـا أن ثلاثًـا مـن عجائزهـا رويـنَ مُجتمعـاتٍ ومنفـردات أنّهـن شـاهدنَ في إحـدى الليـالي عمـودًا أسـودَ ينتصـب بـين السـماء والأرض، وأنـه أطلـق نـارًا مهلكـةً عـلى مـزار الـدّبّ تداركهـا الشّـيخ حمـدان في اللحظـة الأخـيرة. وقـد وصفـن كيـف تحـوّل العمـود بأكملـه إلى سـيخ مـن نـار متأجّجـة، احمـرّت إلى أن غـدت أتّونًـا مسـتعِرًا انقـضّ عـلى مزار الـدّبّ لكنّـه أخطأهـا بفضـل الشّـيخ حمـدان رزقنـا اللـه رضـاه، وأحـرق الأخـضر واليابـس في الحـرش المحيـط بقريـة المخروبـة، الـذي صـار أثـرًا بعـد عـين. هـل يمكـن لأنـسيّ وصـف الخـوف الـذي اسـتولى عـلى سـكّان المـزار بعـد الأحـداث، وبعـد القصص التـي رافقتهـا وتلتهـا، وأوصلتهـم إلى حافّـة الشّـكّ والضيـاع؟ قـال نايـف المفزلـك، وهـو الوحيـد الـذي خـرج مـن القريـة ليخـوض في بحـر الشـهادة الابتدائيّـة الواسـع طيلـة عـشرة

أعـوام متتاليـة دون جـدوى، والـذي عـاد إلى القريـة قانعًـا أنّ قدراتـه العقليّـة لم تعـد بحاجـة إلى مزيـد مـن الصّقـل؛ وأنّ اللـه عوّضـه عـن الشّـهادة بالطّربـوش الأحمـر الـذي كان يثبّتـه إلى رأسـه بخيـط قنّـب رفيـع يلفّـه حـول عنقـه عندمـا ينـام، وبالبدلـة التـي حـال لونهـا منـذ زمـن طويـل: أنّ حكـماء الزّمـن القديـم قـد تنبّـؤوا أنّ اللـه عـزّ وجـلّ سـيتظاهر بالانقـلاب عـلى نفسـه ليجـرّب عبـاده، وأنّ العاقـل مـن يتبعـه والهالـك مـن يتمسّـك بإيمانـه، الـذي بعـث هـو ذاتـه الأنبيـاء لنـشره.

قـال المفزلـك أيضًـا إنّ الزمـن الانقـلابيّ قـد جـاء مـع يـوم الأفاعي مـن الأسـبوع الغامـض، وإنّ فرصـة الخلـق لتحديـد مواقفهـم مـمّا يجـري قـد فاتـت منـذ وقـت طويـل. وختـم بجملـة غـدت مـضرب الأمثـال في القريـة وجوارهـا، قـال فيهـا: الويـل ثـم الويـل لمـن لم يفهـمِ الإشـارات الصّريحـة للعمـود الأسـود الـذي رأتـه العجائـز الثـلاث: فريـزة وعزيـزة وحنكليـزة. قـال نايـف أيضًـا: إنّ سـكّان المـزار قـد وضعـوا أقدامهـم مـع يـوم الأفاعـي عـلى «طريـق الألم الباطـل» وأكـدّ أنّ الأقدمـين مـا قالـوا شـيئًا إلّا عـن علـم ومعرفـة، وأنّـه هـو ذاتـه يشـهد لهـم، بعلمـه ومعرفتـه، بالعلـم والمعرفـة.

إذا كان الخـوف قـد حـلّ في النّفـوس، فـإنّ مـرور الأيّـام لم يخفّـف وطأتـه بـل زادهـا شـدّةً. بيـد أنّ النـاس أخذوا يتجـرّؤون ويتسـاءلون عـمّا حـدث.

قالـت عبـلا الهبـلا لعفـاف، إحـدى بنـات الشّـيخ أحمـد الصّالـح،

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

شيخ مزار الدّبّ، إنّها تعرف سبب ما أصاب القرية، فقد رأت في نومها نورًا ينطلق من مزار الهائم إلى حيث العرش الإلهيّ، ليشير كالإصبع الممدود إلى بيت حمدان الأبرص، الذي رجع منذ شهر واحد فقط إلى القرية، فحصل ما حصل واختفت كلثوم. اعترضت ابنة الشّيخ متشكّكةً: لكنّ كلثوم اختفت قبل عودته بأيّام ثلاثة، فردّت عبلا بصوت قاطع: هو الذي اختطفها. وضعت الفتاة عندئذ جرّتها على رأسها، ثم هرولت نحو منزلها وهي تتمتم: صحيح أنّك هبلا.

ما إن انتشرت أقاويل عبلا في القرية، حتى سارع الجنيداتي إلى بيت ظافر الهادي معتذرًا. قال الرجل الخائف إنّ ابنته مريضة، والمريض ليس عليه حرَج، كما قال الله جلّ وعلا. ثمّ أضاف: أنتم تعرفون يا شيخ حمدان أنّ أرجل الكذب قصيرة، وأنّه سيظهر للنّاس لأنّني سأعلنه عليهم بنفسي؛ أنا من لا يسمح بالتّطاول على رجل عاديّ. ولن يسمح بعون الله بتلويث سمعتكم، وأنتم الشّيخ الفاضل الذي سبقته أفعاله الجليلة إلى القرية، وسمَت به إلى مراتب لم تبلغها إلّا قلّة من رجال اصطفاهم سبحانه لجلائل الأعمال.

أصغى حمدان منتشيًا إلى حديث الجنيداتي، فقد رأى فيه اختبارًا للمدى الذي بلغته سمعته وسطوته، مع أنّه كان ينظر ساهمًا إلى الرجل الجالس أمامه، كأنّه لا يأبه لما يقوله. فجأة أفاق حمدان من شروده وسأل محدّثه بلهجة

حميمـة: لِـمَ لا تأتنـي بابنتـك أعالجهـا وأخـرج مـا في جسـدها مـن شـياطين، فتعـود إلى ربّهـا وتجـد اليقـين، وتتخلّـص مـن العـذاب الـذي يدفعهـا إلى الهلوسـة؟ أجـاب الجنيـداتي وقـد أجفـل للفكـرة المفاجئـة: فكـرتُ بذلـك بعـد أخـذ موافقتكـم عـلى علاجهـا. سـأحضرها كي تحـرّروا روحهـا مـن قيـد جسـدها، فيكـون لكـم فيهـا ثـواب عظيـم. أكـدّ الشّـيخ الشّـاب عندئـذ بلهجـة جـادّة قائـلًا: لا تقلـق، فنحـن سـنتكفّل بجسـدها، ولـن نتركـه يغـرق روحهـا في الضّـلال.

نهـض الجنيـداتي يريـد الانـصراف، سـأله محدّثـه بصـوت متعـدّد الإيحـاءات إن كانـوا قـد عرفـوا مـكان الفتـاة الضّائعـة. قـال أبـو عبـلا: إنّ مـا ضـاع صـار في عـالم الغيـب. أجابـه الآخـر وهـو يحـدّق في عينيـه: نحـن يـا شـيخي لا نخـشى الغيـب، بـل نعـرف أسراره ونسـتخدمها لصالـح هـذه القريـة بعـون اللـه.

أثـار المقطـع الأخـير مـن حديـث الهـادي، كـما صـار اسـمه في القريـة، خـوف النّـاس وطمأنينتهـم في آنٍ معًـا. فقـد أوحـى لهـم أنّ أحوالهـم لـن تـزداد سـوءًا إن هـم أطاعـوه، وأنّـه سـيجد لهـم مخرجًـا مـن الورطـة التـي انقضّـت عليهـم دون مقدّمـات، ولم يعرفـوا لهـا سـببًا سـوى مـا كانـوا يعتبرونـه غضبًـا إلهيًـا درجـوا عـلى اعتبـاره سرًّا مسـتغلقًا عـلى الأفهـام لا يجـوز أن يحـاول الإنسـان كشـفه.

بقـدر مـا ارتـاح أهـالي القريـة لحديـث الشّـيخ المطمـئنّ، انزعجـوا مـن موقـف الجنيـداتي وابنتـه، فقـال بعضهـم بإبعادهـما عـن

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

حياة القرية، بعد أن شاعت حكاية منام عبلا عن حمدان، وبلغ السكّان تمنّع أبيها عن إرسالها إليه ليخرج الشيطان من جسدها، فتقلع عن ترويج هلوساتها ضد رجل صالح تعِد القرية نفسها بالكثير على يديه. عندما اعترض سامر السّاهي بأنّ عبلا ليست مسكونةً بأيّ شيطان، وذكّرهم بما كانوا يقولونه هم أنفسهم عنها إلى ما قبل أيّام قليلة، نهرته عشرات الأصوات وعنّفته أمّه وانقضّ عليه أبوه بعصا الفأس، وهو يصيح: وأنت، ألا تعتبر نفسك خارج قبضة الشّيطان أيضًا، أيّها الشّيطان الأهبل؟ بينما كانت أمّ ديب البصّارة توافق نايفًا المفزلك على ما قاله، وهو أنّ لكلّ انسان شيطانًا يسكن عضوًا من أعضائه، وأنّ شيطان عبلا في رأسها وشيطان سامر بين فخذيه.

كان الجنيداتي يلاحظ تبدّل الودّ القديم تجاهه وتجاه ابنته، كما كانت عبلا تلمس نفور الفتيات والنّسوة المتعاظم من رفقتها، وتشعر بطوق القطيعة يضيق من حولها، وبعدد صاحباتها يتناقص يومًا بعد يوم. وقد لاحظت بأسىً تحوّل مودّة رفيقاتها إلى جفاء فنفور فكُرْه، وأيقنت أنّها تسير وأبوها نحو العزلة، عندما شرعت صاحباتها يتحاشينها في الطريق إلى النّبع، ويتفادين السّير بقربها، بل ويهرولن مبتعدات عنها دون أن يلقين عليها السّلام. كانت عبلا تستغرب الأجواء الجديدة ولا ترى لها سببًا، ولو لم ترد خاتون صديقة طفولتها، على عتابها بالقول: يأمرنا آباؤنا وإخوتنا

ورجالنـا أن نبتعـد عـن الشّـيطان الكامـن في رأسـك، كي لا تنتقـل إلينـا عـدواه؛ لما صدّقـت مـا أخبرهـا بـه أبوهـا، وهـو أنّ المـزار تـرى فيهـا مجنونـةً مسـكونةً تـؤذي مَـن يقـترب منهـا، وأنّ علاجهـا هـو الالتحـاق بحمـدان، الوحيـد الـذي يعـرف دواءهـا.

أحسّـت عبـلا بعالمها ينهـار دفعـةً واحـدةً، وقنطـت لأنّ مـا جرى أبـان لهـا هشاشـة مـن تعرفهـم مـن رجـال ونسـاء المـزار. حـارت في الأيّـام الأولى، لم تهتـد إلى مـا يجـب عليهـا القيـام بـه لاسـترداد علاقاتهـا الضّائعـة، إلّا أنّ حديـث خاتـون قـدّم لهـا الجـواب عـلى حيرتهـا، فقـرّرت تقبّـل مـا يجـري بهـدوء، ووطّنـت العـزم عـلى تفضيـل الوحـدة والعزلـة عـلى الرّضـوخ لحمـدان. تـرى، ألم يكـن قرارهـا هـذا إجباريًّـا لا خيـار لهـا فيـه، اتّخذتـه وطـوق العزلـة يلتـفّ مـن حولهـا، مـع أنّ قريتهـا أحبّتهـا إلى البارحـة وأعجبـت بهـا ورأت فيهـا «أختًـا للرّجـال»؟ كانـت الفتـاة قـد قالـت لأبيهـا تعقيبًـا عـلى إشـاعة مرضهـا: هـذه حالـةٌ عارضـة سـتزول، عندمـا سـتظهر أكاذيـب حمـدان وتكتشـف المـزار أنّ مـن الأفضـل لهـا أن تصنـع خلاصهـا بنفسـها، عـلى أن تـترك مصيرهـا بيـد أفّـاق لا تعرفـه. لكنّهـا أمسـكت بعـد أيـام قليلـة بنفسـها وهـي تشـكّ في صحّـة مـا قالتـه، وتسـاءلت بمـرارة: أمِـن المعقـول أن يـأتي إلى القريـة غريـب عنهـا، فـإذا بهـا تطلـب إليـه أن يقـرّر لهـا مشـاعرها وعلاقاتهـا دون أن تعـترض عليـه؟ كان أبوهـا يضحـك وهـو يسـمع زفـرات روحهـا الملتاعـة وعقلهـا المتذمّـر، ويقـول بـدوره: لـن ترقّـص المـزار عـلى نغـم واحـد، إلّا إن كان نغـم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مزمار حمدان، كما يلوح لي. عندئذٍ كان الحوار ينقطع بينهما، تاركًا مكانه لعزلتهما عن القرية، التي تلفّهما بخيوط صلبة وشفّافة، ولعزلتهما عن بعضهما، التي كانا يلاحظان وجودها من حين لآخر، فيسارعان إلى الثّرثرة حول أيّ شيء يخطر لأحدهما، تطمينًا لنفسيهما وتأكيدًا على أنّ الأبرص لم يستولِ على حياتهما بعد.

استمرّت عزلة الفتاة وأبيها فترةً بدت لهما أطول من حياتهما ذاتها، إلّا أنّها ما لبثت أن انقطعت يومًا دون مقدّمات، حين أعلن ظافر الهادي أنّ ابنه خطب الفتاة المختفية، وأنّ هذه ستزفّ إليه يوم الجمعة من الأسبوع التّالي. تساءل بعض الأهالي: ألا يجب علينا تصديق شيء مما قالته عبلا؟ وسأل بعضهم مازحًا: إذا كان ظافر سيزوّج ابنه من فتاة مختفية في تواريخ محدّدة بعينها بدقّة، فأين تكون هذه الفتاة ومن يكون الشّخص الذي أخفاها؟ قال ظافر شارحًا الالتباسات المحيّرة التي ترتّبت على إعلانه: أنّ الهادي لا يكون عالمًا بالغيب إن لم يعرف مكان الفتاة؛ وأنّه حدّد تواريخ مستقبليّة إظهارًا لقدرته على استجلاء الغوامض، واقناعًا لأهل الغائبة وللقرية بعزمه على تحقيق وعوده حتّى في الحالات غير المؤكّدة والبالغة الغموض كحالة كلثوم.

أخذتْ أقوال عبلا الهبلا تجد من يصغي إليها في القرية. ألم تقل مسبقًا ما أكّده حديث ظافر عن قرب العثور على الفتاة، التي سيعيدها ابنه من عالم الغيب؟ لكن حلقة

أنصارهـا لم تتّسـع، بـل اقتـصرت عـلى أخـت حسّـان الأشـهب وعفـاف ابنـة الشّـيخ أحمـد الصّالـح، وإن كان بعضهـم قـد تناقل أحاديـث جـرت في هـذا البيـت أو ذاك مـن بيـوت القريـة، تربـط مـا قالتـه بمـا جـرى عـلى لسـان ظافـر الهـادي، وتعلـن أنّ القريـة ربّمـا تكـون قـد تسرّعـت في حكمهـا عـلى الفتـاة وأبيهـا وظلمتهما بمـا فرضتـه عليهـما مـن عزلـة. لمـاذا لا نعـترف صراحـةً أنّ مـن عـزل عبـلا كـنّ نسـاء القريـة، اللـواتي اعتقـدن، كعادتهـنّ في مثـل هـذه الحـالات، أنّ إرضـاء الرّجـال أكـثر أهمّيـةً مـن أيّ شيء آخـر، فاندفعـن بحماسـة لا مـبرّر لهـا إلى مقاطعـة مـن كـنّ يعتبِرنهـا إلى البارحـة رمـزًا لهـنّ. ثـم اندفعـنَ، بعـد حديـث ظافـر الهـادي يبربـرن بمـا كان يجيـش في صدورهـنّ، وهـو أنّ عبـلا مظلومـة، وأنّهـا ضحيّـة رجـال لا يـرون في الدنيـا شـيئًا سـوى أنفسـهم، ولا يفهمـون منهـا إلا مـا تأمرهـم بـه عقولهـم الصّغـيرة، التـي لا مـكان للمـرأة فيهـا. هكـذا انقلبـت النّسـوة إلى تبرئـة عبـلا مـما كـنّ هـنّ أنفسـهنّ يطلقْنـه مـن تهـم ضدّهـا، وإن فعلـن ذلـك في الـسرّ، خوفًـا مـن عواقبـه، إن هـو بلـغ مسـامع الرّجـال.

لم تعاتـب عبـلا رفيقاتهـا، اللـواتي عـدن إلى إلقـاء التحيّـة عليهـا وسـؤالها عـن صحّتهـا وصحّـة أبيهـا، وهـنّ في طريقهـنّ إلى نبـع المـاء أو إلى جمـع الحطـب مـن الغابـة. إنّ مـن عاتـب وعنّـف ولام كان عفـاف، ابنـة الشّـيخ أحمـد الصّالـح، التـي أكـدّت لمحدّثاتهـا أنّهـا لا تقـول مـا تقولـه بطلـب مـن عبـلا أو بمعرفتهـا، ولا تفهـم كيـف تبتعـد قريـة بكاملهـا تقريبًـا في أيّـام قليلـة عـن

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

شـيخ تقـيّ وفتـاة رائعـة، وكيـف تقاطعهـما وتتقـوّل عليهـما، مـع أنّهـا لم تتلـقّ مقابـل سـلوكها هـذا سـوى وعـود غائمـة مـن الشّـيخ حمـدان، الـذي لم تـر إلى اليـوم مـن عجائبـه سـوى وعـده بالـزّواج مـن فتـاة يعـرف اللـه وحـده أيـن كانـت ومـن كان خاطفهـا. عندمـا أطرقـت المسـتمعات إلى ابنـة الصّالـح وحـرنَ في تبريـر مـا جـرى، سـألتهن رفيقتهـنّ: أمـا كان مـن الأحسـن انتظـار ظهـور كلثـوم ومعرفـة مـا جـرى لنقـرّر سـلوكنا حيـال هـذا أو ذاك مـن أبنـاء وبنـات قريتنـا؟

لم تغـيّر الأقـوال شـيئًا مـن الواقـع، ولم يبـدّل التعنيـف والعتـاب المواقـف. كانـت كلـمات قليلـة قيلـت هنـا وهنـاك كافيـةً لإبقـاء الأنظـار متركّـزةً عـلى الشـيخ حمـدان، فقـد ذكّـر حامـد التايـه بالمظاهـر التـي عاشـتها القريـة وطلـب إليهـا ألّا تنـسى الجهـة الممسـكة بقيـد الأخطـار المتربّصـة. وقـال سـليم الحامـد إنّ الخـلاص لـن يـأتي في يـوم وليلـة، وإنّ وعـد حمـدان قـد بـدأ بالإحسـان إلى كلثـوم والقريـة ولا بـدّ أن ينتهـي إلى مـا تاقـت إليـه نفـوس أبنائهـا منـذ خلقهـا اللـه دون أن تنالـه؛ وأنّ أفعـال الشّـيخ لا يصـحّ أن تقـارَن بأقـوال فتـاة طائشـة.

هكـذا بقـي القسـم الأكـبر مـن أهـالي المـزار مخلصًـا للإيمـان الوليـد بقـدرة الشّـيخ ومتحزّبًـا لـه، مدافعًـا عنـه وملبّيًـا لرغباتـه. مـا هـي، بالقيـاس إلى رجـل لـه هـذه الأهمّيّـة عبـلا الهبـلا ابنـة الجنيـداتي، الـذي عجـز عـن مـدّ يـد العـون إلى قريتـه، سـاعة اعتقـدت أنّهـا لـن تجـد معينًـا سـواه؟ وهـل تُبـادل قريـة

مهـدّدة أمـل الخـلاص عـلى يـد الهـادي بأقاصيـص وحكايـات ترويهـا فتـاة، مهـما كانـت درجـة مصداقيّتهـا؟ ومـا فائـدة وقائـع تتعـارض مـع مصلحـة المـزار ومعتقـدات أهلهـا؟ انحـازت غالبيّـة القريـة إلى الشّـيخ، متناسـيةً تحذيـرات عبـلا وحكاياتهـا، وقـد أقنعـت نفسـها أنّ الخـير في المصلحـة، مـا دام البـشر لا يعيشـون مـن الحقائـق ولا يصلـون إليهـا أصـلًا.

لم ينفـكّ سـكّان القريـة عـن الشّـيخ بـل ازدادوا ارتباطًـا بـه، حتّـى غـدا بيتـه محجّتهـم. لقـد أقنعـوا أنفسـهم أنّ حياتهـم لـن تسـتقيم إلّا بـه، وأنّهـم لـن يسـتطيعوا العيـش، إذا هـم افتقـروا إلى مـا يرمـز إليـه مـن قـوّة وتحكّـم. هكـذا اجتمعـت المـزار في اليـوم المقـرَّر للعـرس. لم يسـأل أحـد منهـم عـن مـكان كلثـوم، لأنّ غالبيّتهـم رأت في زواجـه منهـا إنقـاذًا لسـمعة المـزار وسـترةً لـشرف الفتـاة. وقـد وجـد بينهـم مـن أقنعهـم أنّ أحـدًا غـير الشّـيخ مـا كان ليقـترن بفتـاة عـلى هـذا القـدر مـن الحسـن والفتنـة، غابـت أيّامًـا عديـدةً عـن أنظـار أهلهـا وقريتهـا، دون أن يعـرف أحـد مـكان اختفائهـا وشركاءهـا فيـه. قـال آخـرون إنّهـم كانـوا سـيخجلون مـن ذكـر أسـمائهم أمـام أبنـاء القـرى الأخـرى، لـو أنّ هـذا المحسـن لم يمـدّ يـده وينقـذ شرفهـم، غـير آبـهٍ بتقـوّلات خصومـه وحاسـديه، ممّـن يتحيّنـون الفـرص للطّعـن في صفاتـه الفريـدة.

جـاء القـوم إلى العـرس خجلـين مـن انتـماء عبـلا إليهـم. وزاد خجلهـم عندمـا رأوا كلثومًـا، وكانـوا إلى مـا قبـل أيّـام قليلـة

قانعين أنّها عار لن تمحوه الدهور، وأنّ من الأفضل لهم ألا يروها أبدًا. صحيح أنّ العروس لم تكن كلثومًا التي عرفوها في الأيّام السّابقة، بل كانت فتاةً تشبه الشّبح، امتصّت أيّام اختفائها نضارتها، فبدت كعجوز دهمها الموت وأعملَ مخالبه فيها؛ وإنْ تخلّصت منه في اللحظة الأخيرة بعد أن ترك بصماته عليها.

لم تنطق الفتاة ولم تبتسم، لم تنهض للغناء والرّقص كما في الأيّام الخوالي، ولم تطلق ضحكاتها الصّاخبة التي كثيرًا ما عادت عليها بتعنيف أمّها وأبيها وإخوتها، الذين اعتقدوا أنّ الفتاة الشّريفة لا يجوز أن تضحك إلّا في فترات متقطّعة، لبرهة قصيرة ولعدد محدود من الأشخاص والأشياء، كي لا تلفت نظر الشّيطان إليها وتنفّر منها الملائكة.

جلست كلثوم على الكرسي المجاور لكرسي الشّيخ الشّاب، فبدت أكبر منه سنًا، وأقلّ منه طولًا، وأبشع منه منظرًا؛ غارت عيناها، وانكمش جلدها الذي انشدّ على وجهها، وانطفأ بريق محيّاها وعينيها، وكان قد عاد عليها بقصّة رأت فيها واحدةً من سبْط الجنّ الأزرق ذي العيون المتوهّجة. تراخت ذراعا الفتاة فوق ركبتيها، فبدتا طويلتين بالقياس إلى جسدها فشبّههما نايف المفزلك بيدَي السعدان، بل إنّه أوشك أن يقف ليسأل أبيها عن سرّ التحوّل الذي أصابها، ولو لم يلاحظ أنّ الجوّ لا يحتمل المزاح، وأنّ العرس أكثر جدّيّة وتجهّمًا من جميع الجنائز التي كتب عليه أو قيّض له حضورها، لنفّذ ما اعتزمه دون تردّد، كعادته.

روى المفزلـك فيـما بعـد لبعـض خاصّتـه، بعـد أن أخـذ عليهـم يمينًـا قاطعًـا بالكتـمان، أنّـه أحـسّ بحـزن طـاغٍ يجتاحـه ويدفعـه إلى مغـادرة العـرس، إلّا أنّـه بقـي في مكانـه، لأنّـه رأى دمـوع الحـزن تنبثـق مـن عينـي الفتـاة، التـي يفـترض أنّهـا كانـت تقضي أسـعد لحظـات حياتهـا. قـال المفزلـك أيضًـا: لقـد شـاهدتُ بعـين خيـالي الفتـاة تنهـض عـن كرسـيّها وتندفـع نحـو أبيهـا طالبـةً إليـه، ثـمّ إلى أهـالي القريـة، حمايتهـا مـن الخطـر الـذي يتهدّدها، وأنّهـا ألقـت بنفسـها عـلى أقدامهـم، راجيـةً أن ينتزعوهـا مـن بـين الأنيـاب التـي سـتقضقض بقيّـة عمرهـا يومًـا بعـد يـوم. وقـد أكّـد صحّـة مشـاهدات المفزلـك مـا حكَتـه عبـلا الهبـلا في اليـوم التّـالي للعـرس، عندمـا قالـت إنّ كلثـوم هربـت وجـاءت إليهـا طالبـةً أخْذهـا إلى بيـت الشّـيخ أحمـد الصّالـح، لأنّهـا تريـد أن تـروي لـه مـا عانتـه خـلال غيابهـا. أقسـمت عبـلا أنّهـا كانـت قـد خطَـت خطواتهـا الأولى نحـو بيـت الشّـيخ الصّالـح، عندمـا تراجعـت كلثـوم عـن مطلبهـا، خوفًـا عـلى أبيهـا أيّـوب النّاعـس، بعـد أن منـع الأبـرص النّـوم مـن التسـلّل إلى عينيـه، وأبقـاه منـذ أسـبوع في حالـة يقظَـة لا يقـوى معهـا عـلى التحكّـم بحركـة جفونـه.

إذا كانـت عبـلا الهبـلا تكـذب، وكان نايف المفزلك يحـكي القصص عـن نفسـه ليظهـر بمظهـر رجـل محـترم في قريـة مـا عـادت تهتـمّ لِـما يقـول، فمَـن ينكـر أنّ جميـع مَـن حـضروا سـمعوا نايفًـا يدمـدم بصـوت آمـر: خذيهـا إلى بيـت الشّـيخ أحمـد الصّالـح،

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

خذيها إلى بيت الشّيخ أحمد الصّالح، ألا ترين كم تتعذّب وتعذّبنا معها؟ سمع أهالي القرية كلمات المفزلك، فرأوا فيها علامةً اخرى من علامات جنونه الذي انفلت من عُقاله في الآونة الأخيرة، مع أنّهم يعرفون أنّه يقول من حين لآخر أشياء لا يدَ له فيها، تنطقه بها قوّة لا سيطرة له عليها. وأنّ ما يقوله في هذه الحالات يكون صائبًا، لأنّه لا يمرّ بعقله بل يجري فقط على لسانه، الذي يتحرّك بغير إرادة منه.

غير أنّ أغرب ما حصل في العرس لم يكن كلام نايف مع نفسه، أو التبدّل الذي أصاب الفتاة، بل هو تلك الظواهر المحيّرة، التي لم يعرف أحد لها تفسيرًا. فقد شرعت الصحون تتحرّك أمام الآكلين، وأخذت الملاعق الخشبيّة تتقافز وتصدر رنينًا كرنين النّحاس، مع أنّها لم تكن تصطدم بشيء. أمّا الأقداح، فقد بقيت مليئةً بالعرَق والماء، مثلما امتلأت آذان الحاضرين بصوت أحمد الأخرس، الذي مات قبل عشرة أعوام كاملة.

قال أحد الحاضرين: إنّ ما حدث كان من أعاجيب الهادي قدّس الله سرّه، وأنّ الجان عملوا خدمًا في عرسه؛ بل إنّه لم يقبل أن يخدمه عامّة الجان، فأمر أبناء وبنات ملوكهم بإحياء الاحتفال وتقديم الطعام والشّراب، وقد جاؤوا طائعين يبتغون مَرضاته. هزّ الحاضرون رؤوسهم موافقةً على ما سمعوا به وشاهدوه من معجزاته، واعتقدوا أنّهم لا يليق بهم تكذيب أعينهم وتصديق ابنة الجنيداتي. كما آمنوا بأعاجيبه الماثلة أمامهم، التي تثبت أنّه من أهالي الحظوة، الذين رفع حجاب الغيب عن بصرهم وبصيرتهم.

قالـت عبـلا الهبـلا تـروي مـا حصـل: وقـف حمـدان والعـرق يتصبّـب مـن جبينـه في عـزّ الـبرد، وأبلـغ الحاضريـن أنّـه قـرر منحهـم كل مـا يملكـه هـو وأبـوه وإخوتـه، وأنّـه لم يعـد هنـاك منـذ اللحظـة مُلـك خـاصّ بأحـد بعينـه، أرضًـا كان أم مـالًا أم متاعًـا فانيًـا، فـالأرض والمـال للـه عـزّ وجـلّ يورثهـما الصّالحـين مـن عبـادِه، ويهبُهـما للشّـعب الـذي يحمـل كلمـة الحـقّ والخير، ويجـب أن يكـون منـه الأئمّـة والوارثـون. توقّـف حمـدان يتفحّص الأثـر الـذي تركتـه كلماتـه في سـامعيه، ثـمّ أردف وقـد ارتسـمت ابتسـامة رضًـا عـلى وجهـه: إنّ مـا لكـم قـد صـار لي، ومـا لي صـار لكـم؛ فلتمتـدّ أياديكـم إلى مـا أملـك، وليكـن معلومًـا لكـم أنّ يـديّ سـتمتدّان منـذ اللحظـة إلى جميـع مـا تملكـون، إلّا مـا حـرّم اللـه، فنحـن لـن نقيـم نظـام زندقـة وعصيـان، بـل ننشُـد حيـاة عـدل ومسـاواة وحـبّ سـيقرّرها لنـا مجلـس يديـر شـؤوننا عـلى هـدي التّقـى والزّهـد والصـلاح.

ذُهـل الحـاضرون للنّبـأ الـذي وقـع عليهـم كالصاعقـة. هـل يعقـل أن يشـاركهم هـذا الرجـل الصّالـح أرزاقـه وأموالـه، هـم الذيـن لا يملكـون زاد يومهـم؟ عقـدت المفاجأة ألسـنتهم، وشـلّت قدرتهـم عـلى التّفكـير. حـين وقـف رجـل اعتقـدوا أنّهـم يرونـه للمـرة الأولى ليقـول إنّ القريـة لا تسـتحقّ هـذا الإحسـان كلّـه، وإنّـه يكفيهـا أن يشرّفهـا ابنُهـا البـار بالعيـش فيهـا، وأن تعيـش هـي في رحابـه وتحـت سـلطانه، تنعـم بحدْبـه ورعايتـه وتنتفـع مـن زهـده وصلاحـه، تفاخـر بـه القـرى الأخـرى، التـي لم يسـبق

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لأيٍّ منها أن حظيت بقسط بسيط من الحبّ الذي يخصّ هو به المزار؛ هزّوا رؤوسهم موافقين وأفصحوا عن رضاهم بكلمات المديح التي كالوها لشيخهم الهادي. لم يعترض أحد منهم أيضًا، حين قال الغريب إنّ القرية ستضع نفسها إلى يوم الدّين في خدمة شيخها المحسن، وتعاهده على السّير على خطاه واقتداء نموذجه. أمّا عندما صاح بصوت يخنقه الانفعال: لقد أصبحْت عبدًا من عبيد إحسانك وتابعًا من أتباعك، أزهد بالدنيا كما تزهد، وأتعالى مثلك على الماديّات وصغار النّفس، وأتشبّث مثلك بالروحانيّات، فأتخلّى عن الأرض والمال في سبيل رضاك، وأجعلك مثلًا أعلى وقدوةً حسنةً، وفّقني الله إليها بعد أن أضلّتني مغريات العيش وكادت تلقي بي إلى التهلكة، وقف أحد الفلّاحين وصاح بخجل: لن تكون وحدك تابع الشّيخ، ولست وحدك عبد إحسانه. فنحن نعلن جميعًا ثقتنا به وسيرنا وراءه إلى أبد الدهر. ما إن تعالى هتاف الاستحسان في أرجاء البيت الكبير والسّاحة التي أمامه، حتى أسكت الشّيخ الأصوات بحركةٍ من يده وأبلغ الحشدَ قراره تعيين من أسماه الفلّاح الفصيح عضوًا في مجلس الألفة.

صمتت عبلا الهبلا. احتقن وجهها بغضب عاتٍ كان يجتاح كيانها، فبدت كمَن يوشك أن يفارق الدنيا. زمّت شفتيها وقالت بصوت كالفحيح: لن يكون لك ما تريد، أيها الكلب الدجّال. همست إحدى المستمعات عندئذ قائلةً: لقد بلغت

الهبـلا مرحلـة الجنـون التـامّ. اسـتأنفت عبـلا كلامهـا، فأخـبرت جليسـتيها أنّ الشّـيخ أعلـن أسـماء أعضـاء المجلـس، وأنّ الأمـر بلـغ درجـةً لا تُصـدّق، عندمـا ذكـر اسـمي العضويـن الأخيريـن، فـإذا هـما عبـلا ذاتهـا والفتـى الصّغـير، ابـن السـنوات العـشر، عـاصي الخالـد.

سـأل أحـد الحاضريـن عـن الحكمـة مـن تعيـين امـرأة بـين هـذا العـدد الكبـير مـن أفاضـل الرّجـال، وعـن سرّ إدخـال الفتـى إلى محفـل لا شـأن لـه بـه. أجـاب الشّـيخ بصـوت حانـق ومؤنّـب: إذا فكّرنـا بمسـتقبل المجلـس الـذي نختـاره، أطفـال اليـوم هـم شـيوخ الغـد، فـلا تنسَـوا ذلـك أبـدًا، أمّـا المـرأة فهـي أخـت الرجـل ونـدّه، يحسـن بنـا إشراكهـا في عملنـا الدنيـويّ، الـذي زوّدهـا ربّهـا بالملـكات الضروريّـة لفهمـه والاشـتراك فيـه.

لم يصـدّق نايـف مـا سـمعته أذنـاه. كان يعتقـد أنّ حمـدان أفّـاق يتلاعـب بالقريـة لغايـات شـخصيّة. الحقيقـة أنّ نايفًـا ذهـب إلى العـرس بدافـع الضجـر والمجاملـة، فـإذا هـو أمـام وقائـع جعلَتـه نهبًـا لحـيرة أعجزتـه عـن تفسـير مـا حـدث. لقـد فوجـئ بمـا أعلنـه الشّـيخ، فـما كان منـه إلّا أن أنكـر موقفـه السّـابق حيالـه وأقنـع نفسـه أنّـه لم يحمـل لـه الغـلّ والحقـد إلى مـا قبـل لحظـات قليلـة، ولم يلصـق بـه أبشـع الأوصـاف ويحـرّض القريـة عليـه. بـل إنّـه قـال في سرّه: كنـت أرى في الهـادي عـلى الـدّوام رجـلًا فـذًّا لم تلـد النّسـاء مثلـه، وإن لم تتـح الفرصـة لي مـن قبـل لإعـلان مـا كنـت أضمـره. عـلى كلّ حـال، فـإنّ سـلوك الشّـيخ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

يؤكّد ما اعتقدته على الدّوام، فمَن غير نبيل شهم يقدّم أملاكه وأمواله للغير دون مقابل، ومّن غير كريم متفانٍ يؤْثر سواه على نفسه وأبيه وإخوته، ويتزوّج من فتاة لها حكاية مشينة ككلثوم؟ كان الإحساس بالخجل يتصاعد في نفس نايف، ولو قُيّض له أن يقف اللحظة أمام مرآة لَما جرؤ على النّظر إلى وجهه، كي لا تقع عيناه عليه، هو الذي كان يحمل إلى ما قبل لحظات أشدّ الأفكار دناءةً وأكثرها تجنٍّ على هذا الشّيخ الذي لم يكن يعرفه.

شرع المفزلك لتوّه يرى الهادي بعيون جديدة بينما هو يتأمّل نفسه بعين خياله ويلومها على ما ألحقته به من ظلم، وقد مرّت به لحظات انفعال أوشك فيها أن يرمي بنفسه تحت أقدام الشّيخ مستغفرًا نادمًا.

تنازع هذان الموقفان المفزلك، فأخذ يشعر أنّه صار عاجزًا عن مقاومة رغبته في إعلان عواطفه الجديدة حيال الشّيخ، وأحسّ أنّ سلوكًا كهذا قد يكون تسرّعًا وخيم العواقب فأحجم عنه. ألم يورّطه تسرّعه في موقف مخجل استمرّ إلى ما قبل هنيهات قليلة، وكان يمكن أن يستمرّ إلى الأبد، لو أنّ الشّيخ لم يترفّع عن دنايا الآخرين ويغفر أخطاءهم وذنوبهم، مثلما غفر له هو نفسه أخطاءه وذنوبه، وعيّنه في مجلس الألفة، رافعًا إيّاه إلى سُدّةٍ عليا هي مقام المختارين، وكان غارقًا إلى دقائق في بحر فاقةٍ لا أمل له في الخروج من جوفه المظلم. لقد أدخله الشّيخ إلى المجلس،

لحظة كان يفكر باختطاف زوجته. ورفعه إلى الذُّروة، رغم أنّه كان عارفًا بخبايا نفسه ونواياه. أيمتنع بعد هذا كلّه عن الارتماء تحت قدميه، ويتردّد في طلب غفرانه وعفوه؟

كان الحوار الدّاخليّ يتصاعد في نفس نايف، حين نهض الشّيخ واتّجه إليه ليسأله إن كان يعاني من مرض يسبّب له الألم. هبّ نايف واقفًا. قبل أن يقول أيّ شيء، وضع الشيخ راحته فوق جبينه، وقال هامسًا كأنّه يفضي إليه بسرٍّ لا يريد لأحدٍ سواه أن يعرفه: أنا أعرف كلّ شيء يا أستاذ نايف، أنت نادم وأنا أسامحك ولا أحمل لك غِلًّا. استدار الرّجل القصير عندئذٍ نحو الحشد يعلن بصوت قاطع: أشهد الحاضرين جميعًا على أنّ الأستاذ نايف هو منذ الساعة أخي، وأنّ أخُوّتي له ستستمر إلى أبد الدهر، مهما حدث.

ما إن عاد الشّيخ إلى مكانه، حتى قام الحشد إلى نايف يهنّؤونه في جوّ من الهرج الاحتفاليّ المرح. أمّا هو فأيقن أنّ الآخر كان يقرأ أفكاره، وأنّه كشف مكنوناتها ومضامينها، فقال بأسى: إذا كان قد عرف وسامحني، فلا داعي للاعتذار إليه. أمّا إذا كان قد عرف ولم يسامحني، فإنّ الاعتذار وحده لا يكفي، تُرى كيف أقوم بعمل يقابل أفضاله التي ما انقطع يسديها هذا المساء؟

تطلّع نايف إلى الشّيخ، فإذا بكلثوم ترميه بنظرة اتّهامية، كأنّه خان عهدًا قطعه حيالها. أشاح عنها بقسوة وجفاء، وفكّر للَحظة بالانصراف من العرس، معتقدًا أنّ ذلك ربّما

يكون أحسن الحلول، بعد أن عقد الشّيخ أخُوَّته معه. لكن سؤالًا هاجسيًا تصاعد في داخله، حال بينه وبين ما اعتزمه: ما أدراك أنّ العقد بين الشّيخ وبينك صحيح ومتكافئ؟ ألا تعتقد أنّ الخطوة التّالية لوضع يده على أملاك القرية ستكون تصفية خصومه، ومنهم أنت وعبلا الهبلا؟ ما الذي حدث في الواقع كي تقبل تحوّل الشّيخ المفاجئ الذي لا مبرّر له؟ افترض أنّه يريد كسبك بالفعل، فهل هذا ضمانة كافية لحياتك؛ وهل ما قام به نحوك يكفل حمايتك منه؟ وما أدراك أنّه ليس تغطيةً للخطوة الحاسمة، التي لن تكون سوى التّخلّص منك؟ هل يكون الشّيخ قد رفعك عندئذٍ كي تصبح سقطتك أشدّ إيلامًا، أم أراد تبرئة نفسه وغسْل يديه من دمك أمام جميع سكّان القرية؟ ارتعدت فرائص نايف من الخوف. نزع طربوشه عن رأسه يجفّف العرق الذي كان ينزّ من جمجمته ويسيل من جبينه، ثم مدّ يده بحركة غير مقصودة إلى سيجارة مشتعلة كان جاره قد وضعها على الطّاولة أمامه، فالتقطها وعبّ منها نفسًا طويلًا، مع أنّه كان قد أقلع عن التّدخين منذ زمن بعيد. كان يشعر بدمه يوشك أن ينفِر من وجهه، ويجد صعوبةً في ابتلاع الشّراب ومضغ الطعام؛ يستغرب قدرة الأفكار على التّلاعب بالإنسان، ويستغرب أكثر المأزق الذي وجد نفسه متورّطًا فيه، فهو بالكاد يعرف طرفه الآخر، الشّيخ حمدان، الذي كان يمسِك خيط الأحداث ليعتصر به قلبه وأفكاره، ويدفعه إلى ترك ما

عـداه والانضـواء تحـت سـطوته، رغـم أنّـه لا يجـد إلى اللحظـة شـيئًا يجمعهـما، إلّا إذا كان كلام الشّـيخ الغائـم عـن المجلـس والأخـوّة هـو جامعهـما المشـترك.

تمنّـى نايـف لـو أنّـه لم يـأتِ إلى هـذا العـرس الـذي يشـبه محكمـة توجّـه إليـه التّهمـة تلـو الأخـرى. التفـت إلى المـرأة الجالسـة قبالتـه، فـإذا هـي تنهـض عـن كرسـيّها وتتّجـه إليـه. حـدّق بهـا غـير مصـدّق؛ خطـر لـه أنّ الانسـان يصـاب بنوبـات جنـون مباغِتـة، عندمـا يفقِـد الأمـل، وأنّهـا أصيبـت بواحـدة مـن النّوبـات التـي تخـرِج المـرء عـن طـوره، وتجعلـه أهـلًا للقيـام بتصرّفـات لا يقـوم بهـا في حـالات السّـيطرة عـلى نفسـه. تزايـدت دقّـات قلبـه، جـفّ ريقـه تمامًـا، فـشرع يطلـب إلى ربّـه أن ينهـي السّـهرة عـلى خـير. انتابـه إحسـاس طـاغٍ بكرههـا ومـرّ في خاطـره شريـط مـن الأحـداث والوقائـع ذكّـره بهـا قبـل اختفائهـا وأثـار في نفسـه حقـدًا عاصفًـا عليهـا، هـي التـي كانـت فيـما مـضى رمـزًا لطبيعـة بكـرٍ جامحـة كثـيرًا مـا رأى فيـه نقيضـه وكرههـا، وصـارت الآن عينًـا لضمـيره، تطلـب إليـه الانتحـار، لحظـة وصـل إلى أكـثر مـمّا كان يتخيّـل في أيّ وقـت مـن حياتـه المعذّبـة.

وصلـت العـروس أخـيرًا إلى حيـث كان يجلِـس. وقفـت حيالـه تمامًـا وصرخـت في وجهـه: لمَ أنـت خائـف وممّـن تخـاف؟ نظـر الحضـور إليـه وقـد توقّفـوا عـن الأكل والـكلام. بـدا كمَـن يتعـرّض لامتحـان مباغـت في حضـور أنـاس لم يسـبِق لـه أن رآهـم. نهـض ببـطء وصعوبـة، كأنّـه يحمـل عـلى أكتافـه عبئًـا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

تتقصّف ساقاه تحت وطأته وقال بصوت مرتجف: لست خائفًا. أنا لا أخاف شيئًا. صمت لحظةً وأردف: ما دام شيخي راضيًا عنّي. أحسّ بالقوّة تعاوده بعد أن استجار بالهادي وأعلن انتماءه إليه. حوّل عندئذٍ نظره عن شيخه والتفت إلى الحشد يرى وقْع ما قاله عليه. رأى النّاس يضحكون باستمتاع وسعادة. استغرب ما شاهَدته عيناه. أجفل واتّجه ببصره إلى الشّيخ، فإذا بابتسامة ساخرة ترتسم على وجهه. لم يفهم في البداية سبب ضحك النّاس وسخرية الهادي. لقد طرحت العروس سؤالًا أجابها عليه، فما المضحك في الأمر؟ كانت التّعليقات السّاخرة قد أخذت تجري على ألسنة الضّاحكين، بينما كلثوم ما تزال واقفةً حياله كأنّها تنتظر إجابته. أدرك عندئذٍ أنّ صوته لم يخرج من فمه، وأنّ شفاهه تحرّكت دون كلام. لم يعرف ما الذي يجب عليه فعله، فانساق وراء أوّل فكرة عنّت له واندفع إلى الشّيخ صارخًا بخضوع: أستجير بك وأضع نفسي في حماك. عندما أجابه هذا: قبلتُ وضعك في حِماي، عادت العروس إلى مقعدها. أحنت رأسها فوق عنقها النّاحل المصفرّ، وأجهشت ببكاء متفجّع.

قبل أن ينصرف المدعوون إلى بيوتهم، وقف سالم يوسف وقال بارتباك: نحن يا سيدنا الشّيخ وهبنا الله أرضًا نعيش منها، ورِثناها أبًا عن جدّ. فهل ستدخلونها في الأملاك العامّة، وهل ستعاملوننا معاملة من لا أرض لهم؟ أليس في عملكم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

هـذا خـروج عـن الإرادة الإلهيّـة، التـي قسّـمت الأرزاق وأوكلـت إلى كلّ عبـد مـا يسـتحقّه؟ همهـم بعـض الحضـور تأييـدًا لِـما قالـه سـالم. بـل إنّ صوتًـا تعـالى قائـلًا إنّ اللـه عـزّت قدرتُـه لم يفـوّض سـلطته لأحـد؛ وإنّ مـن يريـد إعطـاء أرضـه لغـيره حـرٌّ في رزقـه، لكنّـه لا يجـوز أن يكـون حـرًّا في أرزاق النّـاس، التـي هـي منحـة مـن ربّ العالمـين.

وقـف الشّـيخ وقـد احمـرّ وجهـه والتمعـت عينـاه بنـار الغضـب، وصرخ بصـوتٍ هـزّ المـكان: تتحدّثـون عـن الإرادة الإلهيّـة وتجهلـون أنّ اللـه سـاوى بـين عِبـاده وفـرض عليهـم العـدل والإحسـان. نحـن يـا سـالم لا نأخـذ منكـم مـا هـو لكـم، بـل نعيـد إلى ربّ العالمـين حقوقـه فيكـم وفي أراضيكـم، مثلـما أعدنـا إليـه حقوقـه فينـا وفي أراضينـا. منـه المنطلـق وهـو السّـبيل وإليـه المـآل.

أفسـد اعـتراض سـالم الجـوّ. مـرّت لحظـات طويلـة مـن الحـيرة، قبـل أن يقـف نايـف معلنًـا أنّ الشّـيخ عـلى حـقّ، وأنّ الأرض يجـب ترْكهـا للقريـة تقـرّر فيهـا مـا تـراه. أيّـد الحـاضرون مـا سـمعوه، فتشـجّع نايـف واقـترح وسـط دهشـة الحضـور إدخـال سـالم إلى المجلـس، لكـن هـذا لم يسـمع بقيّـة الـكلام، فقـد كان في طريقـه نحـو البـاب، يتبعـه أنصـاره.

قالـت عبـلا الهبـلا في اليـوم التّـالي عنـد نبـع المـاء: إنّ القريـة لـن تعـرف الرّاحـة بعـد الآن، لأنّ الأبـرص شـقّها إلى قسـمين وضـع نفسـه فوقهـما.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

اِحتجّت إحدى النّسوة على تسمية الهادي بالأبرص، فآزرتْها نسوةٌ كثيرات هدّدت بعضهنّ عبلا بنقل ما تقوله إلى الشّيخ، الذي سيحرّك قوى خفيّة لن تسكت على إهانته، وهو ما هو بين أولياء الله الصّالحين. ضحكت عبلا وردّت هازئةً: إنّ القوّة الوحيدة التي تخيفني هي جهلكم وفساد عقولكم؛ وهذه ليست خفيّة، بل هي جليّة كضوء النهار.

منذ ذلك اليوم، تلاشى عدد المستمعات إلى عبلا، وزاد عدد منتقديها وكارهيها. وشرع أهالي القرية يتعاملون معها بلؤم بادٍ، بل إنّهم رموها بالجنون وتذكّروا لقب الهبلا اللصيق باسمها، وأخذوا يرون فيه تسميةً مطابقةً للواقع؛ كانوا يعتبرونه ضربًا من المزاح ولازمةً لفظيّةً لاسمِها الأوّل. هذا اللقب الذي كان في نظر القرية شهادةً لها نالتها عن جدارة، حين رفضت شابًا شاهدها ذات يوم قرب نبع الماء وحاول غَوايتها بنقوده وأملاكه، فعاملته بترفّع وازدراء؛ واستمرّت على رفضه حتى حين وافق أبوها على تزويجها منه.

كان سكّان القرية يعرفون بحبّ عبلا لملحم الرّاعي، وقد توقّعوا أن تتخلّى عنه من أجل رجل غنيّ يعجب أباها. إلّا أنّ توقّعاتهم وموافقة أبيها لم تُجْد في كسر عنادها، ولم تفلِح في إقناعها بالتخلّي عن الرّاعي، الذي كان حصان برّارٍ جموحًا، تُسْكِر شبّابتُه الجبال وتهزّ أعطاف الشّجر؛ يختلط صوتها بخرير الأنهار المنسلّة بين الوديان ويدغدغ القمر في عليائه. كان ملحم يغنّي، فيحرّك أعماق القلوب ويوقظ

فيهـا الحنـين إلى الحـبّ والعشـق، ويطلـق خيـالات الصبايـا والشّـبان نحـو عـوالمَ لم ترتدْهـا مـن قبـل، تضُـجّ بالحميميّـة والمعانـاة والتّـوق إلى الآخـر. وكان زينـة الأعـراس، إن قـام إلى الدبكـة اهتـزّت الدّنيـا فرحًـا وكادت الأرض تنهـض مـن تحـت أقـدام الرّاقصـين والرّاقصـات، فيرفعـون رؤوسـهم حـين ينشـد أغـاني المـرح ويخفضـون جباههـم أسًى لحـالِ العاشـقين والملهوفين والبؤسـاء والمظلومـين. كان ملحـم يغنّـي، فتمـوج الأرض والسـماء بتراتيلـه المكرّسـة لمجـد الإنسـان، الـزّارع، البـاني، الشّـقي، المتعب، العاشـق، المحـروم، الجائـع، الطّريـد، القـوي، الجاهـل، الضّعيـف. وكانـت قريتـه تنـام حـين ينـام وتفيـق عندمـا يفيـق؛ تصخَـب سـاعة يضحـك وتبـكي آنَ يحـزن؛ تـسرح معـه في الـبراري والآفـاق الفسـيحة، تفلـح معـه وتـزرع معـه وتحصُـد معـه؛ تحـضُر حـين يحـضر وتغيـب حـين يغيـب.

كـم حكـت القريـةُ حكايـة ملحـم وعبـلا. كان الأب قـد وعـد العريـس الـثّري بالفتـاة الجميلـة. حـين أخبرتـه برفضهـا قـال لهـا: لكننـي وعدتـه ولا أسـتطيع التنكّـر لوعـدي، كي لا أصبـح أضحوكـة القريـة. أجابتـه بحنـان: أنـت تعـرف أنّ قلبـي لم يعـد لي. ردّ الأب: لكـنّ ملحـم لـن يتـزوّج مـن عـالم البـشر؛ فهـو زوج الشّـبّابة و الوديـان والشّـجر والطّيـور والأنهـار والسّـماء، كـما أنّـه فقـير لا يقـدِر عـلى الـزواج فـإلى متـى تنتظرينـه؟ تعـالى صـوت شـبّابة ملحـم. صمتـت الفتـاة وقـد أوشـك وجيـب قلبهـا أن يخنقهـا، وصمـت أبوهـا بانتظـار جوابهـا. كان صـوت شـبّابة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ملحـم يتعـالى ويقـترب، والأب يشـعر أنّـه يدخـل إلى محـراب الحـبّ المقـدّس الـذي يجمـع ابنتـه إلى حبيبهـا، ويحـسّ أنّـه أمـام نـوع مـن الصّمـت يقـول مـا يعجـز اللسـان عـن قولـه. أيقـن عندئـذٍ أنّ ابنتـه كسـبت الجولـة ضـدّه، وأنّـه مـا كان ليفعـل إلّا مـا فعلَتـه، لـو كان في وضعهـا، فقـام وخـرج عـلى رؤوس أصابعـه مـن البيـت، خشـيةَ إيقاظهـا مـن نشـوة الوجـد التـي غرقـت فيهـا.

قـال الرّجـال يومـذاك إنّ عبـلا رفضـت الثّروة لأنّهـا هبـلا. وقالت النّسـوة إنّهـا رفضتهـا لأنّ ملحـم يسـاوي ثـروات الدّنيـا مجتمعةً. مـع الزمـن، تبنّـت النّسـوة أقـوال الرّجـال وسـمّينَها الهبـلا، رغـم أنّ هـؤلاء كانـوا قـد نسَـوا هـذا اللقـب منـذ وقـت طويـل.

كان العـرس نقطـة تحـوّل كـبرى في العلاقـات بـين الفتـاة بقريتهـا. احتملـت عبـلا في البـدء حالتهـا الجديـدة. لكـن مـرور الأيّـام أقنعهـا أنّ القريـة مـا عـادت قريتهـا القديمـة التـي أحبّتهـا وأمضَـت فيهـا مـا قُيّـض لهـا أن تعيشـه مـن سـعادة وشـقاء. أخـيرًا، وطّـدت العـزم عـلى احتـمال مـا يجـري آملـةً أن يتغـيّر الحـال، عندمـا سـتتّضح نوايـا حمـدان وتصحـو المـزار مـن خـدرِ الأوهـام اللذيـذة التـي أغرقهـا فيهـا.

قلّلـت عبـلا مـن ذهابهـا إلى الحقـل. لم تعـد تذهـب أيضًـا إلى نبـع المـاء إلّا في سـاعاتٍ معيّنـة، عندمـا تكـون القريـة غارقـةً في النّـوم أو منهمكـةً في العمـل. كـم حـاول أبوهـا تخفيـف وحشـتها

وإعادة المرح إلى قلبها، وكم أكّدت هي أنّها تعرف ما يعتمل في صدره وتحسّ بوطأة المقاطعة عليه. وقد بذلت جهدًا متّصلًا لإقناعه بالخروج من البيت، كما دفعته إلى مصالحة الهادي. غير أنّه كان يرفض الاستجابة لها في اللحظة الأخيرة، قائلًا إنّ هذا لن يصالحه، بل سيغفر له ويصفَح عنه، إن هو لم يحتقره ويعامله بازدراء. كان يكرّر على مسامعها ما قالته هي نفسها ذات يوم حول عزلتهما الموحشة، التي ستدوم إلى أن تتغيّر الأحوال، ويضيف بحسرة: هذا زمن تعلّم الصمت، زمن الحديث مع النفس وليس زمن الحقيقة المعلَنة والرأي الجهير، فاللعنة على الأبرص وسالم ونايف والأرض والمال، وعلى اليوم الذي يولد فيه الإنسان، لأنّه يوم بِدْء عذابه الذي لا ينتهي.

كان الأب يتعذّب، يزيد عذابه عجزُه عن فهم ما يجري وإدراك مبرّراته وأسبابه، وعزلته التي كشفت له ما في القرية من ضغائن وحقد. ووضعته في مواجهة عالَم لم يعتقد يومًا أنّه سيواجَه بمثله أو يتخيّل حتّى وجوده في هذا الركن الصّغير المنعزل، الذي يسمّونه مزار الدُّبّ. كانت الأسئلة تعذّب الجنيداتي، وكان يزيد شقاءه أنّها لم تتناول الحاضر وحده، بل طالت أيضًا الماضي والمستقبل، ماضيه هو ومستقبل ابنته، التي أخذ يتصوّر كيف ستمضي حياتها بعده، وحيدةً بين وحوش اعتقد إلى الأمس القريب أنّهم ملائكة، وأنّها ستكون في مأمن بينهم.

في هـذا الواقـع القـاسي، غـرق الأب عـن غـير قصـد منـه في أحـلام اليقظـة، وأخـذ يسـكّن جراحـات روحـه بتخيّـلاتٍ هانئـةٍ تعيـد الأمـور إلى مجاريهـا وترجِـع النـاس إلى مألوفهـم. كـم حلُـم وهـو جالـسٌ تحـت شـجرة التّـوت الكبـيرة بأصدقائـه القدامـى وهـم يشـاركونه شرب الشـاي ولعـب المنقلـة. وكـم سـمع بـأذن خيالـه همسـات ونـكات وضحـكات وصرخـات أحبابـه. بـل إنّ عبـلا هرولـت إليـه ذات يـوم والسّـعادة تغمُـر روحهـا، فقـد سـمعتْه يطلـب إليهـا إحضـار المنقلـة وإعـداد الشّـاي. لكـنّ فرحتهـا تبـدّدت عندمـا وجدَتـه يغـطّ في النّـوم، يـرى حلـمًا أو كابوسًـا.

لم تنـج عبـلا نفسـها مـن أحـلام اليقظـة. فقـد رأت مـرّة حمـدان الأبـرص قادمًـا إلى بيتهـا يطلـب إليهـا الانضـمام إلى المجلـس. كان الزّائـر يتعامـل معهـا بحـذرٍ وجدّيّـة؛ يتحـدّث إليهـا كمـن يتحـدّث في اجتـماع، فيحسـب حسـابًا دقيقًـا لكلماتـه، ويكـثر مـن تحريـك يديـه والتّلاعـب بصوتـه. وقـد كـرّر أفـكارًا أراد بهـا اسـترضاءها، فتحـدّث عـن خدمـة الآخريـن، التـي حـدّد مجالاتهـا تحديـدًا دقيقًـا. ثـم انتقـل إلى «الخطـوة الكـبرى» التـي اقترحهـا عـلى القريـة وحظيـت بقبـول جميـع سـكّانها. أخـيرًا اقـترح عليها الانضـمام إلى المجلـس، وضـمّ أمـلاك أبيهـا إلى الأمـلاك المشـتركة، وانتهـى إلى التّنويـه بمؤهّلاتهـا ومقدّراتهـا، وإلى الإعـراب عـن أملـه في قبولهـا في التعـاون، لأنّ في التعـاون خـير الجميـع.

كانـت الفتـاة قـد بـدأت تـردّ عـلى خطابـه، حـين دخـل أبوهـا المطبـخ طالبًـا إليهـا كأسًـا مـن الشّـاي. فاجأهـا ظهـوره، أطلقـت

شـهقةً جعلتـه يسـألها متضاحـكًا: هـل وصلـت العـدوى إليـك أنـت أيضًـا، أيتهـا البنيّـة الغاليـة؟ لم تـردّ، بـل أطرقـت إطراقـة مَـن غلبـه ضعفُـه، فاقـترب منهـا ووضـع يده عـلى كتفهـا وأردف: أعـدّي إبريـق الشّـاي وتعـالي إلى تحـت شـجرة التّـوت، فلـديّ مـا أقولـه لـكِ.

مـا إن وضعـت إبريـق الشّـاي عـلى المصطبـة أمامـه، حتـى سـألها الأب بلهجـة يختلـط فيهـا الجـدّ بالمـزاح: مـا رأيـك أن نهاجـر مـن مـزار الـدّبّ، القريـة الجاحـدة التـي تخلّـت عنّـا، مـا إن لـوّح لهـا أوّل محتـال ببعـض الوعـود والكلـمات الحلـوة؟ اسـتفهمت عـن المـكان الـذي يريـد الهجـرة إليـه، فأخبرهـا أنّـه عـازم عـلى قضـاء أيّامـه الأخـيرة في القيسـاء، القريـة التـي أمـضى بهـا أيّامًـا صيفيّـةً هانئـةً، حـين كان يذهـب إليهـا وأقرانـه للحصـاد. قالـت الفتـاة باقتضـاب: نفعـل مـا تـراه يـا أبي، ثـمّ اندفعـت إلى البيـت تبلّـل دموعهـا خدّيهـا.

صـبّ الجنيـداتي كأس الشّـاي الأوّل. رشـف منـه رشـفةً صغـيرةً، فـإذا بنايـف ينتصـب أمامـه بطربوشـه الطّويـل وبدلتـه المتآكلـة ونظّـارة الشّـمس التـي لا تفـارق عينيـه. أشـاح عنـه ولم يدعُـه إلى الجلـوس. لكـن الجفـاء لم يفـتّ في عضـد نايـف، الـذي ألقـى السـلام بلغـة متكلّفـة وجلـس قـرب الجنيـداتي، كـما كان يفعـل أيـام الصّفـاء والصّداقـة. سـأله الأب بغلظـةٍ عـن سـبب قدومـه. أجابـه أنّـه فاعـل خـير يحمـل رسـالةً مـن الهـادي يطلـب إليهـما سـماعها وإبـداء رأيهـما فيهـا. قـال الأب بصـوتٍ جـافٍ: هـاتِ مـا عنـدك.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بـدأ نايـف بتعـداد مآثـر شـيخه. قاطعـه الجنيـداتي طالبًـا إليـه الانتقـال إلى الرّسـالة؛ فمـن غـير المقبـول أن تكـون محاسـن حمـدان موضـوع رسـالة يبعثهـا إليـه وإلى ابنتـه. ضحـك نايـف محرَجًـا وقـال: سـيأتيك الـكلام في وقتـه، فالشّـيخ يهديكـما سـلامه ويعـرض عليكـما الانضـمام إلى المجلـس. سـألت الفتـاة، التـي كانـت تتابـع الحديـث مـن داخـل البيـت: هـل سـنُقبل كلانـا في المجلـس؟ هـل يقبـل أعضـاء المجلـس إعطاءنـا مقعدين ونحـن لا نمثّـل أحـدًا سـوى نفسـينا ولا نملـك مـن الأرض مـا يـبرّر قـرار الشّـيخ؟ أجـاب نايـف: أنّ الشّـيخ يفعـل مـا يشـاء وليـس لأحـد سـلطة عليـه. سـألته عبـلا عندئـذٍ بلهجـة مبطّنـة: بمـا في ذلـك الأعضـاء الجـدد؟ انتبـه الموفـد إلى غلطتـه، فغـيّر رأيـه وقـال إنّ كلَّ شيء قابـل للّنقـاش والحـوار، وإنّ صـوت الشـيخ مسـاوٍ في الحـوار لصـوت غـيره. سـألته عبـلا مـن جديـد: هـل يحـق لحمـدان الاعـتراض عـلى قـرارات الآخريـن مـن أعضـاء المجلـس. قـال نايـف: الشّـيخ هـو القائـد، والقائـد ليـس كغـيره، كـما أنّ صوتـه هـو الصـوت المقـرّر. تدخّـل الأب متسـائلًا عـن السّـبب الـذي يدفـع رجـلًا سـطوتُه مطلقـة عـلى القريـة إلى تقديـم عرضـه لهـما؟ أقـرّ نايـف أنّـه يجهـل الأسـباب، لكنـه يعتقـد أنّهـا تتعلّـق بكـرم الشـيخ وبعـد نظـره وحكمتـه ورغبتـه في توحيـد القريـة حـول خيرهـا، الـذي يعرفـه وحـده دون جميـع النّـاس. قـال الأب عندئـذٍ: اذهـب وقـلْ لسـيّدك إنّنـا سـنقف مـع الحـقّ، أكنـا أعضـاء في المجلـس أم

لم نكـن. سـأل نايـف بلهفـة: أيعنـي هـذا قبولكـم العـرض؟ أجـاب الأب بحـزم: لقـد أعطينـاك جوابنـا، وهـو الأخـير.

انـصرف نايـف حائـرًا في الإجابـة التـي طلـب إليـه نقلهـا لشـيخه؛ فقـرّر إبلاغـه الـردّ حرفيًـا، وإشـاعة خـبر في القريـة حـول موافقـة الأب وابنتـه عـلى العـودة إلى أهلهـما سـكّان القريـة.

مـا كاد النبـأ ينتـشر، حتـى أخـذ النّـاس يقصـدون البيـت المعزول. اسـتيقظ الأب وعبـلا عنـد طلـوع الفجـر عـلى طرقـات قويّـة عـلى البـاب. خافـا وسـارعا إلى اسـتطلاع مـا يجـري. حـين بلغـت مسـامعهما أصـواتٌ مطمئنـة، فتحـا بـاب البيـت الـذي لم ينقطـع حبـل زوّاره طيلـة النهـار، واسـتمرّ حتّـى الهزيـع الأوّل مـن الليـل.

كان القادمـون يرحّبـون بعودتهـما إلى أحضـان قريتهـما، ويعلنون استحسـانهم لقرارهـما التّعـاون مـع شـيخهم الحريـص عـلى وحـدة الجماعـة وخيرهـا. وكانـا مـن جانبهـما يوضحـان موقفهما؛ يعلنـان أنّهـما لم يوافقـا عـلى التّعـاون مـع أحـد، بـل أبلغـا نايفًـا بوقوفهـما مـع الحـقّ مـن أيّـة جهـة جـاء سـواء كانـا عضويـن في المجلـس أم لم يكونـا.

كان النّـاس يأتـون إليهـما مهنّئـين، وينصرفـون متذمّريـن غاضبـين؛ بـل أنّ بعـض زوّارهـما أخبروهـما بلغـةٍ لا لبـسَ فيهـا أنّ الهـادي سـيكون عـلى حـقّ في اتّخـاذ مـا يـراه ضدّهـما مـن إجـراءات، وأنّهـم سـيؤيّدونه دون تحفّـظ، مـا دامـا قـد رفضـا اليـد الممدودة إليهـما بالإحسـان.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

استغلّت عبلا يوم الزيارات لتقول رأيها في الأحداث التي عاشتها القرية. أبلغت الفتاة النّاس أنّها وأبيها لا يؤمنان بمساواة بين الذّئب والغنم، تنتزع من القرية أرضها وجهد أبنائها. وطلبت إليهم مقاومة من أسمته الدجّال، قبل فوات الأوان وضياع الفرصة. من جانبهم، كان الزوّار ينفرون من الاستماع إليها، ويغادرون بيت الجنيداتي حانقين على الرّجل الذي يترك قياده لابنته. لم يستجب أحد لتحذيرات الفتاة، وعاودت أذهانهم تسميتها القديمة، فشرعوا يتذكّرون وقائع تثبت هبَلها، أبرزها الأكاذيب التي تنشرها ضد الشّيخ.

ما إن انقضى اليوم التّالي، حتّى كان طوق العزلة قد أحكم بشدّةٍ أكبر حول الأب وابنته، التي كانت قد أصبحت هبلاء حقًا في نظر الجميع.

لم يرجع الجنيداتي وابنته دون مقاومة إلى وضعهما القديم، فقد فكّرا في طريقة تنقذ القرية رغمًا عنها، كما قال الأب، قبل أن يقصد ذات يوم بيت الشّيخ أحمد الصّالح، طالبًا معونته في إعادة القرية إلى صوابها.

كان الصّالح يداعب حبّات سبحته، ويستمع إلى ضيفه دون أن ينقطع لسانه لحظةً عن ذكر الله ربّ العالمين ومحاسن نبيّه سيّد المرسلين وشمائل أهل بيته أشرف الخلق أجمعين. وقد مرّت فترة توقّف الأب فيها عن الكلام، حين دخل الشيخ حالةً تشبه الغيبوبة، ولم يستأنف حديثه إلّا بعد أن فتح الصّالح عينيه متسائلًا عمّا كان يقوله.

أدرك الأب أنّه لن يكسب محدّثه، وأنّ هذا أدار ظهره للدّنيا بصورة نهائيّة، فلم يعد فيها ما يثير اهتمامه أو يستفزّ حميّته. قال الشّيخ للأب، حين أنهى كلامه: أنا لا أرى أهمّيّة القضية التي جئت تحدّثني بها، لأنّ الله لن يسمح في النّهاية إلّا بالخير لعباده. فإن هم فسِدوا كان فسادهم اختبارًا إلهيًّا يحظّر على المؤمن الوقوف ضدّه أو منْع حدوثه، كي لا يخالف مقاصد الباري عزّ وجلّ، أو يتدخّل في عناية الله، التي لن يدرك سرّها بشرٌ. سأله الأب عن موقفه من أعمال حمدان، فأجاب: لا أعرف، فعِلم الأشياء عند ربّ الكون. ثم أضاف أنّه لا يدين أعمال حمدان، لأنّ فسادها ليس سوى بلوى يبلو الله بها عباده، ليتيح لهم صلاح شؤونهم، فيكون لهم في الفساد ذاته عبرةً وموعظةً ونفعًا.

عاد الرجل إلى منزله كأنّه عائد إلى سجن، قانعًا أنّه صار وابنته وحيدين تمامًا. حين أخبرها بما جرى، تنهّدت قائلةً: سنتعايش منذ اليوم مع عزلتنا، ليَقيني أنّ دورةً حياتيّةً جديدةً قد بدأت بالنسبة لنا، وأنّنا أوّل ضحايا وضْع أدركنا أذاه قبل غيرنا، لأنّنا أدركناه قبل الجميع. قال الأب معترضًا: لكنك تحكمين على نفسك بالموت البطيء. أجابت: ربّما كان الموت الذي سينتظرنا منذ اللحظة غيرَ بطيء كما تظنّ.

أمضى الأب أيّامه الطّويلة التّالية غارقًا في بؤس شيخوخته دون أنيس أو جليس، فكان يمضي ساعات طويلة ناظرًا إلى نقطة ما، دون أن يرفّ له جفن أو يثير انتباهه شيء أو

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

صـوت، بـل إنّـه ركّـز نظـره ذات مـرّة عـلى نقطـة مـن الأرض ولبـث عـلى وضعـه لا يتحـّرك، إلى أن خشـيت ابنتـه أن يكـون قـد فقـد بـصره وسـمعه، وزاد مـن خوفهـا أنّ سُـبحته سـقطت مـن يـده ومكثـت سـاعات طويلـة عـلى الأرض، بينـما أصابعـه لا تنقطـع عـن الحركـة، كأنّ السـبحة مـا تـزال بينهـا. بعـد مـرور بضعـة أيّـام عـلى هـذا الضنـكِ المقيـم، نهـض الأب إلى كتـاب اللـه العزيـز، فوضعـه عـلى مسـندٍ أمامـه، ثـم جلـس القرفصـاء وشرع يتلـو آياتـه بصـوتٍ جَهـوريٍّ متحـدٍّ، كأنّـه يسـتعين بكلماتـه لكـسر حاجـز العزلـة المنتصـب مـن حولـه، ويبـادل بعـالم المـزار عـالم العـليّ القهّـار.

مضـت الشـهور والرجـل لا يفـارق جلسـته إلّا إلى النـوم. كان قـد عـزَف حتّـى عـن الحديـث مـع ابنتـه، التـي ذبُلـت بدورهـا وتحوّلـت إلى هيـكل شـفّاف يصمـت أيّامًـا كاملـةً، مكبًّـا عـلى قطعـة قـماش تراكمـت فوقهـا الخيـوطُ وتقاطعـت حتـى غـدت دون شـكل، تعكِـس مـا يعتمـل في النّفـس الملتاعـة مـن قلـق وحـيرة. ذات يـوم أراد الأب إيقـاظ ابنتـه باكـرًا، كـما كانـت قـد طلبـت إليـه قبـل ذهابهـما إلى النّـوم، فـإذا بفراشـها مرتّـب كأنّ أحـدًا لم يسـتخدمه. خـاف أن تكـون قـد جنّـت أو غـادرت المنـزل في الليـل. التقـط عصـاه وانطلـق يفتـش عنهـا، فـإذا بشـبحها قـرب السّـنديانة الصّغـيرة شرقـيّ البيـت يشـدّ الحـمار والبقـرة إلى المحـراث، لينطلـق بعـد برهـة إلى فلاحـة الحقـل، الـذي بقـي دون فلاحـة سـنوات كثـيرة. لم يسـألها عـمّا تفعلـه، بـل عـاد إلى

تـلاوة آيـات ربّـه، بينـما عملـت بـكلّ مـا في جسـدها مـن قـوة إلى الظّهـر، عندمـا عـادت إلى البيـت وضعـت قِـدرًا عـلى موقـد النـار وأعـدّت لـه وجبـةً كان قـد أخبرهـا ذات مـرّة أنّهـا أفضـل الوجبـات التـي كانـت أمّهـا تطهوهـا لـه. في اليـوم التّـالي نـزل الأب مـع فتاتـه إلى الحقـل، فعمـل بعـض الوقـت، ثـم تركهـا تواصـل بمفردهـا وعـاد إلى بيتـه، عندمـا قالـت لـه إنّهـا سـتذهب بعـد قليـل إلى النّبـع بصحبـة شـماء الأشـهب، ثـم سـتقصد ظهـر الجبـل للبحـث عـن فطـر تصنـع منـه حسـاءً لـه ولصديقتيهـا عفـاف وشـماء، اللتـين لم ترهـما منـذ وقـت يعلـم اللـه وحـده كـم كان طويـلًا.

كان سـكان المـزار قـد نسـوا الجنيـداتي وابنتـه، حـين سرت في القريـة إشـاعة حـول موتهـا، تقـول إنّ أفعـى متكـوّرة في عنـبر البرغـل لدغتهـا، اتّجهـت بعـض النسـوة إلى معـزل الجنيـداتي يسـتطلعن حقيقـة مـا جـرى، فـإذا بهـنّ يشـاهدن شـبحًا لم يعرفنـه في البـدء، يحمـل شرشـفًا أبيـض في يـد، وفأسًـا علـق عليـه تـراب طـريّ نـديّ تعبـق منـه رائحـة الأرض في الأخـرى، كانـت علامـات التّعـب والضّنـى باديـة عـلى الرجـل، فلـم يجـب عـلى استفسـارات النّسـوة بـل تمتـم باقتضـاب: إنّـه حُكْـم اللـه الذي لا مهـرب منـه. ثـم ذهـب إلى صـدر الغرفـة الكبـيرة، فجلـس عـلى الخـوان ووضـع يـده عـلى أذنـه وشرع يتلـو آيـات اللـه البيّنـات.

كان سـالم يوسـف أوّل مـن وصـل مـن رجـال المـزار إلى العـزاء. وقـد كـرّر في الفـترة مـا بـين دخولـه إلى البيـت وخروجـه منـه

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لازمـةً واحـدةً لم يجِـد عنهـا: أنتـم السـابقون ونحـن اللاحقـون. كان الرّجـل مهـدود القـوى يسـنده أحفـاده وأولاده. وقـد سـمع الحـاضرون الجنيـداتي يقـول لـه موبّخًـا: إنّ في حزنـك اعتراضًـا عـلى حكـم اللـه، واهـب الحيـاة وصاحبهـا؛ والاعـتراض عـلى إرادة البـاري معصيـة يهـون المـوت إزاءهـا. انخـرط سـالم عندئـذٍ في عويـل متواصـل، طالبًـا إلى الأب تفهّـم حالتـه النابعـة مـن أسـباب لا صلـة لهـا بالاعـتراض عـلى إرادة اللـه.

في اليـوم التّـالي جـاء حمـدان إلى العـزاء، تحيـط بـه حاشـية كبـيرة مـن أهـل القريـة. كان وجهـه ينضَـح بالحـزن، وكانـت أصابعـه تتلاعـب بعصبيـة بحبّـات سـبحة طويلـة تطقطـق عـلى إيقـاع الكلـمات المتدفّقـة مـن فمـه، ذاكـرةً صفـات اللـه الحسـنى ومذكّـرةً بقدرتـه عـلى عبـاده. قـال حمـدان وهـو مـا زال في مدخـل البيـت: إنّ حُزنَـه لغيـاب الفقيـدة يفـوق سـائر الأحـزان التـي خبرهـا في حياتـه، فأيّـد بعـض مرافقيـه أقوالـه، حـين جلـس عـلى الكـرسيّ داخـل البيـت، صمـت وراح يحـدّق في وجـه الأب علّـه يقـرأ أثـر الزّيـارة عليـه. لكنّـه عجـز عـن تبـيّن مـا يجيـش في الـروح الملتاعـة، فـأردف بصـوت واهـنٍ: لذلـك قـرّرت القريـة إقامـة حفـل تأبينـيّ لراحلتنـا، التـي لم تشرّفنـي الأقـدار الإلهيّـة بالتعـرّف إليهـا عـن قـرب في حياتهـا، فـإذا بحـزن القريـة يعرّفنـي عليهـا بعـد مماتهـا.

سَرَت همهـمات تستحسـن الاقـتراح وتطالـب بإقامـة الاحتفـال في اليـوم التّـالي. اسـتمر اللغـط إلى أن قطعـه الهـادي بحركـة بَرِمـة

مـن يـده، وضعـت حـدًّا للخـلاف الـذي كان قـد نشـب حـول ساعة الاحتفـال ويومـه. سـكت القـوم مـن جديـد فيـما تركّـزت أنظارهـم عـلى الأب الصّامـت، الـذي تـرك الشّـيخ حمـدان لـه وحـده، كـما قـال، حـقّ تحديـد موعـد الحفـل. أفـاق الجنيـداتي مـن شروده فصـاح بنفـاذِ صـبرٍ: ليسـت بي رغبـة للمشـاركة في احتفالاتكـم. بـدا لوهلـة أنّ إجابـة الأب لم تكـن متوقّعـة، فأحـسّ الحـاضرون بحـيرة وحـرج قطعهـما حمـدان مبديًـا تفهّمـه لموقـف الرّجـل الحزيـن ومتمسّـكًا باقتراحـه، فالغائبـة لم تكـن ابنـة أبيهـا فقـط، بـل كانـت ابنـة القريـة بأسرهـا أيضًـا. حـرّك الأب شـفتيه وقـال كلامًـا لم يتسـنّ لأحـد سـماعه، لأنّ القـوم كانـوا قـد انهمكـوا مجـدّدًا في امتـداح شـيخهم، الـذي رفـع يديـه إلى أن هـدأت الأصـوات، وأعلـن أنّـه يحيّـي موقـف الأب، ويـرى فيـه تعاليًـا كريمًـا عـلى الجـراح، ويُكْـبِرُ اسـتجابته لإرادة قريتـه، التـي تثبـت أنّ المصـاب لم يذهـب بصوابـه. صمـت لحظـةً قبـل أن يفـرد يـده الصغـيرة ذات الأصابـع الناعمـة ويـصرخ بصـوت مؤنّـب: تعلّمـوا مـن هـذا الرجـل، الـذي يضـع محبّتكـم فـوق ذكـرى ابنتـه، والحـاضر فـوق المـاضي، والجماعـة فـوق الفـرد. اجعلـوا مـن بيتـه محجّـةً لكـم، لترتقـوا إلى عالمـه، عـالم الطّهـر والتّسـامح والحـبّ.

أراد الأب قـول شيء. لكـنّ الضّجيـج العاصـف غطّـى عـلى صوتـه، فلـم يسـمع أحـد اعتراضـه عـلى «أباطيـل حمـدان الكـذّاب». في هـذا الضّجيـج أعلـن الهـادي زمـان ومـكان الاحتفـال، ثـم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

نهض متّجهًا نحو الباب، وشفاهه تردّد آيات تذكّر الكافرين بعذاب النّار.

انقطعت زيارات النّاس إلى بيت الجنيداتي، بعد أن قيل لهم إنّ الاحتفال هو نمط جديد من العزاء يسمو على سائر أشكال الحزن الفرديّ. لو كان في الدنيا ما يدهش الجنيداتي، بعدما مرّ به وبابنته، لكان قد أدهشه بالتأكيد امتناع أهل المزار عن التّعزية بابنته الميتة. إلّا أنّه تظاهر بعدم الاكتراث لما يجري، وكابر وكتم آلامه وجراحه المبرّحة، التي جعلته يتمنّى مرّات كثيرة لو أنّه فارق هذه الدّنيا مع ابنته. بعد أيّام من الوحدة، قالت شماء الأشهب إنّ حمدانًا عنّف أعضاء المجلس إبّان اجتماع أعقب وفاة عبلا، بسبب قيام بعض رجال المزار ونسائها بالتعزية بالفتاة المتوفّاة، وطلب معاقبة من عزّوا قبل أن يأذن المجلس بذهابهم ويقرّر السّماح لأبناء القرية بتجديد صلاتهم مع الجنيداتي. قالت شماء: حين تساءل أحد أعضاء المجلس باستغراب عن جدّيّة أقوال الشّيخ، نهره هذا وأبلغه أنّ المجلس صار هو الأساس الوحيد لحياة المزار، وأنّ قراراتِه ملزمة ضروريّة في أيّ شأن من الشؤون، بما في ذلك تلك الأمور الأكثر خصوصيّة وحميميّة.

لم يطلِ انتظار القرية، كما روت شماء وعفاف. بعد يومين، سمع الخَلق، وهم يستبعدون أن يكون ما يقال صحيحًا، أنباء العقوبات الكثيرة التي أنزلها الرّجال بالنّساء. وكان

أشـدّها إيلامًـا عقوبـة أمّ جابـر زوجـة إبراهيـم النّاطـور الثّانيـة، التـي شـاهدها أهـل القريـة بأسرهـا وهـي تتلـوّى تحـت ضربـات عصـا غليظـة قطعهـا زوجهـا مـن شـجرة رمّـان تغطّـي واجهـة بيتـه الأوسـط، ورأوا أولادهـا يتفرّجـون عـلى عذابهـا والدمـوع تنهمـر مـن أعينهـم وألسـنتهم تنطلـق بكلـمات الرّجـاء والضّراعـة إلى الأب، طالبـةً إليـه أن يرحمهـا ويرحمهـم. كانـت المـرأة تسـتجير بـه وبوالديـه وبالشّـيخ حمـدان، فلـم يقلِـع عـن ضربهـا، بـل إنّـه، عندمـا ذكـرت اسـم الشّـيخ، شرع يعـدّ العـصيّ التـي تصـل إلى جسـمها، وكـرّر أنّـه سـيضربها ألـف ألـف عصـا، وسـيقصّ أرجلهـا التـي تـدبّ بهـا مـن هـذا البيـت إلى ذاك، دون قـرار مـن الشّـيخ والمجلـس.

تجمهـرت النّسـوة مـن البيـوت المجـاورة؛ جـاء بعـض الرّجـال يقنعونـه بدورهـم أنّهـا نالـت مـا تسـتحقّه، لكـنّ محاولاتهـم بقيـت دون جـدوى. عندئـذ ألقـت ابنتـه الكـبرى، التـي مـات عريسـها بعـد يومـين مـن زواجهـما بنفسـها عـلى قدميـه، راجيـةً أن يحـوّل عصـاه إليهـا، لأنّ أمّهـا توشـك أن تمـوت تحـت ضرباتـه. فـما كان منـه إلّا أن جذبهـا مـن شَـعرها إلى أن طرحهـا قـرب أمّهـا وخـار كثـور هائـج، بينـما يـده تفـرّق ضربـات لا تنقطـع عـلى المرأتـين: أليـس موتكـما أحسـن مـن عصيانكـما لأوامـر الشّـيخ؟ كان يـصرخ ويضربهـما، كأنّـه يصفّـي حسـابًا قديمًـا معهـما. وكان لا يفتـأ يعـيّر الفتـاة بمـوت زوجهـا، ويـرى في ترمّلهـا برهانًـا عـلى غضـبٍ إلهـيٍّ نـزل بـه وجعلـه عرضـةً لأخطـارٍ لا سـبيل إلى تفاديهـا مـا دامـت حيّـة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

سمع الشّيخ ما حدث في بيت النّاطور فتساءل: لماذا يضرب الرّجال النّساء إذا كانت هناك عقوبات معنويّة أشدّ إيلامًا من العقاب الجسديّ؟

في اليوم التّالي أشهد الناطور الله وعباده على هجر زوجته، وأعلن أنّها غدت في مقام أمّه، لا يقربُها أو يمسّها ولو اختفت النّسوة عن وجه الأرض. وقيل أيضًا إنّه حظّر عليها النّوم في البيت الأوسط وأمر بنقلها إلى حظيرة الحمير والبقر، حيث ستفترش الأرض إلى أن يستردّ الباري سبحانه أمانته الطّاهرة من جسدها الدّنِس. كما شاع أنّه حرمها وأولادها من الميراث ووقفَه للشّيخ.

بعد أيّام من العزلة والصّمت، سمع الجنيداتي ضجّةً قرب بيته، فقدّر أنّ الاحتفال قد بدأ. فتح الشبّاك المطلّ على قبر ابنته، فوجد رجال القرية متحلّقين حول السّنديانة الصّغيرة التي تظلّل أغصانها القبر. أحسّ بحقد جارف يجتاحه ويهزّ جسده الواهن هزًّا، فالتقط فأسًا من وراء باب البيت واندفع ليفكّ قبضة حمدان عن أرضه المهدّدة. كان يضع عينيه على خصمه ويركض باتّجاهه بأقصى سرعة أسعفته بها شيخوخته، رافعًا الفأس فوق رأسه كأنّها سيف. بيد أنّه لم يفلِح في الوصول إلى غريمه، فقد امتدّت مئات الأيدي لإيقافه قبل أن تنتزع الفأس منه وتنقضّ عليه. رأى حمدان المشهد، فضحك وطلب من أتباعه إظهار المودّة والتّسامح حيال الأب المنكود، الذي لا يعرف ماذا يفعل. أفلتت الأيدي

القويّـة الجنيـداتي وأنزلـت السّـواعد الفـؤوس التـي كادت تنقـضّ بهـا عـلى رأسـه، فأخـذ يـصرخ صراخًـا هذيانيًّـا لم يفهـم أحـد معنـاه. إلى أن غلبـه الأسى فانفجـر ينتحـب وينشِـج بقهـر ويـأس. تركـه الحشـد عندئـذٍ متكـوّرًا عـلى نفسـه فـوق الأرض، بينـما كان الهـادي يطلـب إلى المـزار مواصلـة احتفالهـا بابنتهـا.

هـدّأت كلـمات الهـادي النّفـوس. وقـف نايـف عندئـذٍ يعلـن أنّـه لا يعـرف كيـف يـوفي الفقيـدة الغاليـة حقّهـا مـن المديـح. ويحـسّ بالحـرج لوقوفـه راثيًـا لهـا، هـي التـي كانـت مصـدر إلهامـه ومحـطّ اهتمامـه. والتـي ارتبطـت بـه برابطـة روحيّـة خاصّـة، اختلـط فيهـا نـور العقـل بنـار العاطفـة؛ فـإذا هـما في حالـة وجْـد خالـص، تسـمو عـلى متـع الدنيـا وترتقـي إلى عـالم الـرّوح المحلّقـة بأجنحـة مشـاعر شـفّافة لا يعرفهـا إلّا الحالمـون المنّزهـون عـن الهـوى، ممّـن بلغـت أفكارهـم ذُرى التفـرّد والتفكّـر السّـامي، فانقطعـت حبالهـم مـع العـالم الفـاني، واتّصلـت بالحقيقـة المطلقـة، حيـث يعيـش بعـض الأحيـاء في ترفّـع عـن الخطيئـة ودناياهـا؛ متّصلـين بالواحـد الأحـد، يحدوهم هـدف لا يرقـى إليـه النَّسر الـكاسر أو يدركـه الخيـال الطّائـر، يجتمـع لهـم النّظـر الثّاقـب والـرّوح اللاهـب، والحـسّ الشـفيف والعقـل الحصيـف، وتحـلّ عليهـم بـركات البـاري عـلا اسـمه، مثلـما حلّـت عـلى شـيخنا الجليـل، راعـي هـذا الاحتفـال وحافـظ ذكـرى فقيدتنـا، التـي مـا أولاهـا هـذا القـدر مـن الاهتـمام لعظمتهـا هـي، بـل لأنّـه هـو العظيـم الرّحيـم، الـذي نـرى في لقائنـا احتفـالًا بشـمائله ومِهْرَجانًـا لفضائلـه.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

التفت الشّيخ إلى نايف طالبًا إليه أن يتوقّف. لم يسمع نايف أمر شيخه، فرفع يده ومطّ عنقه الطّويل، وتهيّأ لاستئناف كلامه، غير أنّ يدًا امتدّت إلى أسفل سترته تجذبه بقوّة عن الصخرة التي كان يعتليها، فترنّح وأوشك على السّقوط. أطلق القوم عندئذٍ تعليقات ساخرة تعالت من جميع الأفواه: هل نفهم من كلامك أنّ عبلا كانت تحبّك؟ في أيّة مدرسة تعلّمت الخطابة؟ أفهمتم شيئًا ممّا قاله عن الحسّ الشّفيف والعقل الخفيف؟ أين كنت تخفي هذه المواهب النّادرة؟ كان الضحك قد تحوّل إلى ضجيج عاصف، عندما رفع الهادي يديه وقال بهدوء للحشد الذي صمت فجأةً: لقد تعلّم الأستاذ نايف الخَطابة، وسيكون على كلّ واحد منكم أن يتعلّمها بالطريقة النّايفيّة. صمتوا وقد باغتهم التّقريع، فرفع صوته وصرخ بهم مؤنّبًا مستغربًا: ألا تلاحظون أنّ الأستاذ يعبّر عن الذّكاء الفطريّ لتابعٍ يعرف مآرب شيخه حتى قبل أن يفصح عنها؟

مرّ الخطيب التّالي بدوره مرورًا سريعًا على «الشّهيدة» بل إنّه بالكاد ذكرها، أو إنّ ذكرها كان مجرّد مدخل إلى حديث مطوّل عن الشّيخ، الذي ما كان لرجل غيره أن يأمر بهذا الاحتفال، وما كان الأهالي ليجتمعوا بأمر أيّ إنسانٍ سواه. هل قلت إنّه إنسان؟ تساءل الخطيب مستنكرًا سؤاله، ثمّ صرخ بتفجّع: أنت يا مولاي الهادي من طينة غير طينتنا نحن الفانين. أنت بلا مغالاة نور وروح، قمر منير في العتمة،

شـمس تضـئ قلوبنـا وتتغلغـل إلى أرواحنـا، فأفِـض علينـا مـن بركتـك وأدِم علينـا حضـورك بيننـا، ليكـون لنـا حـظّ لقائـك عـلى الـدّوام، والعيـش في بركتـك التـي غـيّرت حياتنـا، وبدّلـت كياننـا وأوصلتنـا إلى الخـير والحـقّ.

وقــف الشّــيخ فجــأةً كأنّــه ينبثــق مــن الأرض. رفــع ذراعيــه في الهــواء كمــن يوشــك أن يطـير، فصمــت الخطيــب. انتظــر المحتفلـون مـا سـيقوله، لكنّـه جمـد عـلى وضعـه الغريـب، كأنّـه فقـد ارتباطـه بالمـكان. بينـما كان رأسـه منكّسًـا ووجهـه يقطـر خشــوعًا وأسىً وعينــاه مغمضتــان كحفرتــين انتفختــا خارجتــين مــن وجهــه الــذي يعتــصره ألم مُجْهِــد. كان الصّمــت الثّقيــل يجثِــم عــلى صــدور الجميــع، عندمــا صرخ بصــوت عاصــف: هـل توافقـون عـلى مـا قالـه؟ أجابتـه أصـوات: بـل إنّـه لم يقـل الحقيقـة كلّهـا. حـرّك عندئـذٍ ذراعيـه، كأنّـه يطـوّح بهـما بعيـدًا عنــه، ثــمّ صــاح كالمطعــون: الويــل لكــم. هــذه صفــات اللــه الحسـنى، أيّهـا الكفـرة المارقـون. أتحسـبون أنّ اللـه يغفـر لكـم التكنّــي بصفاتــه؟ الويــل لي ولكــم مــن غضــب القــويّ العزيــز، والويــل لأولاد أولادكــم، إن أنتــم لم تســترضوه بصالــح الأعــمال. أخــذ الذعــر بقلوبهــم فأدركــوا أنّهــم ارتكبــوا إثمًــا لا يُغتفَــر، وكانـوا عـلى اسـتعداد لفعـل أيّ شيء يؤمـرون بـه، إذا كان يـرضي القــويّ الجبّــار والهــادي الصالــح.

أيقـن الشّـيخ أنّ كلامـه فعـل فعلـه في سـامعيه. فلطّـف صوتـه وقـال بهمـس كأنّـه يحـدّث نفسـه: تعلمـون أنّ الغائبـة كانـت

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

تكـنّ لي العـداء وتكيـل لي الشّـتائم، وتعرفـون أنّها لاقـت وجـه باريهـا، دون أن تتلقّـف يـد المحبّـة التـي مددتها لهـا، فأرجـو أن يسـامحها اللـه في الدّنيـا والآخـرة، وأن يغفـر لهـا ذنوبهـا. اللّهـم اغفـر لهـا، لأنّنـي أنـا، حمـدان الهـادي، أطلـب إليـك الغفـران لروحهـا المعذّبـة. وأعلـن أمـام هـذا الشّـعب أنّنـي سـامحتها وغفـرتُ لهـا وعفـوتُ عنهـا.

كان النّـاس قـد أخـذوا يتنفّسـون عـلى إيقـاع همـس الشّـيخ، كأنّهـم يخشـون إيقاظـه مـن الحالـة الوجدانيـة التـي اعترتْـه. عندمـا رأوه يُخـرج منديـلًا مـن جيبـه يمسـح بـه دموعًـا بلّلـت ذقنــه، ســاد المـكان الأسى وتعــالى نحيــب الحضــور المكتــوم. واصـل الشّـيخ عندئـذٍ حديثـه الهامـس: جئنـا إلى هـذا المـكان لنحتفــي بالغائبــة، نــرسي تقليــدًا جديــدًا لم نمارســه في هــذه القريــة مــن قبــل هــو تقليــد العفــو عنــد المقــدرة، الــذي أنسـانا إيّـاه اللـؤم وفسـاد النّفـوس. إنّنـا سـنعيش عـلى العفـو والتّســامح، ولــن نســمح بــزرع البغضــاء والحســد في نفوســنا بعـد اليـوم. رفـع رأسـه، تطلّـع إلى الحشـد الحزيـن؛ أخـذ فجـأةً يـد أحـد الفلّاحـين فرفعهـا إلى فمـه وقبّلهـا بخشـوع، طالبًـا إلى الفـلّاح أن يغفـر لـه. ثـم اندفـع يقبّـل أيـادي الحضـور ويطلـب غفرانهـم بصـوتٍ بـاكٍ، تخنقـه دموعـه التـي تخضّـب ذقنـه.

لم يعـد بوسـع أحـد السّـيطرة عـلى المشـاعر. ولم يعـد هنـاك مـن يمسِـك بزِمـام نفسـه، كان الخلـق قـد سـمعوا مـن آبائهـم وأجدادهـم حكايـات كثـيرة عـن الأنبيـاء والرّسـل، واعتقـدوا أنّ القـدر لـن يتيـح لهـم الحيـاة في كنَـف وليّ مـن الأولـيـاء أو رسـول

مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

مـن الرّسـل، فـإذا بالمعجـزة تحـدث، وإذا بهـم يعيشـون التجربـة بـكل مـا فيهـا مـن طهـر وصـدق.

كان الشّـيخ قـد غـدا قشّـة في مهـبّ العواطـف، تتقاذفـه الأيـادي التـي تحـاول مسّـه والتـبرّك بـه. وتتلاعـب بـه حركـة جمـوع متماوجـة، تـرى فيـه أعظـم مَـن وقعـت عليـه عيونهـا وسـمعت آذانهـا.

اسـتمرّ الهيـاج وقتًـا طويـلًا، تعـرّف الشّـيخ خلالـه عـلى المـدى الـذي بلغتـه علاقتـه بأتباعـه. حـين تعـب النّـاس أخـيراً، رفـع صوتـه مقترحًـا عليهـم بنـاء ضريـح للغائبـة يتوسّـط أرض أبيهـا، ويكـون موقعـه فـوق الرّابيـة، لـيراه القـاصي والـدّاني، ويتـبرّك بـه الأهـالي عـن بُعـد عندمـا لا يسـتطيعون التـبرّك بـه عـن قـرب. وأعلـن أنّـه يتـبرّع بالمـال الـلازم لإشـادته مـن جيبـه الخـاصّ، الـذي هـو جيـب القريـة، عـلى أن يكـون المـزار نـواة لمدفـن الـبرَرَة والصالحـين مـن أبنـاء المـزار، الذيـن يجـب أن تجتمـع أرواحهـم في دار البقـاء، مثلـما اجتمعـت أجسـادهم في دار الفناء.

هلّـل الحـاضرون للاقـتراح. ولـولا أنّ التّعـب قـد أنهكهـم، لتكـرّرت المشـاهد التـي حدثـت قبـل قليـل. أنتـم موافقـون كـما أرى وأسـمع، فلننتقِـل إلى التنفيـذ إذًا. قـال الشّـيخ ذلـك ثـم مـدّ يـده إلى فـأس كانـت في يـد أحـد الفلّاحـين يرسـم بهـا مـكان الضّريـح عـلى الأرض. اندفـع عندئـذ فلّاحـون كثـيرون إلى الرّابيـة، التـي سرعـان مـا تحـوّل جزؤهـا العلـويّ إلى منبسـط احتـلّ القسـم الأكـبر مـن أرض الجنيـداتي الصّغـيرة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مع غروب الشّمس، بدأ المزار يتجسّد واقعًا حيًّا أمام أعين الفلّاحين الذين عملوا طيلة النّهار بحميّة واندفاع، رغبةً منهم في إرضاء الشّيخ واحترامًا لذكرى الميتة. كانت عشرات الأيدي ترتفع وتنخفض بلا توقّف، فاتحةً في الأرض الصّلبة تجويفًا يتّسع بلا انقطاع. وكان العرق يسيل من الزّنود القويّة والرقاب الغليظة والصّدور العارية، بينما يستمرّ العمل في صمت خاشع تحت إشراف الشّيخ.

اكتمل المنبسط الصّغير وانتهت الحفرة في السّاعات الأولى من الليل. اقترح أحد الفلّاحين تأجيل نقل الجثمان إلى اليوم التّالي، فالصّباح رباح، كما يقول المثل. إلّا أنّ حمدان نهره بحدّة: ألا تعرف أنّ للأموات مشاعرَهم وأحزانهم؟ لقد وعدناها، فلنحقّق وعدنا. وإلّا نامت اليوم ناقمةً وحلّ علينا غضب العزيز القدير.

انتقل الرّجال إلى القبر الأصلي للفتاة، يهوون بمعاولهم عليه. قال أحدهم متسائلًا: أليس نبش القبور حرامًا يا شيخي؟ ردّ الشّيخ، الذي كان يصغي لكلّ كلمة يقولها رجاله: هو حرام، إذا كان القصد منه إتيان فعل شنيع في الميت أو الاعتداء على ممتلكاته. أمّا إذا كانت غايته تكريم المتوفّى وإراحة روحه، عدّه الله إحسانًا جزاؤه الجنّة.

كان الرجال يعملون، والشّيخ واقف يشرف على حركاتهم وسكناتهم، مطمئنًا إلى أنّ الجثّة ستُنْقل إلى موضعها الجديد، حيث ستتوسّط أرض أبيها.

عندما ضاقت الحفرة وصار مُحالًا أن يعمل الحفّارون فيها مجتمعين، أمرهم بالخروج ونزل بنفسه إلى حيث الميتة. نطق باسم الله، ثم أخذ فأس أحد الفلّاحين وشرع يحفر بهمّة ونشاط، مصعّدًا جهده مع تزايد اقترابه من جثمانها. كان رجاله يتابعونه ويطلبون إليه من حينٍ لآخر أن يريح نفسه قليلًا، لكنّه كان يرفض الخروج من القبر مهلّلًا (في سرّه): هذا يومي. لو كنتم مكاني لفهمتم ما أعنيه، ولأحسستم بما أحسّه.

وصل الفأس أخيرًا إلى الحجارة التي تغطّي الجثّة. توقّف الشّيخ عن العمل وراح يتأمّل باستغراق وجوه الحاضرين. سأله أحدهم إن كان يريد مساعدة. أجاب باقتضاب: مَن يساعده ربّ العالمين لا يحتاج إلى مساعدة عباده. انحنى بسرعةٍ؛ رفع الحجر الأوّل ووضعه خارج القبر بأناة وتؤَدة كأنّه يخشى أن يسقط فيه من جديد. انحنى مرّةً ثانية ليرفع الحجر التّالي، وجده ثقيلًا يصعب رفعه، فاستغرب في سرّه كيف استطاع الجنيداتي العجوز حمله من الجدار البعيد ووضعه بهذا القدر من الدّقّة والإتقان في مكانه. أرخاه قائلًا: يبدو أنّها لا تريد تسهيل عملنا. كانت صعبةً في حياتها وها هي صعبة في مماتها أيضًا. انحنى من جديد على الحجر ورفعه بقوّة ما كان يظنّ أنّ جسده يختزنها. ابتسم بتردّد في البداية، ثم اتّسع فمه لابتسامة سعيدة تحوّلت إلى ضحكة جلجلت في نفسه، خيّل له أنّ الفلّاحين سمعوها بدورهم،

فألقى عليهم نظرةً أراد أن تكون ملتبسةً ومتواطئة. عندما أيقن أنّهم لم يشاركوه ما حدث ولم يفقهوا معنى ما يجري، أحسّ بالسّعادة والرّضا.

بدَت الجثّة ممدّدةً في شرشف حال لونه فصار كلون الأرض. باعد ما بين ساقيه، ثم أسند يديه إلى خاصرتيه يتأمّلها بتؤَدة. وقد جمد على وضعه فترةً خال رجاله أنّها لن تنتهي. كما كان هؤلاء صامتين يترقّبون ما سيفعله، بينما كان هو يُجري معها، من جانبه، حوارًا داخليًا أوشك أن يجهَر به مرّات كثيرة. انحنى فجأةً يحاول رفعها، وقد جعل يديه تحت ظهرها، فلم تتزحزح قيد أنملة وبدا له أنّ جسدها ثقيل كالرصاص، تركها وهو يلعنها في سرّه. استعان عليها بالله بصوتٍ عالٍ، لكنّ نتيجة المحاولة الجديدة لم تكن أفضل من سابقتها، رغم الجهد الذي بذله، وبدت آثاره على وجهه المحتقن وعروق رقبته المنتفخة. سأله الحاضرون أن يسمح لهم بمعاونته، فردّ بعصبيّةٍ وجفاءٍ: هذه مهمّتي أنا، فاتركوها لي ولا تتدخّلوا بها. إنّها تعاند ميّتةً كما كانت تعاند حيّةً، لكنّها لن تلبث أن تلقي بأسلحتها أمامي، أنا الشّيخ حمدان الهادي الذي تعرفونه.

لم تُجدِ المحاولات الكثيرة التي قام بها. استخدم الفأس لحفر حفرة تحت الجسد المسجّى، علّه يستطيع اقتلاعه من القبر، عندما فشل في مسعاه ربطه بالحبال وخرج من الحفرة ليخرجه بدوره منها، فباءت جهوده الجديدة بالخذلان.

فكّـر عندئـذٍ بتقطيـع الجثّـة إلى قطـع صغـيرة ينقلهـا إلى حفـرة المـزار قطعـةً بعـد اخـرى. لكـنّ الجسـد اسـتعصى عـلى التقطيـع، وارتـدّت الفـأس عنـه في كلّ مـرّة كأنّهـا تصطـدم بكتلـة صخريّـة صلـدة لا سـبيل إلى تفتيتهـا أو تقطيعهـا. أمـر بإحضـار حـمار، فربـط الجثّـة مـن جديـد بحبـال قرنهـا إلى خشـبة عرضانيّـة، ثـمّ انهـال ضربًـا عـلى الحيـوان الـذي كان جهـده يشـتدّ باشـتداد ضربـات العـصى التـي تنهـال عـلى عنقـه ورأسـه. لم يرتفـع جثمان عبـلا، فنـزل الشّـيخ إلى القـبر مـن جديـد وقـد أعيَتـه الحلـول والحيـل وحـار فيـما يفعلـه، بينـما أتباعـه ينظـرون إليـه بقلـق وخـوف. لبـث برهـةً في القـبر، ثـم خـرج منـه ليقـوم بـدورة قصـيرة في الرّابيـة، عـاد يقـف بعدهـا قـرب الحفـرة، يـضرب الجسـد بالحجـارة ويدفـع بقدمـه الـتّراب فـوق وجهـه، قبـل أن ينـزل إليـه كي يرفسـه ويضـع ركبتيـه في بطنـه وصـدره ويضربـه بكلتـا يديـه مطلقًـا عـلى صاحبتـه موجـات متتاليـة مـن السّـباب، يتخلّلهـا صراخ مسـعور يعلـن أنّـه سـيحرقها وسـيذّر رمادهـا في الرّيـح. اقـترب نايـف يرجـوه السّـماح لـه بمسـاعدته، فـترك الجثّة وخـرج يضربـه ويشـتمه ويطـارده في الرّابيـة. أحـسّ فجـأة أنّ الجهـد الـذي بذلـه قـد أضنـاه. فدخـل فجـأةً في هـدوء قلـقٍ رجـا عبـلا خلالـه أن توافـق عـلى نقلهـا إلى المـزار، الـذي سـيكون اسـمه «مـزار الغفـران» تيمّنًـا بالمصالحـة بينهـما وإيذانًـا بفتـح صفحـة جديـدة بينـه وبـين أبيهـا، تنتهـي إلى إعطائـه أحسـن أرض في الجبـل تعويضًـا لـه عـن أرضـه التـي لا تسـاوي شـيئًا.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لم تستجب الجثة للرّجاء ولم تتزحزح من قبرها، فوجد نفسه في حالةٍ من الحرج لم يسبق له أن واجه ما يشبهها. كان رجاله ينتظرون ما سيفعله، وقد أدركوا أنّ الوضع قد تجاوز قدراتهم على مساعدته. كان الصّمت يخيّم عليهم وعلى الشّيخ، وكانت الحيرة تشلّهم. اندفع أحدهم إلى القبر محاولًا إخراج عبلا منه. نظر الشّيخ إليه دون اعتراض، وحين فشل صبّ عليه سيلًا من اللعنات، وهدّده بلدغة أفعى إن هو عاد إلى التدخّل فيما لا شأن له به.

انقضى الوقت والقوم صامتون ينتظرون تعليمات شيخهم الحائر. كان حمدان قد ابتعد عنهم إلى القسم الشّرقي من أرض الجنيداتي، فجلس فوق صخرة تشرف على وادٍ، تمنّى لو أنّه فتح شدقيه وابتلع مزار الدّبّ، التي سيلوّن رجالها ونساؤها فشله أمام عبلا بألف لون ولون، وسينصرفون عنه بسببها ويديرون له ظهورهم إلى الأبد. أحسّ بعرق ثلجيّ بارد ينبجس من سائر مسامّات جسده المنهك، فأيقن أنّه فريسة حمّى عاتية ما لبثت أن أخذت تهزّه هزًّا. لاح له أنّ أمامه القليل من الوقت لإنقاذ سمعته، فنهض فجأةً من مكانه وقصد رجاله المتحلّقين حول قبر عبلا وقد تناثرت فؤوسهم في الرّابية. أمرهم بردم القبر، انتظارًا لفرصة اخرى تكون الميتة فيها أكثر استجابةً لرغبات الأهالي ولأوامر ربّ العالمين. حين بدأ الرّجال يهوون بالتّراب على الحفرتين، أبلغهم أنّ رواية ما حصل ستعرّض صاحبها لغضبه وغضب

الخالـق الجبّـار، وأنذرهـم بـأنّ مـن يفـشي أسرار الأمـوات ينتهـك حرمتهـم، وأنّ مصـيره جهنّـم وبئـس المصـير. أمرهـم أخـيرًا بإخبار القريـة أنّ عبـلا ترقـد منـذ ليـل البارحـة في مزارهـا الجديـد، وأنّـه يمكنهـم زيارتهـا للتـبرّك بهـا، وللتقـرّب مـن اللـه ومـن عبـاده الصالحـين.

مـا إن أتـمّ الحفّـارون ردم القبريـن، حتـى رفـع الشّـيخ طـرف ردائـه وانطلـق بنشـاط نحـو بيتـه، تعلـو وجهـه ابتسـامة سـاخرة وتلتمـع عينـاه بشـماتة مفعمـة بـالازدراء. ابتعـد قليـلاً عـن القـبر. توقّـف كمـن تذكّـر شـيئًا، ثـم اسـتدار وبصـق عـلى أرض المـزار الرّخـوة الطريّـة، وهـرول بخطـىً سريعـة نحـو القريـة النّائمـة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بـــموت عبلا وإقامة مـــــزار الغفـران، نعِمـت مـزار الـدّبّ بحالـةٍ مـن السـعادة والرضـا. ألم يجمـع الشّـيخ الأحيـاء عـلى حبّـه ويتصالـح مـع الأمـوات ويجعل قبرهـم محجّـة للأهـالي؟ كانـت الحيـاة في مـزار الـدّبّ تنعطـف نحـو مسـار جديـد، وكان الهـادي ينـشر أجنحتـه فوقهـا ويفـرد ظلّـه عـلى دقائـق أيّامهـا ويقـوم بزيـارات يوميّـة لبعـض بيوتهـا، مانحًـا بركتـه لهـذا المريـض فيشـفى، وكاتبًـا الأدعيـة للنسـاء فيحملـنَ، ومبـاركًا الأرض بصلـوات وتضرّعـات سرّيّـة تجعلهـا تعطـي أحسـن المحاصيـل وتنبـت أفضـل الشّـجر، وتحمـل عـلى ظهرهـا الأخـضر أكـبر الخـراف والأبقـار والحمـير والتّيـوس.

كانـت القريـة قـد شرعـت تعيـش عـلى وتـيرة حيـاة شـيخها. يملؤهـا إحسـاس بأنّـه غـدا محورَهـا وسرّ وجودهـا، ففتحـت أمامـه أبوابهـا. وطلبـت رأيـه في قضاياهـا، مـن الأكـثر تفاهـةً إلى الأكـثر خطـورةً وحميميّـةً، إلى أن أذابـت كيانهـا فيـه، وربطـت مصيرهـا برغباتـه وأوامـره، وتسـاءل أهلهـا كبـارًا وصغـارًا كيـف اسـتطاعوا العيـش في الأيّـام الخـوالي بدونـه، ولمـاذا لم يفتّشـوا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عنــه في ثنايــا أيّامهــم وأمانيهــم، ولم يحوّلــوا حلمهــم بــه إلى هاجـس ممـضّ يدفعهـم إلى البحـث عنـه. وكيـف أطاقـوا انتظاره طيلـة السّـنين الكثـيرة التـي ترقّبـوه فيهـا كـما ترقّبـه مـن قبلهـم آباؤهـم وأجدادهـم وأجـداد أجدادهـم؟ كانـت المـزار تشـبه عاشـقًا ولّهـه الحـب للمـرّة الأولى وأخـذ عليـه لبّـه، فـما عـاد قـادرًا عـلى العيـش إلّا لحبيبتـه، ومـا عـاد يسـتطيع رؤيـة أيّ شيء إلّا مـن خلالـه، بمـا في ذلـك نفسـه ذاتهـا. ولـو قيّـض لأحـدٍ مـا أن يسـأل أهـل مـزار الـدّبّ عـن أعـزّ شيء يملكونـه لقالـوا رضـاء الشّـيخ عنهـم وبركـة وجـوده بينهـم. وأنّ حياتهـم تنقسـم إلى مرحلتـين عاشـوا إحداهـا قبـل الهـادي فكانـت مفعمـةً بالفـوضى والاضطــراب والفقــر، وبــدأت الأخــرى بظهــوره فــكان أوّلهــا الصّـلاح ومسـاواة العبـاد أمـام خالقهـم.

كانـت القريـة تنتظـر خطـوة الشّـيخ التّاليـة، عندمـا سـمعت أنّـه اختـلى بخالقـه وبنفسـه كي ينظّـم شـؤونها ويضـع أسـس حياتهـا القادمـة. لم يبلـغ مسـامع السـكّان الكثـير عـن هـذه الخلـوة. كلّ مـا عرفـوه أنّ الشّـيخ كان يمـلأ حياتهـم مـن الصّبـاح إلى المسـاء، فـإذا بـه يختفـي فجـأةً. حـين سـألوا أعضـاء المجلـس، أجـاب هـؤلاء: أنّهـم لـن يشـاركوا في الخلـوة، ولا يعرفـون مكانهـا، وأنّ الهـادي لـن يطلعهـم عـلى نتائجهـا إلّا في اجتـماع عـامّ سـتحضره القريـة كلّهـا.

سـعِد القرويّـون لنبـأ الخلـوة. سـألوا الأسـتاذ نايـف عـن سـبب تغيّبـه عنهـا، فأخبرهـم أنّ اللـه لا يعطـي سرّه لأيّ كان من عباده،

وأنّ الاعتكاف هو خلوة سرّيّة مع الباري عزّ وجلّ لا يجوز أن يختبرها البشر العاديّون، لأنّها امتياز خاصّ بالصّالحين أمثال الهادي قدّس الله سرّه، الذي يعرف ما لا نعرف، ويرى ويسمع ما لا نراه ونسمعه، ويخاطب ربّ العزّة والجلال بلسان سيّدنا موسى عليه السّلام. فهل بعد هذا نتطلّع إلى وضع أنفسنا في مقامه، وهل يحقّ لنا مخالفة النواميس بكشف المخبوء، الذي لا يُكشَف إلّا للخاصّة من العباد؟

طال احتجاب الشّيخ، حتى ظنّ الفلّاحون أنّه مريض أو غائب. وتحوّلت فترة اعتكافه إلى فترة مليئة بالقلق حافلةً بالتساؤلات الحائرة. وقد فكّرت بعض عجائز المزار بزيارة شيخ في قرية الخوابي المجاورة، ليطلبنَ إليه كتابة حجاب شافٍ، تدسّه إحداهن سرًّا في بيت الهادي، فيعينه على مرضه، الذي قالوا أنّه لم يُصب إلّا قلّة اصطفاها الباري، أوّلها سيّدنا أيّوب وآخرها هادي المزار، أطال الله عمره وحفظه.

شاع خبر العجائز إلى أن بلغ آذان المحتجب، الذي عرف ما تقوله الألسن، وما يعتمل في القلوب. لم ينزعج الهادي للّنبأ؛ بل رأى فيه علامةً من علامات الخضوع له، مثلما رأى في ردود الفعل عليه اختبارًا لدرجة تعلّقهم به. قال الأستاذ نايف، بعد انتشار الخبر: إنّ الهادي ليس مريضًا كما تتقوّل العجائز الجاهلات وإنّ شفاءه إن هو مرض ـ لا قدّر الله ـ لن يكون بحجابٍ يشفي الفانين من الخلق، بل بتدبيرٍ إلهيٍّ لا يعرفه شيخ في الدنيا سواه، يتفرّد وحده بإدراكه لانفراده بمنزلة خاصّة لدى الباري عزّ وجل.

بعد أيّامٍ من حديث نايف، حدثت أشياء غريبة في بعض البيوت، إذ سقط سقف بيت العوض على من تحته، فنجا جميع من كانوا في البيت عدا زهيّة العوض، العجوز التي اقترحت الذّهاب إلى شيخ الخوابي لكتابة حجاب للشّيخ حمدان. تلك كانت علامةً قاطعةً على عدل الهادي، الذي لم يأخذ الأبرياء بجريرة العجوز المذنبة، بل أخرجهم من تحت السّقف كأنّ ما سقط عليهم لم يكن من طين وخشب، بل غلاف حريريّ شفّاف. كما وقعت فاطمة الشوصا في نبع الماء وكادت أن تغرق، مع أنّه ليس عميقًا. ولولا أن سارعت ابنة الشّيخ أحمد الصّالح لإنقاذها، لكانت مياه النّبع، التي أخذت تتدفّق إلى فمها تاركةً مجراها الأصليّ، قد ملأت جوفها وخنقتها. قالت عفاف الصّالح أنّها وجدت صعوبةً هائلةً في سحب الشوصا من الماء، مع أنّها هزيلة ليس في جسدها سوى الجلد والعظم. أخيرًا سقطت أمّ ديب البصّارة على الأرض، دون أن تتعثّر بأيّ شيء، فكسرت ساقيها وإحدى يديها؛ عندئذٍ فرض زوجها عليها ترداد صلاة غفرانيّة ما بقيت حيّة، تكرّر خلالها جملة «العفو منك يا شيخ حمدان» إلى أن يعفو الشّيخ صراحةً عنها ويسمح بعودتها إلى الكلام كجميع مخلوقات الله. عندما شفيت كسور أمّ ديب، عادت إلى حياتها اليوميّة، إلّا أنّ لسانها لم يعد إلى سابق عهده، بل واصل تكرار الجملة التي قيل إنّ الشّيخ ذاته بعث بها إلى زوجها مع نايف، فقرّرت، تحت إلحاح

رجلها الخائف، ملازمة بيتها إلى أن يعفو الهادي عن ذنبها الذي لا يغتفر.

بينما القرية تتابع ما جرى للعجائز الثلاث، أمر الشّيخ بجمع أبناء القرية في البيدر الكبير، وسط القسم الشّرقي من الضّيعة، حيث بيته. لا مراء في أنّ طول فترة الاحتجاب قد أحرج أنصاره وأتباعه، خاصّةً منهم أعضاء المجلس، الذين تمنّوا في سرّهم أن يظهر للنّاس معلنًا ما أمر به، فيصدعون له ريثما تحلّ بركات الله عليه مرّة اخرى، ويأتيه الوحي من حيث لا يعلمون.

لم يستجب الشّيخ لهذه الرغبات، بل صمت طيلة الفترة التي تلت احتجابه، رافضًا أن يقول أيّ شيء حول ما يزمعه. كان يختبر صبر أعضاء المجلس، ليعرف المدى الذي يمكنه بلوغه بمعونة كلّ منهم. وقد تعمّد أن يطلب إليهم الدفاع عن موقفه تجاه أهالي المزار، لاعتقاده أنّ دفاعهم عن مواقف يجهلونها هو معيار ولائهم له واكتسابهم للقابليّات الضروريّة للأتباع المخلصين.

ومضت هذه الفكرة في ذهن الهادي كالبرق. استغرب هو نفسه السّرعة التي توطّدت بها سطوته في القلوب والضّمائر، فقرّر أن يخصّ هذه المسألة بشيء من اهتمامه. أرجع رأسه إلى الخلف. وضع يديه وراء عنقه كمن يسند جسده بذراعيه، وترك مسار الفترة المزاريّة من حياته يمرّ أمام عين خياله.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

كان الرضا يقطر من نظراته، وكانت زاويتا فمه تشِيان بما يعتمل في داخله من سعادة، وما يحسّ به من اطمئنان.

لم يتذكّر الكثير من تفاصيل حياته، فقد توقّفت ذاكرته عند حادثة معيّنة، سبّبت، في حينه، قدرًا كبيرًا من الارتباك في مزار الدّبّ. كانت كلثوم تصعّد الطّريق بين نبع الماء والقرية؛ تحمل جرّتها على رأسها وتتهادى في مشيتها، رغم وعورة الدّرب وانحداره الشّديد. لم تكن الفتاة خائفةً، مع أنّ الليل كان قد بدأ يغطّي الجبال الخضراء مضفيًا على الوادي لونًا عاتمًا حوّله إلى كتلة سديميّة داكنة. كانت الصبيّة تتسلّق القسم الأوسط من الحرش، حيث تغطّي أشجار بلوط عملاقة الدرب الضيّقة وتفصلها عن التكوّر الغربيّ للجبل بأشجاره الصّغيرة التي تقزّمت، بعد أن دعا أحد الأولياء عليها بالهلاك، لأنّ أفعى كانت تلبد تحت واحدة منها لدغته من استه وهو يقضي حاجته.

كانت كلثوم ابنة الأحراش وصديقة الغابة، رأى فيها شبّان مزار الدّبّ شجرةً يانعةً رأسها في السّماء وجذورها في أعماق الأرض. بل إنّهم أقسموا أنّ رائحة الصّنوبر الذكيّة تنبعث من جسدها، وأنّ أهلها ينهضون في الصّباح وقد عبق في أنوفهم شذا الأزاهير البرّيّة الفوّاحة المنبعث من غرفتها. روت إحدى القرويّات حكايةً لم يؤكّدها أحد قبلها أو بعدها، تقول إنّ كلثومًا هي التي تهبُ الحياة للبراري المحيطة بالقرية، وإنّها تتخالط وتتمازج مع الشّجر والنّهر والهواء والطّير. وترجع

مـن حـين لآخـر إلى أصلهـا، فتتحـوّل إلى وردة فوّاحـة، وآخـر إلى نقطـة مـاء صافيـة، أو إلى طائـر غرّيـد. وقـد حكـت القرويّـة العجـوز عـن كلثـوم الحكايـة الغريبـة التّاليـة، فقالـت: ذهبـتُ ذات يـوم إلى النّبـع مـع كلثـوم، حـين وصلنـا إليـه، سـمعته يقـول لهـا معاتبًـا: أيـن كنـت طيلـة اليومـين الماضيـين، أيتهـا الـوردة؟ لم تُجـب عـن سـؤاله، لأنّنـي كنـت قربهـا. فـإذا بـه يكـرّر استفسـاره بصـوت مرتفـع، كأيّ عاشـق يعلـن عـن مشـاعره دون خـوف أو حـرج. مـدّت الفتـاة يدهـا إليـه تداعبـه، فأخـذت مياهـه تتلاعـب وتتقافـز، إلى أن قـال بـدلال: سـآخذ مـائي وأذهـب إلى قريـة أخـرى، إذا مـا انقطعـتِ عـن زيـارتي. أقسـمت العجـوز باللـه العظيـم ربّ مـوسى وإبراهيـم أنّ النبـع مـا بقـي لحظـةً واحـدةً في المـزار، إلّا لأنّـه يعشـق فتاتهـا. لم يصـدّق أحـد حكايـة العجـوز بطبيعـة الحـال، رغـم أنّهـا تنبّـأت بجفـاف النّبـع، عندمـا اختفـت كلثـوم. قالـت المـرأة: إنّ الصّبيّـة لم تختـف كـما يظـنّ المزاريّـون، بـل ذهبـت تفتّـش عـن النّبـع في القـرى الأخـرى، وسـتظهر مجـدّدًا مـا إن تعـثر عليـه وتعيـده إلى ضيعتهـا.

خـرج شـبح مـن بـين الأشـجار. سـقطت جـرّة كلثـوم عـلى الأرض وانسـفح ماؤهـا في الـدّرب المنحـدر إلى النّهـر. عنـد ذاك خـرج شـبحان مـن مكمنهـما في الحـرش وحمـلا الجسـد المتهالـك إلى داخلـه. لم تـصرخ الفتـاة أو تقـاوم، فقـد شـلّت المفاجـأة تفكيرهـا وعقلـت لسـانها؛ ومـا زال حمـدان يتذكّـر أنّهـا وصلـت المغـارة التـي أخفاهـا فيهـا فاقـدةً الوعـي.

مـرّت أيّـام عديـدة وهـي تجهـل مكانهـا وهويّـة خاطفيهـا الملثّمـين. كان أحـد الرّجـال يعطـي أوامـره بالإشـارة إلى شـخصين صامتـين مثلـه يطيعانـه دون تـردّد. لـو أنّ كلثومًـا كانـت مـن المؤمنـات بالجـان، لاعتقـدت أنّهـا وقعـت بـين أيـدي ثلاثـة منهم، ولـرأت في أحدهـم ابنًـا لملـكٍ مـن ملوكهـم، وفي رفيقيـه خادمـين لـه. وقـد كادت تعتقـد في لحظـات كثـيرة أنّهـا أسـيرة كائنـات غريبـة، جـاءت مـن مـكان لم تعرفـه ولم تسـمع بـه مـن قبـل. لكنّهـا رأت ذات مـرّة شـعر الرجـل الـذي اختطفهـا، فأيقنـت أنّـه كائـن بـشريّ مـن غـير أبنـاء مـزار الـدّبّ.

كان الرّجـل قصـير القامـة، قصـير العنـق، قصـير السّـاقين، قصـير الذّراعـين، يبـدو رأسـه وقـد انضغـط، فاسـتحالت اسـتدارته إلى فلطحـة تقـع أذناهـا في النّقطتـين الأكـثر بعـدًا مـن مركزهـا؛ تتقـارب عيناهـا، فينتفـخ تحتهـما أنـف عريـض وقصـير يغطّـي فـمًا واسـعًا يعلـو ذقنًـا غائـرةً تقـع عنـد طـرف الكتلـة المفلطحـة الخارجـيّ، فتبـدو منفصلـة عنهـا أو عـلى وشـك السّـقوط منهـا.

كان الإحسـاس بالانتهـاك والعـار يمـلأ نفـس الفتـاة، والشّـعور بالاتّسـاخ ينضـح مـن جسـدها. وكانـت في موقـفٍ غـير مفهـوم بـلا انقطـاع عـمّا حصـل ولِـمَ حصـل. إذا كان القصـير يريـد الاسـتمتاع بهـا فقـد حصـل عـلى مـا أراده. وإذا كان يريـد إذلالهـا لسـبب تجهلـه فقـد أذلّهـا. وإذا كان يثـأر مـن أهلهـا أو قريتهـا ويـرى في اغتصابهـا وإهانتهـا وسـيلة إلى ثـأره، فقـد حقّـق مـا أراد. فلـماذا يحتفـظ بهـا ويسـتمرّ في تعذيبهـا؟

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

كان الرّجلان يرافقانها طيلة النّهار، بينما يغيب القصير فترات طويلة، ليرجع في المساء حاملًا طعامًا وماءً، وقد ارتدى ثيابًا جديدةً وتجمّل وتعطّر. بعودته، كان الرّجلان يخرجان من المغارة، ولا يجرآن على دخولها قبل طلوع النّهار. خمّنت كلثوم من سلوك القصير أنّه يسكن في مكان قريب، بيد أنّها لم تعرف من يكون، إذ لم يسبق لها أن رأته في القرية أو على نبع الماء أو في الغابة. واساها بعض الشيء اعتقادها أنّه غريب عن مزار الدّبّ. قالت تخاطب نفسها مرّات كثيرة أنها ستجعله يدفع ثمنًا باهظًا، لكونه داس شرفها بهذه الطّريقة الدّنيئة.

تخيّلت السكّان وهم يبحثون عنها. ورأتهم ذات مرّة بعين خيالها وهم يتوغّلون في المغارة ويقبضون على القصير، ثمّ تصوّرتهم يخرجون إلى الغابة ليرجعوا بكومة هائلة من الحطب ما عتموا أن أضرموا فيها نارًا هائلةً حوّلتها إلى جمر لاهب ألقوا بالقصير إليه وجلسوا يتأمّلونه وهو يحترق مطلقًا رائحةً تعافها الأنفس، ودهنه الأصفر يتحوّل إلى أبخرة سوداء خانقة. كان القصير يصرخ بوتيرة منتظمة طالبًا الرّحمة، والقرية تتلذّذ بتعذيبه، وتسعى إلى إطالة آلامه.

تطلّع القصير إليها مستغربًا ابتسامتها الذّاهلة. تجاهلها فترة، ثم سألها عن سبب ابتسامتها. نظرت إليه بتحدٍّ. قالت إنّها تصوّرت أبناء قريتها وقد عرفوا مكانها، وتخيّلت كيف سيمزّقونه ويلقون به إلى النّار أو إلى الوحوش. لم يقل شيئًا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

للتوّ. ركّز عينيه عليها فترةً طويلةً، حتّى ظنّت أنّه سينهض ليفعل بها ما تخيّلت أنّ قريتها فعلته به. كان ما يزال يحدّق إليها، عندما انطلقت من أعماقه ضحكة مجلجلة هزّت المغارة، ضحك القصير، إلى أن استدار رأسه المفلطح، ثم صمت برهةً أعقبتها موجة من الضّحك المجنون، تلتها بعد استراحة جديدة موجة طويلة من الجنون الصّاخب، المنطلق من الفم الكبير. خلال هذا المشهد، دخل الرجلان بأمرٍ من القصير. روى لهما ما تخيّلته، فانخرطا بدورهما في ضحك ماجن رأت فيه أكثر أشكال عذابها إيذاءً.

عندما أتعبهم الضّحك، طلب القصير إلى واحد منهم أن يخبرها بسبب ضحكه. لم يستجب الرّجل للأمر في البدء. فنهره سيّده بحزمٍ قائلًا: أخبر هذه السيّدة لِمَ ضحكت. نظر الرّجل إليها وقال بعدم اكتراث: لقد عرفوا في القرية ما حصل لك. نهض القصير من مكانه في صدر المغارة، اتّجه إليها بخطًى قصيرة وبطيئة. وقف أمامها مباشرة حتى إنّها أشاحت عنه كي لا تشمّ رائحة أنفاسه الحارقة، ركّز نظره عليها وقال: أخبرت المزار أنّني خلّصتُك من أيدٍ اختطفتك، وأنّك ترتاحين قبل عودتك إليها. أعلمتهم كذلك بقراري اتّخاذك زوجةً لي، غسلًا للعار الذي لحق بك وبأهلك وبمزار الدّبّ، وانقاذًا لك من مصيرٍ لا يد لك فيه. انطلق بعد ذلك يصف مشاعر الخجل التي اعترت أبيها، وكلمات الامتنان التي قالها في الإشادة بتضحيته. وقلّد عويل أمها التي راحت

تشـقّ ثيابهـا وتشـدّ شـعرها إلى أن غابـت عـن الوعـي. كانـت الفتـاة قـد أخـذت تنتحـب وتنشِـج، فلـم تسـمع مـا قالـه حـول موعـد زفافهـما، ومـا نطـق بـه، حـين نـزع اللثـام عـن وجهـه وسـألها بتبـاه وتفاخـر: أنـا حمـدان الهـادي، ألا تعرفيننـي؟

تلــك كانــت لحظــة انتصــار جــليّ. توقّــع حمــدان أن تكــون مقاومتهـا أكـثر عنفًـا واسـتمرارًا؛ لذلـك أحـسّ بالرضـا لاستسـلامها السّريـع، وسـعد لأنّ صمتهـا كان في نظـره قرينـةً قاطعـةً عـلى قبولهـا بمـا حصـل.

صمتــت الفتــاة فــترةً طويلــةً بعــد إعلامهــا بموقــف القريــة، تسـاقطت أثناءهـا دموعهـا مـن عينيهـا الذّاهلتـين. حـاول مـرّات عديــدة أن يقــول لهــا شــيئًا يقنعهــا بإيقــاف ســيل الدّمــوع الدّافـق، إلّا أنّهــا لم تسـمعه. كان يقــرأ عــلى وجههــا آيــات انسـحاقها تحـت وطـأة التّجربـة ويقـول لنفسـه: إنّ قهرهـا هـو قهـرٌ لمـزار الـدّبّ. إذا كانـت القريـة لم تجابهـه، بـل صدّقتـه دون أن تحـاول اسـتقصاء حقيقـة مـا حـدث، فـإنّ الفتـاة لم تجابهـه بدورهـا. لـذا رأى في صمتهـا ودموعهـا استسـلامًا لـه وتخـلٍ عـن حقّهـا في مقاومتـه. تسـاءل عندئـذٍ إن كان ثمّـة انتصـار أشـد نصوعًـا مـن انتصـاره، أو قريـة غـير المـزار تستسـلم دون مقاومـة لغريـب لا تعرفـه، ثـمّ تشـكره لأنّـه قَبِـلَ خضوعهـا، أو كان ثمّـة فتـاة غـير كلثـوم ترضـخ لغاصبهـا وسـلاحها في مقاومتـه صمتهـا الدّامـع؟

لم تعـرف الفتـاة جوابًـا عـلى هزيمتهـا سـوى صمـت رأت فيـه عـودةً إلى ذاتهـا، وخروجًـا مـن عـالم غريـب اغتصـب جسـدها،

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

وقرية اغتصبت أحلامها. وقد ركبها إحساس شديد بالمهانة، لأنّها لم تكن حصينةً ضدّهما، فألقيا بها دون عناء إلى مهاوي المصير الذي دبّره القصير لها. لو قال لها أحد ما البارحة إنّها تعيش في قرية لا تعرفها، لقدّمت له ألف بيّنة ودليل على خطأ حكمه. أمّا الآن، فقد سحقها حزن سبّبه لها سلوك القرية، وألقى بها إلى مهاوي الهوان ما كشفته التّجربة من خواء وهشاشة وضعها. فإذا بها تعتبر نفسها مسؤولةً عمّا جرى وتتساءل هامسةً: أما كان حريًّا بي ترقّب ما حدث، وإعداد نفسي لمقاومته، وإن لم يحذّرني منه أحد؟

استغرب الهادي بعض الاستغراب ردّ فعل المزار؛ إلّا أنّه أحس بحيرة طاغية حيال موقف الفتاة. كان يعرف أنّ كلثومًا لا تشبهه في شيء، ويدرك مغايرة طبيعتها لطبيعته. وقد أحسّ بتوتّر أسعده، لإدراكه أنّ صراعه معها سيتجاوز مدلولاته الشخصيّة وسيكتسب معنىً عامًّا بالنسبة لهما وللقرية. لذا توقّع أن تقاومه حتى النّفس الأخير، وأن تحاول شدّه إلى الموقع الذي وضعتها الحياة والفطرة فيه. فتصوّر عندئذٍ المعركة التي ستنشب بينهما، وافترض أنّها ستصبح موضوعًا لأحاديث مزار الدّبّ والقرى المجاورة، وأجهد خياله في تتبّع مراحلها وآفاقها ومجرياتها. حين صمتت غريمته، عقلت المفاجأة لسانه، فلم يصدّق تراخيها أمامه وامتناعها عن مقاومته. بدت كلثوم له، منذ تلك اللحظة، غارقةً في أفكارها، تستعيد بصمتها توازنها وعافيتها الرّوحية، وتنتشل

نفسـها مـن الهاويـة التـي كاد ردّ فعـل القريـة أن يلقـي بهـا إليهـا. فقـال في نفسـه: لم تكـن كلثـوم مـا قالتـه لي ظنـوني حولهـا. وليسـت الآن أيضًـا مـا توقّعتهـا أن تكونـه، فمـن عسـاها أن تكـون إذن؟

حـار الهـادي في فهـم موقـف الفتـاة، كان يتأمّلهـا غـير مصـدّق مـا تـراه عينـاه؛ يسـتغرب خمودهـا الـذي أعقـب عاصفـة البـكاء المتفجّـع. حـين نظـرت إليـه في النّهايـة بعينـين متحدّيتـين، راسـمةً واحـدةً مـن ابتسـاماتها القديمـة عـلى شـفتيها، خـاف منهـا ورأى في استسـلامها اقترابًـا مفزِعًـا مـن موقفـه، تخلّيًـا غـير مفهـوم عـن طبيعتهـا وتبينًـا أشـد غرابـة لطبيعتـه. أيقـن عندئـذٍ أنّهـا تنقـل معركتهـا إلى داخـل الأرض التـي أتاحـت انتصـاره، وتسـتعير الأسـلحة التـي هزمهـا بهـا حتـى قبـل أن يراهـا أو تـراه. كانـت الفتـاة تتحـوّل في نظـره مـن خصـم إلى خطـر، فقـال لنفسـه: مـن الحكمـة إيهامهـا بأنّهـا طـرف منتـصر وليسـت جهـةً خـاسرة. قـرّر عندئـذٍ إعطاءهـا نصـف انتصـاره عـلى القريـة وردّ قسـم مـما أخـذه منهـا إليهـا، علّ ذلـك يقنعهـا بضـم قوّتهـا إلى قوّتـه، وفطرتهـا إلى دهائـه.

اسـتهواه إحساسـه بـضرورة كسـبها، بعـد أن أقنعتـه ردود أفعالهـا بصعوبـة إخضاعهـا. فكّـر آنـذاك بالتعامـل معهـا كـما يتعامـل رجـل عـاديّ مـع امـرأة عاديّـة. انطلـق يـروي مـا يحملـه لهـا مـن حـبٍّ صـادقٍ، وقـصّ عليهـا تفاصيـلَ عـن أيّـام العـذاب التـي أمضاهـا وهـو يحلُـم بهـا، وسـعادته بالعيـش معهـا إلى

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

آخر العمر، وحرصه على تلبية ما قد يخطر لها أن تبديه من رغبات. ثمّ قال، وهو يراقب ما اعتقده لينا جليّا في موقفها: أريدك شريكةً لحياتي وفيها، ولا أطلب إليك التخلّي عن طبيعة فطرك الله عليها، أسعى أنا نفسي اكتسابها إرضاءً لك.

كانت قد أخذت تنظر إليه بطريقته السّاخرة ذاتها، توشك أن تطلق واحدةً من ضحكاته المجلجلة. وكان هو يتطلّع إليها، تنطلق الضّراعة من عينيه حينًا، وينبعث التّهديد منهما حينًا آخر. وقد أيقن أنّ الفتاة تتشبّه به وتأخذ بطريقته، حين همست بصوت ينطق بسعادتها المستعادة: لقد قررت منذ برهة أن أضحك بقيّة عمري، فهل لك أن تخمّن لماذا؟ كانت تركّز عينيها على وجهه، منتظرةً إجابته. حين لاحظت تردّده، أطلقت ضحكةً تردّد صداها في المغارة واهتزّ لها قلبه.

بعد أيّام، شاهد أهالي القرية عروسًا منهكةً، تنطلق من زاويتي فمها سخرية لم يعرف معناها أحد سوى الهادي. لئن كانت قد أرسلت نظراتٍ مستغيثة إلى نايف، فلأنّها كانت ما تزال راغبةً في وقف المأساة القادمة والتمسّك بعالمها الأصليّ، ولاعتقادها أنّ نايفًا يختلف عن سواه، وأنّه سيمدّ لها يد العون.

لماذا تذكّر الشّيخ هذه الأحداث؟ ألأنّه ندم على زواجه من كلثوم، أم لأنّه رأى فيها قيدًا على سلطته، نابعًا من داخلها كأنّه نابعٌ من شخصه ذاته؟ أم تراه اغتاظ لأنّ حياته العامّة

سارت على النّهج الذي وضعه لها، بينما يهدّد زواجه من كلثوم بالتحوّل إلى فشل يهدّد نجاحاته؟ استغرب الشّعور بالاطمئنان الذي كان يستوطنه إلى ما قبل ساعات قليلة، وتساءل إن كان سيسمح هو أيضاً للغفلة بتوجيه حياته، ولعواطفه بتضليل خطاه. تصاعد عندئذٍ في نفسه إحساسٌ بالغيظ جعله يرى كلثومًا وردةً سامّةً ينتشر عبقُها القاتل في حياته، فإذا هو منتصر على الدنيا مهزوم أمام نفسه. أحسّ عندئذٍ بالخوف منها، رغم أنّها لم تنازعه أموره أو تعرقل ترتيباته وخططه. وزاد من خوفه عجزه عن التوفيق بين متناقضات كثيرة ميّزت حياته معها؛ فأخذ يفكّر بطريقة ما تبقي عليها كزوجة وتخلّصه منها كشريكة؛ تشغلها بشؤون نسويّة تبعدها عنه دون أن تزيد سطوتها في المزار أو تعزّز قدرتها على التحكّم بنقاط ضعفه، التي صارت خبيرةً بها. استغرب هذا الحلّ، الذي يتعارض مع ما قد عرضه عليها في المغارة، حين أراد إشراكها في كلّ شيء وردّ نصف انتصاره عليها وعلى القرية إليها، ثم سأل نفسه بصوت هامس: أتراني أدخلت الدّبّ إلى كرمي، ووضعت بيدي حجر الأساس لفشل رسالتي وارتكبت الغلطة التي ما كان يجوز لي ارتكابُها، حين غلّبت العاطفة على العقل والشّهوة على المصلحة؟ ما العمل لإصلاح هذه الهفوة الكبيرة، التي تهزّ ثقتي بنفسي وتهدّد أسس البناء الذي قطعت شوطًا واسعًا في إقامته؟

كانت طاقاته التخيليّة الهائلة تخذله في مسعاه لإيجاد جواب على سؤاله القلق الملحّ؛ إلى أن وجد نفسه يفكّر

بقتلها، بل ويضع في مخيّلته قائمةً بمستلزمات جنازتها التي يجب أن تكون مهيبةً، لأنّها في النّهاية جنازة كلثوم، زوجته والمرأة الوحيدة التي أحبّها.

لم ينفّذ بالطّبع ما راود عقله. لقد أخفاه داخل ذهنه المعذّب، وتشبثّ به فترةً ليست قصيرة، راز خلالها الإمكانات المختلفة وفاضل بينها. إلّا أنّه اضطر في النّهاية للتخلّي عن الفكرة. كان ذلك عندما سألته كلثوم في واحد من أيّام سعادته بصوت عذب مغناج: متى ستقلع عن التفكير بقتلي، أيّها الزّوج الغالي؟ أجفل للسؤال وارتبك أيّما ارتباك. هل أخذت تقرأ أفكاره لحظةً بلحظة، أم تراها توضّعت داخل نفسه، ووجدت طريقة للتسلّل إلى عقله وقراءة أحلامه؟! صمت وقد احمرّت وجنتاه، فأطلقت ضحكةً رنّانةً وهي تشدّه من لحيته الحمراء الطّويلة، وتقول بمرح آسر: لنستمتع بالحياة، فإنّ حبلها قصير، كما قالت أمّ ديب البصّارة.

قلّب الشّيخ أفكاره المضطربة في رأسه القلق. زال الآن إحساسه بالانتصار وبالسّعادة، وداخله شكٌّ جدّيٌّ بأنّ المزار قد دانت له، كما اعتقد قبل ساعات قليلة. شرع عندئذٍ يرى في زوجته عقبةً لا سبيل إلى تجاوزها أو التّعايش معها؛ وآمن أنّها تتقصّد إرباكه في اللحظة الحاسمة التي يحتاج فيها إلى كل ذرّة من طاقاته لوضع تصوّرات عمليّة تنظّم حياة القرية تنظيمًا هو محوره، فيكون بوسعه أن ينظر إليها بعد حين كما ينظر المرء من فوق جبل عال إلى مكان منخفض، فيرى

ما تحته واضحًا وصغيرًا وفي متناول يده. لو لم تكدّر كلثوم حياته وتشوّش عمله وتبعث الفوضى في أفكاره ومشاعره، لكانت مسيرته سلسلة نجاحات متّصلة، فهل تراه كما يرى هو ما تحته، صغيرًا وفي متناول يدها؟

كان صوته قد بدأ يرتجف غضبًا. لعن المرأة ولعن السّاعة التي أدخلها فيها إلى حياته، ولعن نفسه التي زيّنت له محاسن الاقتران بها، هو الرّجل الذي هدم عالمًا ليقيم مكانه عالمًا من صنعه، يناسب حاجاته التي هي حاجات كلّ فرد في القرية، كان الشّيخ مؤمنًا برسالته النّبويّة، قانعًا أنّه يجلب لنفسه القلق كي يريح الآخرين، يتعذّب ليسعدهم، يسهر ليناموا، ويفكّر ليوفّر عليهم مشقّة تشغيل عقولهم. وكان يطلب، ككلّ نبيّ، العصمة لأفعاله وأفكاره، ويعتقد أنّ المزار ستتبنّى مواقفه عاجلًا أم آجلًا. فلا ضير عليه إن هو نظر بحقدٍ إلى معارضيه. وبازدراءٍ إلى مؤيّديه، ما دام المستقبل قائمًا فيه هو، الرّجل الذي لا يعرف كنهَه أحد سوى كلثوم، والذي يقف فوق أيّ اعتراض أو إجماع. بمثل هذه الأفكار، اعتقد الهادي أنّه بشير عصر قادم إلى زمنه، وأنّ البشر يشبهونه في الظّاهر فقط. ورأى أنّهم لن يدركوه ما لم يتخلّوا له عن ذواتهم تخليًّا تامّا. فهو نقطة الضّوء في حياتهم العاتمة، ووهج ساطع ينتشر في أرواحهم ونفوسهم، التي تبدو حيّةً وما هي بحيّة. والتي لن يدبّ فيها نسغُ الحياة الحقّة إلّا بإذنه، ولن تتطهّر من دنسها، إن لم تدرك ما فيها من آثامٍ وما فيه من قداسة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

كان الشّيخ يعي صعوبة مهمّته، ويرى أنّ القرية ليست بحاجة إلى فهم أعماله، بل أنّها ليست بحاجة إلى فهم جزء يسير منها، ما دام هو النّور وهي الظّلمة، ما دام النّور لا يبدّد الظّلمة بضربة واحدة، بل يدحرها ذرّة بعد ذرّة وبقعة بعد بقعة. انتبه إلى أنّه يشبّه أهالي قريته بالظّلمة، فقال بصوت حجاجيّ: بل إنّ إنسان المزار أشدّ فسادًا وظلمةً من الفساد نفسه. إنّ أهل هذه القرية ليسوا سوى كتلة من الضّلال والهوى، قيّض الله لها نوري كي لا تهلك في متاهة الغيّ الضّارب في عقول أبنائها. إذا كان لها من فضلٍ على نفسها، فإنّه فضل قبولها برسالتي، والرّضوخ لأوامري، والتقيّد بطاعتي. قفز إلى ذهنه اسم عبلا، الذي استدعى بدوره صورة الشّيخ أحمد الصّالح وخيالات حسان والجنيداتي. كزّ على أسنانه وتمتم: هذه القلّة التي ناصبتني العداء تثبت أنّ رسالتي هي رسالة الحقّ والخير والمحبّة.

هَبْ أنّ هؤلاء كانوا ضحايا بريئة لها، فهل يجوز محاكمة الرّسالات بعدد مَن تضحّي بهم كبشر كانوا يسيرون، في جميع الأحوال، على دروب الهلاك والفساد؟ إنّ لرسالتي جوهرًا مستقلًا عن أدواتها من الخلق، فهل أتخلّى عن الجوهر من أجل الأداة، وعن الباقي في سبيل العرضيّ؟ ليس البشر أساس الرّسالة الخالدة، وليست الرّسالة بدورها شيئًا دون الرّسول. ثمّ ما أهمّيّة خطأ ندّعي وجوده، إذا كان الرّسول معصومًا، وكانت معايير بني الإنسان عاجزةً عن الإحاطة بدوافعه

وبواعث أعماله؟ ألا يأتي الرّسول الحقّ لكسر مرتكزات الحياة وتحطيم نفوس ومعتقدات من ينتدبه الباري إليهم، ما دام انبعاث الفضيلة رهنًا بعمله التّدميريّ؟ ماذا تكون إذن عبلا وماذا يكون الشّيخ صالح وحسّان والجنيداتي؟ بل ماذا يكون أهالي مزار الدّبّ وماذا تكون البشريّة ذاتها. إن تعارضَ وجودها مع كلمة الحقّ، ووضَعَتها أقدارها في موضع لا ترتقي منه إلى الذّرى التي يشدّها إليه الرّسول، بل واصلت انحدارها إلى القاع السّحيق الذي تسحبها إليه نفوس أبنائها الموغلة في فسادها؟ لقد جاءت ساعة الجهر بالحقيقة، فالويل الويل لمن يعصي معلنها؛ إنّه إذًا لهالك، وإن اجتمعت له قوى الأنس والجن.

رأى الشّيخ طيفه يتطاول ويتعاظم مغطّيًا الدنيا. أيقن عندئذ أنّه اقترب من النّقطة التي يصبح فيها روح الكون بأسره. لم يتساءل عن سرّ هذا اليقين الذي راوده للمرّة الأولى مذ رجع إلى القرية، فقد سبق له أن خبره في أغوار نفسه سنوات طويلة، وشقي به أيّامًا كثيرةً، أبقاه خلالها حبيس صدره البشريّ الضيّق. لكنّه استغرب الشدّة التي دهمه بها الآن، وساقته إلى حالة لم يعرفها قبلًا، تقع بين هوس جامح ووعي حادّ، انقلبت إلى غيبوبة تفاقمت بتعاظم رغبته في تدمير ذاته والاندماج في خالق الأكوان ومقرّر المصائر. خاف على نفسه من الجنون، إذ لاح له أنّه لن يتخلّص من ساعات الحيرة التي سبّبتها له كلثوم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إلّا بتجاوز الحدّ بين عالم البشر العاديين وعالم الملهمين. لكنّه لم يقلع مع ذلك عن التّفكير بسموّ التّضحية للرّسالة الخالدة، ولم يجد بأسًا في أن يكون جسده وعقله في عداد ضحاياها. كان يهمس لنفسه مطمئنًا: لم يعد وضعي قابلًا للفهم بمقاييس البشر العاديين، فما الذي يحول بيني وبين إخضاع الأحياء وحتى الأموات لسلطاني القاهر ومفاهيمي الخاصّة وحاجاتي الشخصيّة السّامية؟ ولم لا أعلن منذ الغد ما أمرت به، ولا أرغم مزار الدّبّ على الخضوع المطلق لي. أنا القادر على كل شيء؟

ضاق صدره فجأةً بما اعتقد أنّه الانتظار الطّويل. الذي أنهكه وحمّله عبئًا لم يعد قادرًا على حمله بمفرده أو سجنه في قفص عقله وقلبه المتعبَين. كان يشعر الآن أنّ تردده هو خيانة لأمانته، وأنّه سيكون غير جدير بما يعتمل في نفسه، إن هو لم يعلن للتوّ رسالته إلى مزار الدّبّ. وكان يؤمن أنّ كلثوم تجذبه من فردوس الرّسالة إلى جحيم ظاهره حبٌّ وباطنه عذاب، فرضته عليه دون إعلان، وأنّه هالك إن هو أخفق في كسر شرنقتها الخانقة التي أحاطت بحياته وغلّفتها شيئًا فشيئًا، وعجز عن الارتقاء إلى مستوى رسالته، التي لا مبرّر لوجوده إلّا بها.

خرج من عزلته. أمر نايفًا باستدعاء أعضاء المجلس كي يبلّغهم عزمه على إعلان أمر جلَل، ويخبرَهم أنّ المغارة الكبرى هي مكان اجتماعه بأهل المزار، وأنّ يوم الجمعة المبارك هو موعده.

تساءل المدعوون عن سرّ اختيار المغارة الكبرى، المندسّة بين أشجار الغابة الكبيرة، البعيدة عن القرية. سمعت كلثوم الخبر من عضو في المجلس سألها عن معنى اختيار الهادي لهذا المكان النّائي. فقالت بحزن: هذا يعني أنّه يعتزم التفرّغ لكم؛ ومَن يتفرّغ الهادي له يأخذه في البدء إلى المغارة الكبرى.

جاء الشّيخ إلى اللقاء متدثّرًا بوشاح أبيض. لمّا دخل المغارة من بابها الضيّق، المغطّى بالرّيحان، نبات الجنّة، كما أسماه الأستاذ نايف، رماه نفر من الأطفال بالزّهور ورشّوا عليه ماء الورد. تقدّم إلى المصطبة في صدر المكان، فسارع عدد من الرّجال إلى الوقوف وراءه وعن يمينه وشماله، بينما قعد الأهالي أمامه على الأرض. كان الهادي يبدو كأنّه إغريقيّ أكثر من الشّراب، فانتفخت أوداجه واحتقنت وجنتاه وجحظت عيناه واصطبغ وجهه بلونٍ أحمرَ قانٍ، فأوشك على الاختناق أو على إطلاق زفرة مهلكة على الدنيا وعلى نفسه.

أمر ببدء الاحتفال بآيٍ من الذّكر الحكيم، آملاً أن تعطيَه القراءة الفرصة لاستراحة يستيقظ خلالها من حالةٍ تسوقه إلى غيبوبة لم يعرف كيف يتخلّص منها. شرع المقرئ يتلو الآيات البيّنات، فأغمض عينيه إغماضة من يغفو بعد طول سهاد. وقد أقسمت بعض النّسوة أنهنّ سمعنَ شخيره.

قال نايف مبدّدًا ما علق في الجو من تقوّلات: هنالك حالة بين الحالتين بالنّسبة لمؤمن يستمع إلى آيات ربّه، فإن بقي

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

يقظًا كان كمن يخالط الزيغ قلوبهم ويداخل الشّكّ نفوسهم؛ وقديمًا قيل: من سمع الكلام بعيونٍ مفتوحةٍ دخل النّار. ألا تعلمون أنّ مواجهة الله جلّ وعلا بأعين مفتوحة هي علامة عصيان، وأنّ العصيان هو أقصر الطّرق إلى جَهنّم. صمت الخلق، يلوم كلّ واحد فيهم نفسه لأنّه بقي يقِظًا، فأردف الأستاذ بلهجةٍ هامسةٍ: ليست غيبوبة الشّيخ يا أحبّتي سوى علامة إيمان لا يتزعزع، فالمؤمن الحقّ لا ينام فقط عند الذّكر، بل يغيب عن الوعي غيابًا يتناسب ودرجة إيمانه بالباري وحميميّة صلته به. رأى الأستاذ علامات النّدم على الوجوه، فرفع صوته مؤنّبًا: لا تقولوا إنّ هاديكم نام. قولوا إنّه كان في الحالة بين الحالتين؛ حالة اليقظة الداخليّة وحالة الموت الإيمانيّ، أن يتّحد المخلوق بخالقه ويحسّ به في إهابه، ويكون على حقّ إن هو أعلن ألوهيّته.

هجم سلّوم الأقرع عندئذٍ على زوجته يريد قصّ لسانها، حين أدرك الضّلالة التي أوصلته إليها أقاويلها، بيد أنّ أولاده ذكّروه أنّه هو الذي حكى حكاية النّوم وروّجها في القرية، ناسبًا إيّاها إلى أحد الواقفين وراء الشّيخ. وهدّدوه برواية ما قاله، إن هو تجرّأ ومدّ يده إلى أمّهم.

فرغ المقرئ من تلاوته. التفت الحشد، وقد كادت تخنقه الحرارة، صوب الرّجل النّائم، فإذا به لا يبدي حراكًا. اندفع أحد الرّجال إليه، وضع يده على جبينه. نظر بقلقٍ إلى الواقفين وراء المصطبة، وهمس بكلام لم يتبيّنه الجمهور

الحائـر المضطـرب. فجـأةً بــرز نايــف إلى الأمــام، دفــع بيديــه وراء ظهــره. قبــل أن يحنــي رأســه قليــلًا ويحوقــل ويبســمل ويطلـق العنـان لصوتـه الـذي أخـذ يـرجّ المغـارة المعتمـة رجًّـا. مـا إن أنهـى الخطيـب جملتـه الأولى حتـى ارتـدّت إليـه وقـد تشـوّهت كلماتهـا وتغـيّرت نبراتهـا، فغـدت حـادّةً في بدايتهـا، غليظـةً في وسـطها، غائمـةً وعصيّـةً عـلى الفهـم في نهايتهـا. توقّـف وقـد صعقتـه المفاجـأة، بينـما كان صـدى صوتـه يتراقـص بـين الجـدران والسّـقف. متّخـذًا شـكل القسـم الـذي يبلغـه، ومتحـوّلًا إلى صراخ حـادّ متوتّـر ينقـضّ عـلى القـوم حـين يرتطـم بجـدران المغــارة البــارزة، وإلى همــس متهالــك حــين يبلــغ تجاويــف سـقفها الغائـرة. كانـت الحجـارة تلعـب لعبـةً مباغتـةً اضطـرّت الخطيــب إلى التوقّــف تمامًــا عــن الــكلام، ثــمّ إلى بــدء حديــث هامـس توقّـف بـدوره عندمـا عكسـه الصّـدى عياطًـا هسـتيريًا. انقطـع الهمـس دون أن ينقطـع صـداه. نظـر نايـف إلى المـكان بذلّـةٍ ورجـاء، ثـمّ شرع يقلّـب نظـره في أرجائـه علّـه يكتشـف موقعًــا لا يطالــه الصّــدى. حــين يئــس نظــر إلى النّــاس، فــإذا بهـم يركّـزون أنظارهـم عليـه وقـد شرعـت ابتسـامات الهـزء بـه ترتسـم فـوق وجوههـم، طلـب إليهـم عندئـذٍ التجمّـع في موقـع واحـد، ليأمرهـم بعـد لحظـات بالتفـرّق، ثـمّ بالجلـوس والرّكـوع والوقــوف، ثــمّ بجلــوس بعضهــم ووقــوف بعضهــم وانبطــاح بعضهـم الآخـر. كانـت المغـارة تواصـل لعبتهـا معـه. اسـتحال عليـه تجاهـل الوجـوه التـي أسـقطت المغـارة عنهـا أقنعـة الوقار والتّعـب والجدّيّـة، فقـرّر التخـلّي عـن مهمّتـه العسـيرة، وشرع

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

يتراجـع إلى الخلـف صارخًـا بصـوت يائـس: يـا سـيدي الشّـيخ، يـا سـيّدنا الهـادي، بينـما انهمـك الخَلـق في ضحـك متواصـل وضجيـج صاخـب أيقـظ الرّجـل الغـافي. كان القـوم يتسـاءلون بصـوت مرتفـع لمـاذا لم يـتردّد الصّـدى أثنـاء تـلاوة كلام اللـه. فتـح الشّـيخ عينيـه. فـإذا هـما أكـثر اتّسـاعًا مـن عيـون البـشر المألوفـة. حملـق الحشـد بشـيخه محـاولًا اسـتقصاء التبـدّل الـذي أصابـه. لم يفصـح أحـد عـمّا خطـر لـه. لكـن الخواطـر تنبّهـت والأفـكار الشّريـرة تقافـزت في الـرّؤوس. بحلـق الشـيخ في الحشـد الحبيـس. ولـولا أن تـدارك أمـره واسـتردّ زمـام نفسـه في اللحظـة الأخـيرة، لسـأل مسـتغربًا عـمّا يفعلـه سـكّان مـزار الـدّبّ في هـذا المـكان الخانـق.

أخـذ الاحتقـان يفـارق الوجـه الـذي طفـت عـلى سـطحه بالتدريـج نظـرة امتزجـت فيهـا السّـخريّة بحـسّ الانتصـار. وقـد شرعـت هـذه النّظـرة تفعـل فعلهـا في نفـس الشّـيخ ونفـوس أهـل المـزار حتّـى إنّ بعـض الحضـور زعمـوا أنّهـم شـاهدوا نـورًا ينبعـث مـن عينـي الرّجـل الصّالـح اللتـين اسـتردّتا صفاءهـما.

انطلـق صوتـه عندئـذٍ ناعـمًا سلِسًـا، يفيـض خشـوعًا ووَهنًـا: تتسـاءلون لمـاذا لم تسـمعوا صـدًى لـكلام اللـه؟ ألا تعرفـون لمـاذا؟ يـا لخيبـة رجـائي فيكـم. توقّـف الصّـوت المتسـائل. أدار صاحبـه عنقـه يتفـرّس في وجـوه المجتمعـين، ويـوزّع نظـرات مُوبّخـة عليهـم. عندمـا طـال صمتـه، تمنّـى كلّ فـرد منهـم لـو أنّ الأقـدار وَقَتْـه التعـرّض لاختبـارٍ كهـذا، فنكّـس القـوم رؤوسـهم انتظـارًا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لِـما سـيأتي. واصـل الصّـوت الواهـن كلامـه بالطّريقـة التـي بـدأ بهـا: لأنّ كلام اللـه عـزّ وجـلّ ليـس ككلام البـشر. ولأنّ كلام اللـه يـترك صـداه في النّفـوس، داخـل القلـوب والعقـول والأفهـام، ولا يطـنّ كطنـين الزّنابـير والنّحـل. غطّـى نايـف وجهـه بيديـه. كان الشّـيخ قـد شرع يقرّعـه ويجعلـه كبـش فـداء. حانـت مـن المتكلـم نظـرة إلى تابعـه، فقـال مسـتدركًا: مـع أنّ صـوت نايـف لا يطـنّ كطنـين النّحـل، بـل هـو واحـد مـن أصـوات الحـقّ في هـذه القريـة المباركـة، ولـن يكـون الصّـدى الـذي سـمعتموه في المغـارة هـو الصّـدى الوحيـد الـذي سـيترتّب عـلى كلماتـه، فـإنّ لمـا قالـه اليـوم ولمـا سـيقوله في مقبـلات الأيّـام أصـداء وأصـداء، ولمـا فعلـه وسـيفعله دويّـا ودويّـا، مـا دام ينطـق باسـمي ويعـبّر عـن أفـكاري ويتحـدّث بـإرادتي. ابتعـدت راحتـا نايـف عـن وجهـه، وفتحـت ابتسـامةٌ واسـعة شـدقيه عـلى اتّسـاعهما، فـرأى النّـاس يهـزّون رؤوسـهم إعجابًـا بأقـوال شـيخهم وبـه. عـنّ لـه عندئـذٍ أن يوافـق بصـوتٍ عـالٍ عـلى أقـوال الشّـيخ. وقـد نهـض بالفعـل عـن الحجـر الـذي كان يجلـس عليـه فـوق المصطبـة، حـين أضـاف الصّـوت: لا تأبهـوا للأصـداء الخارجيّـة لما تسـمعونه، بـل لاحقـوا أصـداءه داخـل نفوسـكم المتطلّعـة إلى الإيمـان والبركـة، السّـاعية إلى الخـلاص. ولا تنسَـوا أنّكـم المـادّة الخـامّ التـي سـتقلب الجبـال وتحـوّل الأنهـار. مـا إن نعيـد تشـكيلها ونضعهـا في القالـب الصّحيـح الـذي تاقـت الدّهـرَ إليـه دون أن تسـمح الإرادة الإلهيّـة لهـا ببلوغـه، لمـا خالطهـا مـن ضلالـة،

وشابها من زيف، ولأنّ مدبر الأكوان لم يقيّض لها قبل أيّامنا هاديًا ينتشلها ممّا جُبلت عليه.

كانت موجة من الصّمت الخانق تجثم على صدور القوم، و كان بعضهم قد شرعوا يحسّون بالاختناق في المغارة المغلقة ويتمنّون أن يكون خروجهم منها أوّل علامات الرحمة الإلهيّة التي جاءهم الشّيخ بها. لكنّ هذا كان يرفع في تلك اللحظة يديه معاهدًا ربّه أن يكون خميرة تحوّل هذا الطّحين المبارك، الذي هو شعب مزار الدّبّ، إلى عجينة يخرج منها خبز مقدّس يغذّي الأرواح قبل الأبدان، ويمدّها بالحياة الأبديّة وبالسّعادة. صمت الخطيب منفعلًا بأقواله التي شعر أنّ غموضها يحول دون وصولها إلى عقول أتباعه، فاختصر الرّموز والإشارات والأسرار التي كانت تتدفّق من فمه، وقال وقد بُحّ صوته من الإجهاد: مفتاح النّجاة الطّاعة؛ فهي بداية الطّريق ونهايته، وهي ما بين البداية والنّهاية. من أطاع المشاعل الإلهيّة المنيرة، أطاع ربّ العالمين، ومن عصاها عصاه، الطّاعة أولى الفضائل، والمعصية كبيرة الكبائر، من سكت عليها كان كمرتكبها في سقر وما أدراك ما سقر؟ أوّل الطّريق الطّاعة وآخره الطّاعة، حتّى لا يكون أوّله الكفر، وآخره النّار، فأيّهما تختارون؟ أجاب الحاضرون: الطّاعة، الطّاعة. أردف وقد أقلع عن التّحديق فيهم: طاعتكم لي كطاعتكم لله، اعلموا أنّ طاعتي منجاة، ومعصيتي مهلكة. أنا منذ اللحظة لم أعد أنا، وأنتم بعد عهدكم لي لم تعودوا أنتم. لقد غدوتم أتباع

هاديكم، الذي هو تجسيد الرّوح القدس في صدوركم، آية على حضور الله في حياتكم، دليل خلاصكم ممّا كنتم فيه من بهيميّة إيمانيّة هي أقرب الحالات إلى الشّرك، وبلوغكم حالة الإيمان الطّهور، التي سترتقي بكم من الآن فصاعدًا إلى مراتب مؤمنين تسامت عواطفهم أيّها السّعداء بالإيمان الحقّ.

كان صوت الشّيخ قد تحشرج إلى درجة حالت بينه وبين التنفّس المنتظم؛ فأمسك عن الكلام وحدّق مجدّدًا في الحشد الغائم المتكدّس تحت أقدامه. كانت المغارة صامتة، وإن تعالت أنفاسُ مَن فيها، وقد دخلوا مرحلة معاناة معذّبة جعلت الجمع العاتم المتكوّم على نفسه يتنفّس برئة واحدة، يجاهد عبثًا لملئها بالهواء، فيختلج ويضطرب ويتهالك ويتألّم.

تعمّد الشّيخ إطالة استراحته، واعتزم مطّ حديثه، ليبلو صبرَ تابعيه ويمتحن طاعتهم. هكذا عاد إلى النّوم من جديد، والحشد ينتظر أوْبته. كانوا يتبادلون نظرات الدّهشة والحيرة، يترقّبون صحوته بعد غيابه، فإذا به يفتح عينيه ويصرخ بهم: اعلموا أنّ الرّسالة تتطلّب من أتباعها التّضحية بالغالي والرخيص؛ بأرواحهم ومُهَجهم، وأنّها ستحلّ لديهم محلّ أغراض الدّنيا الفانية، حتى لا يبقى لديهم سواها، دون أن تتأثّر بأيّ جانب من جوانب دنياهم أو تخضع لأيّة ضرورة من ضروراتها. إنّني أنظر إليكم، فينتابني يقين بأنّكم

عـلى وشـك التخـلّي عـن الرّسـالة، وأنتـم تتبلّغونهـا، فهـل هـذا موقـف إيمـانيّ راسـخ، وهـل هـو وسـيلتكم للخـروج مـما أنتـم فيـه والوصـول إلى نسـيم اليقـين المنعـش؟

انقطـع حبـل الـكلام مـن جديـد. أدرك القـوم الآن حجـم المهمّـة التـي يطلـب الهـادي إليهـم إنجازهـا. وفهمـوا أنّـه يحمـل إليهـم رسـالةً نبويّـةً يـرى فيهـم القـوّة التـي اصطفاهـا لتحقيقهـا. أجفـل بعضهـم، حـين دارت الفكـرة في رؤوسـهم، وخشَـوا عقابيـل دعـوة بـدت لهـم أسـمى مـن مداركهـم، كـما أكّـد الشّـيخ نفسـه أكـثر مـن مـرّة. وأحسّـوا أنّ يـدًا تنتشـلهم مـن ركـود حياتهـم، لتلقـي بهـم إلى غياهـب مجهـول لم يخطـر ببالهـم أنّـه يتهدّدهـم إلى هـذا الحـدّ.

مـرّت هـذه الخواطـر في نفوسـهم، بينـما هـم ينتظـرون أن يسـتأنف شـيخهم مـا انقطـع مـن حديثـه. كان الرّجـل يصمـت، كمـن وصـل إلى نقطـة قـرّر ألّا يقاربهـا، وقـد أعلـن مـا أعلنـه وأفهمهـم أنّـه ليـس مـن حقّهـم مطالبتـه بالإفصـاح عـن نواياه.

قـال القـوم: إنّ نايفًـا اقـترب مـن الشّـيخ يهمـس في أذنـه كلامًـا غـير مسـموع، وأنّهـم سـمعوا الصّامـت يقـول: لـكلّ شيء ميعاده؛ يعطـي العلـم مـن يشـاء. قالـوا أيضًـا: إنّ نايفًـا أعلـن عندئـذٍ نهايـة اللقـاء المبـارك، الـذي أنعـم بـه الشّـيخ عـلى قريـةٍ كانـت وسـتبقى متعطّشـة إلى لقيـاه.

تدافـع الحشـد المتعـب المخنـوق إلى خـارج المغـارة تدافعًـا غـير منظّـم. كان الهيجـان يتناقـض أشـدّ التناقـض، وحالـة الهـدوء

مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

التـي حافظـت المـزار عليهـا طيلـة اللقـاء. وكان الزّعيـق والـصّراخ والضّجيـج المتصاعـد مـن جميـع الأفـواه والأجسـاد شـديدًا، يخال المـرء معـه أنّ هـؤلاء القـوم ليسـوا هـم أنفسـهم مَـن احتملـوا إلى مـا قبـل لحظـات الهـواء الفاسـد والأقـوال المباركـة الغامضـة، والازدحـام، والعـرق، والأصـداء المتداخلـة، المنطلقـة مـن أفـواه المتكلّمـين وجـدران المغـارة. ومـن صـبروا عـلى تلاطـم وساوسـهم في نفوســهم، وأفــكار الشّــيخ في رؤوســهم وأقلقتهــم هواجــس عــدم الفهــم، وعذبتهــم إيحــاءات المجهــول، بعــد أن تجــاوز اللقــاء حياتهــم إلى حيــاة بنــي الإنســان، وبؤســهم إلى معنــى الوجـود الإنسـانيّ، وإلى معـانٍ حمـدوا ربّهـم، في سرّهـم، لأنّهـم لم يفهموهـا. وشـكروه لأنّـه قيّـض لهـم هاديًـا حملهـا فـوق كاهليـه القويّـين، ثـم حمـدوه أخـيرًا، لأنّـه جعـل نصيبهـم منهـا الطّاعـة فقـط.

مــا إن صــار القــوم خــارج المغــارة، حتّــى صاحــت إحــدى العجائــز طالبــةً إليهــم النّظــر صــوب الغــرب، حيــث يرتســم وجــه الشّــيخ فــوق صفحــة السّــماء بخيــوط الشّــمس المتّجهــة نحــو الغــروب. كانــت العجــوز تولــول بكلــماتٍ وضعتهــا قــوّة خفيّــة عــلى لســانها؛ فلــم يفهــم أحــد شــيئًا مــمّا قالتــه. وإن رآهــا الجميــع في حالــة تخبّــط هســتيريّ، تــدقّ صدرهــا بيديهــا، تشــدّ شــعرها الأبيــض المنتــوف، وتطلــق تأوّهــات وتضّرعــات تتحــشرج في حلقهــا، فتســمع كلَغْــو متواصــل ينبعــث مــن قلــبٍ سـكنَه الجنـون والخـوف.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

تحلّقت العجائز حول المرأة المنكوبة يطلقن عويلًا متواصلًا، قادهنّ إلى سُعار متفاقم، لم يعد بوسع أحد السّيطرة عليه. نظر القوم إلى الشّمس الغاربة، فقال قسم منهم يتزعّمه نايف ما قالته العجائز النّائحات؛ وقال قسم آخر إنّه لم يرَ شيئًا. مع أنّه قانع بقدرة الشّيخ على بلوغ الشّمس والقمر، وموقن بقدسيّة شخصه وقداسة رسالته. أعلن نايف عندئذ أنّ ارتسام وجه الهادي في السماء هو كشف لدرجة إيمان المشاركين في لقاء المغارة، وإن عجزت بعض الأبصار عن رؤية الوجه فهو سرٌّ من الأسرار المحيّرة يلقي الضوء على سبب اختيار المغارة موقعًا للّقاء.

تفرّق النّاس وهم أشدّ إيمانًا من أيّ وقت مضى بطاقات الشّيخ، لئن كان هناك من تشكّك بكلام العجوز؛ التي عُرفت بأنّها واحدة من أكثر عجائز القرية خرفًا وهوسًا، فإنّ نايفًا أخرسه، حين قال: إنّ الله يضع سرّه في أضعف خَلقه، وإنّه اختار عجوزًا خرفَةً وقليلة الإيمان، ليثبت لضعاف القلوب معجزة الوجه والشّمس والمغارة.

لم يتناقش النّاس فيما جرى، كعادتهم في أعقاب الأحداث الكبرى، ولم يتبادلوا الزّيارات للتّباحث فيما جدّ على حياتهم، بل آووا إلى بيوتهم مفضّلين التّعايش مع الحدث على التحدّث عنه. تُرى لو أنّهم أرادوا التحدّث عمّا جرى، فماذا كان بوسعهم القول؟ لقد فهموا بالكاد ما أريد لهم وبهم، وبقي في أذهانهم انطباع طاغ بأنّهم صاروا شركاء، في

شيء يدركـه ويفصـح عنـه واحـد منهـم. وصـار منـذ البارحـة كائنًـا مـن غـير طينتهـم البشريّـة، يعيـش معهـم دون أن يعيـش مثلهـم؛ يتحـدّث لغتهـم بطريقـةٍ لم يألفوهـا، حتـى لكأنّها ليسـت اللغـة التـي يعرفونهـا، وينـام ويـأكل ويـشرب بغـير الطّريقـة ولغـير الأهـداف التـي لهـا ينامـون ويأكلـون ويشربـون. فعَـن أيّ شيء يتحدّثـون، وبأيّـة طريقـة يتحدّثـون، ولمـن يتحدّثـون، ولمـاذا يتحدّثـون؟ لقـد أبقـى شـيخهم الرّسـالة سرًّا بينـه وبـين ربّـه، الـذي شـاء أن يعطيـه العلـم وحـده. وطـرح عليهـم رسـالته مـن بـاب الطّاعـة. وأنبأهـم أنّ الخـروج عليهـا هـو خـروج عـلى إرادة ربّ العالمـين، فهـل يجعلـون ثقتهـم بـه وبرسـالته موضـوع أحاديثهـم، ومـا الـذي يدفعهـم إلى ارتـكاب حماقـة كهـذه إذا كانـوا قانعـين أنّهـا ثقـة أكيـدة لا يرقـى إليهـا شـكّ؟

هـل يعنـي هـذا أنّ القريـة نسـيت مـا كانـت قـد سـمعته قبـل يـوم واحـد فقـط مـن الشّـيخ ورجالـه؟ إنّ إطـلاق زعـم كهـذا هو تجـنّ عـلى الحقيقـة، فسـكّان المـزار ليسـوا مجـرّد ورقـة بيضـاء يكتـب فيهـا مـن يشـاء مـا يشـاء، دون أن تنفعـل بـه وتتّخـذ منه موقفًـا. صحيـح أنّ النـاس تصنّعـت الجهـل بمـا حصـل، لكنّهـا فعلـت ذلـك تحـت وطـأة قلـق وجـدت نفسـها نهبًـا لـه. تغلغـل في ثنايـا وجدانهـا وغـدا تجاهلـه أو التحـرّر منـه ضربًـا مـن المحـال. وزاد مـن قلقهـم أنّ هاديهـم أمرهـم بتجاهـل ونسـيان الأسـس التـي ارتكـزت إليهـا حيـاة آبائهـم وأجدادهـم، دون أن يدلّهـم، في الوقـت نفسـه، عـلى أسـس يحلّونهـا محلّهـا، يواجهـون

بهـا مـا قـال إنّـه دورهـم الجديـد، فـإذا هـم كسـفينة فقـدت دفّتهـا وتمزّقـت أشرعتهـا واتّجهـت بقـوّة لا تقـاوم نحـو صخـور الشـاطئ المدبّبـة حيـث هلاكهـا، مـع أنّـه لا ذنـب لبحّارتهـا في مصيرهـم المحتـوم.

لـو أنّ قومًـا غـير سـكان المـزار واجهـوا حالـة كهـذه، لقالـوا إنّ شـيطانًا تسـلّط عليهـم وأنشـب مخالبـه المسـمومة في دخائلهـم، منتزعًـا منهـم أخـصّ مـا يملكـون مـن عـادات وأفـكار وعواطـف. لكنّهـم هـم، بمـا فطـروا عليـه مـن طيبـة وبسـاطة. كانـوا ينتظـرون الهـادي أو أي هـادٍ آخـر منـذ وقـتٍ طويـل. والحـقّ أنّهـم آمنـوا بـه قبـل أن يـروه أو يسـمعوا بـه، بـل وقبـل أن يظهـر أصـلًا. وقـد سـعدوا بظهـوره فيهـم، وتقبّلـوا مـا قالـه لهـم وأدخلـوه إلى عقولهـم، ليجـد فيهـا أرضًـا عطـشى سرعـان مـا تشرّبتـه؛ وأضفـوا طابعًـا مـن الجدّيّـة والاحـترام عـلى أتباعـه، بمن فيهـم المفزلـك، الـذي كان إلى الأمـس القريـب موضوعًـا لتندّرهـم ومحـلًّا لسـخريّتهم. لم تشـعر المـزار بـأنّ موقفهـا مـن حمـدان كان منّـة منهـا، فقـد أحسّـت أنّهـا تحتـاج إليـه أكـثر مـمّا يحتـاج هـو إليهـا، وحدسـت بـأنّ الحلـم الـذي جاءهـا بـه هـو بدايـة وجودهـا الحقيقـيّ، وبـأنّ حياتـه وعـد لم يسـبق لأحـد أن مناهـا بمثلـه. فلـماذا تنتظـر تمـام رسـالته، وكيـف تمتنـع عـن إلقـاء نفسـها إلى نعيـم طاعتـه، التـي هـي شرط حرّيتهـا؟

أقنعـت مـزار الـدّبّ نفسـها بالطّاعـة سـبيلًا إلى الخـلاص مـن قلقهـا ومخاوفهـا. تسـابَق أبناؤهـا عندئـذٍ إلى تنفيـذ رغبـات لم

يفصح الشّيخ عنها، لاعتقادهم أنّ تنفيذها يرضيه. ولولا حذرُ بعض العاقلين، لكان أهاليها أتَوا أعمالًا وتصرّفات لا يعرف أحد إن كانت سترضي الهادي أم ستغضبه. لقد وُجِدَ، لحسن الحظّ، من حذّرها من تضارب جموحها مع ما قد يريده أو يدور حقًّا في رأسه. وقد أوشك بعض المتسرّعين أن يذهبوا إليه لطرح تساؤلاتهم الحائرة عليه. لكنهم خافوا أن يكون التطلّع إلى معرفة ما يدور في ذهنه كالتطلّع إلى معرفة ما يدور في ذهن الباري عزّ وعلا، وأن يرتكبوا من حيث لا يريدون معصيةً لا غفران لها، كما أخبرهم الأستاذ نايف. إذا أردتم كشف صفات شيخكم. أمعنوا النّظر في أنفسكم تتعرّفون إليه في ذواتكم. أبعدَ ذلك تبحثون عنه في الظّاهر من أعماله، وتتطلّعون إلى إدراكه منفصلاً عن وجودكم؟ هكذا قال لهم عقلاؤهم، فأدانوا أنفسهم التي كانت بحاجة إلى من يذكّرها به.

لم يولِ الشّيخ، من جانبه، أهل القرية اهتمامًا خاصًّا، كي لا يتوهّموا أنفسهم طرفًا في علاقتهم به. أنكر عليهم أيضًا دورهم في تقرير علاقتهم به، كي لا ينسبوا لإرادتهم ما لا حيلة لهم في حدوثه أو قبوله. كان يسعى إلى صياغة أجواءٍ تجبرهم على التصرّف بقوّة منطق مضمر. يحظّر على أحد أتباعه الإفصاح عنه أمامهم. ويفترض بهم أن يعرفوه ويتقيّدوا به، في الوقت نفسه، كأنّهم أمضوا حياتهم في الإصغاء إلى شروح مفصّلة عنه، أو التزموا التقيّد به في جميع الأحوال.

كانت القرية ما تزال أسيرة البلبلة والفوضى، حين شاع نبأ اجتماع دعا الشّيخ مجلسه إليه، ليطلعه على خطط قال الأستاذ نايف أنّها ستجلب السعادة الرّوحيّة إلى المزار. قال الشّيخ لخاصّته إنّ وقت التغيير قد أزِف. هزّ الرّجال المتحلّقون حول منصّة نصبها نايف في بيت الهادي تذكيرًا بمنصّة المغارة وتيمّنًا بها، وقالوا: أنت تأمر ونحن نطيع. قال الهادي مستأنفًا: هذه القرية اصطفاها الله لأمرٍ لم تسبقها إليه قرية. فإن نجحت دخلنا فردوس السّعادة، وإن فشلت، لا قدّر الله، غرقتم في شقاء مقيم. لقد وقع اختياري على المزار. لتكون بشير حياة جديدة أطلب إليكم إثبات جدارتكم بها، كي لا يبدو الواحد القهّار في صورة خالق متهاون يتمرّد عِباده عليه. ولا يظهر البشر أنفسهم بمظهر جنس فاسد خانع، عجز عن الخلاص من مأزقه الذي رمت الخطيئة الأولى به إليه. أنتم، أيّها الأحبّة، بشر ولستم ببشر. أنتم بشر بمقياس اليوم، ملائكة أطهار بمعايير الغد؛ تقوم حياتكم منذ اللحظة على قهر وتجاوز الحياة. مستقبلكم بين أيديكم وحاضركم هو ماضيكم، فعيشوا الآتي حالةً راهنةً، وتخطّوا الراهن في أفعالكم وأقوالكم. كونوا جديرين برسالةٍ لم أنزلها على سواكم، لقناعتي أنّكم رجالها البررة الجديرون بي، أنا الكائن الأزليّ، المتجسّد فيكم وبينكم بشرًا سويًا، الظّاهر في إهاب الخطاة، وهو المنزّه، العائش على حاجات الجسد وهو الرّوح، الخالد، الأوحد، الأقدس، الأعلى،

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الأعلم، الذي هو أنا وليس أنا، الصّورة في الصّورة والمادّة في المادّة. الحاضر في كلّ شيء دون أيّ شيء. المشرق في النفوس. الباقي في كلّ ما ينصرم بعد أن ينصرم.

كان الشّيخ قد أقلع عن الكلام المسموع، ودخل في الحالة، لتحوّل حديثه إلى ما أسماه نايف همسًا بينه وبين ربّه، يسمعونه بقلوبهم إن هي أخلصت الإيمان، ويعجزون عن سماعه بآذانهم، لأنّ الآذان هي أداة الفاني إلى سماع الزّائل، بينما القلب مستودع الرّسالة، ومقرّ الرّوح وساحة الله في النّفس.

لم يجرؤ أعضاء المجلس على الاقتراب من الرّجل الهامس، فمطّوا أعناقهم ومدّوا رؤوسهم إلى أمام، علّهم يلتقطون شيئًا ممّا تجود به الشّفاه المباركة. بينما كان الشّيخ يخفض صوته، فيبدو كمن يعذّب حلقة الأعناق المتطاولة من حوله. بعد هنيهات اختفى الهمس تمامًا، فشرعت شفاه الرّجل الصّالح تتحرّك تحرّكًا متسارعًا تارةً متباطئًا أخرى، وأخذ يفتح عينيه ويغلقهما حسب حركة فمه، بينما يصفرّ وجهه ويحمرّ على إيقاع همسه الدّاخلي، ويجهد أتباعه لالتقاط ما صار مستحيلًا التقاطه بالآذان، أداة الفاني إلى سماع الزّائل.

كان أعضاء المجلس يخافون أن يفتح شيخهم عينيه سائلًا عمّا قالته الشّفاه الهامسة. قال لهم نايف إنّ المؤمن يسمع بقلبه، فهل يسامحهم الشّيخ ويبقيهم في عداد حملة رسالته،

إن هـو اكتشـف أنّهـم لم يسـمعوا شـيئًا مـن حديثـه بقلوبهـم؟ تمنّـى بعضهـم عندئـذٍ أن يفتـح الشّـيخ عينيـه كي يعفيهـم مـما خصّهـم بـه. وتمنّـى آخـرون أن يمـدّ يـده إلى المفاسـد فيجتثّهـا، تـاركًا أتباعـه فيـما فطـروا عليـه مـن طبـع إنسـانيّ فاسـد، قـال هـو نفسـه أنّ مـن الصّعوبـة بمـكان تخليصهـم منـه.

لم يجـرؤ أحـد عـلى الإفصـاح عـمّا يعتمـل في نفسـه. اسـتبدّت بهـم الغبطـة لحالـة النّـوم التـي أخـذت الرجـل الصالـح، وانتهـت بـه إلى غيبوبـة كغيبوبـة المغـارة؛ فلـم يبـق لهـم سـوى إعـادة أعناقهـم إلى وضعهـا الطبيعـي، وانتظـار أوبتـه.

هـل نـام الشّـيخ بالفعـل؟ لم يصـل أيّ عضـو في المجلـس إلى إجابـة يقينيّـة عـلى هـذا السّـؤال، وإن انقسـم القـوم إلى فريقـين: واحـد يقـول إنّ الوحـي ينهـك مـن ينـزل بـه، وأنّ متلقّيـه يكـون في حالـة بـين الوعـي واللاوعـي، يسـمّيها العامّـة الغيـاب. وآخـر يـرى أنّ الرّجـل الصّالـح ليـس حـرًّا في التّـصرف بنفسـه، سـاعة يكـون بـين يـدي خالقـه؛ إنّـه ينـام متـى أراد لـه البـاري عـزّ وعـلا النّـوم، لذلـك يعـدّ نومـه شـكلًا مـن يقظـة سرّيّـة، يجهلهـا الفانـون ممّـن لا يتّصلـون بـالإرادة المنزّهـة.

أجمـع الطّرفـان إذًا عـلى اعتبـار نـوم هاديهـم نوعًـا مـن الاتّصـال بالواحـد القهّـار، هـو سرّ قداسـته، وشـكل حياتـه في حـضرة الـذّات العليـا. وأجمعـوا عـلى أنّ إيقاظـه خطيئـة لا تغتفـر، لمـا قـد تفوّتـه عـلى المـزار مـن تعاليـم ربّانيـة. كـما أجمعـوا عـلى أنّ انتظـار فيقتـه، وهـي علامـة العـودة الكـبرى التـي يتوقّـف عليهـا

خلاص الجنس المزاريّ، هو الإيمان عينه. قال نايف شارحًا ما يراه: الغيبوبة ليست هي الغياب. أمّا اليقظة فهي رجعة على طريق الحضور المنتظر. وفي الحالتين يدخل الرّجل الإلهيّ في حالة الاتّصال والقداسة، مع أنّه يعاني الوجد الجسديّ في الغياب، ويتوهّج بالإشراق الإلهيّ في اليقظة؛ يرجع إلى ذاته العليا ساعة يغيب، ويبارك ذاته البشريّة متى حضر. التفت الحاضرون إلى بعضهم مندهشين يتساءلون بصمت: هل تحلّ روح الهادي عندما يغيب في الأستاذ؟

انتظروا أوبة الشّيخ متلهّفين إلى سماع ما سيأمر به، بعد اكتمال وحْيه. انقضت فترة بعد الظّهر بكاملها وهو غائب. اعتزم نايف عندئذٍ إيجاد التّفسيرات الملائمة للحالة، ثمّ غيّر رأيه لسببٍ غير معروف، وغرق كغيره من أعضاء المجلس في الصّمت السّائد، بينما كان وجهه ينزّ خشوعًا وهو يراقب الهادي، الذي ساقه الوجد إلى الإيغال في عوالم لا يدري أحد إن كان سيرجع منها.

لم يكن وضع أعضاء المجلس طبيعيًا بدوره، فقد رانت عليهم حالة من الترقّب والذّهول، جعلتهم يبدون كتماثيل لأناس توقّفت حياتهم فجأةً، فتجمّدوا منتظرين عودة الروح إليهم. كان الرّجال يجلسون صامتين تمامًا، لا يجرؤون على طقطقة مسابحهم أو إشعال سجائرهم، التي لا تفارق عادةً أفواههم. إذا كان بعضهم قد نظر إلى بعضهم بين الفينة والأخرى، فإنّهم فعلوا ذلك بصمتٍ وسرّيّة، خشية أن يكون

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

شيخهم قادرًا على مراقبتهم وعيناه مغمضتان، ولخوفهم من الأستاذ الذي كان يجلس بينهم فاتحًا عينيه على اتّساعهما.

تنحنح النّائم، فسرى الاهتمام إلى الوجوه المتجمّدة المتحلّقة حوله، التي أتعبها الصّمت وانتظار نهاية الاجتماع. لم يفتح الشّيخ عينيه. تناهت إلى أسماع أعضاء المجلس همهمة متّصلة هامسة، تشبه صوتًا قادمًا من أعماق بئرٍ شديدة الغور امتصّت وضوح كلماته فسمعها الجالسون كرنّة مكتومة متّصلة لم يفهموا مخارجها ولم يدركوا مكنوناتها. كان الرّجل الصّالح يغمغم ما قال نايف إنّه رسالته إلى القرية، فأرهف أعضاء المجلس السّمع دون أن يفهموا شيئًا. أعلن المهمهم بلسان الأستاذ أنّ القرية ستصير أخويّة عمل يديرها مجلس الألفة، بعد أن صارت أخويّة إيمان. وأنّ مساواة سكّانها أمام الأرض هي أساس مساواتهم أمام الله، مالك الكون ومن فيه، قال المهمهم أيضًا إنّ أساس حياتهم الجديدة لن يكون في علاقتهم ببعضهم، بل في رابطتهم بهاديهم وخالقهم، الذي بفضله سيعملون وسيحيون.

صمت الصّوت، فقال نايف بمرح وسعادة: هذا هو الانقلاب الحياتيّ الذي انتظرناه. كنّا نرى في الماديّات أساس وجودنا، وها هي الرّسالة الجديدة تبيّن ضلالنا وتقول لنا إنّ أرض الإيمان هي التي ستطعمنا لبنًا وعسلًا، وستنقذ أجسادنا وأرواحنا. لن نتمسّك بالأرض، بل بالإيمان. لن نقول بعد يومنا هذا: من لا يعمل لا يأكل، وإنّما سنقول: من لا يؤمن

لا يـأكل. مـا قيمـة العمـل والأرض دون الإيمـان؟ ومـا قيمـة الحيـاة ذاتهـا دون الهـادي ورسـالة الإيمـان التـي جاءنـا بهـا؟

تنحنـح الشّـيخ مـن جديـد، فسـكت نايـف. قالـت الهمهمـة الغامضـة إنّ الإيمـان هـو ثـروة الجماعـة المؤمنـة، وأنّ الـثّروة أحسـن عنـد البـاري مـن الـثّراء وأعـلى منـه شـأنًا، لأنّ الـثّروة روحانيّـة خالـدة والـثّراء مـاديّ زائـل. كـم مـن قـوم بلغـوا الـثّراء ولم يمتلكـوا الـثّروة، فعاشـوا عيشـةً بائسـةً ذليلـة.

وكـم مـن جماعـة حـازت الـثّروة دون الـثّراء، فأمضـت أيّامهـا راضيـةً هانئـةً. وكـم مـن قـوم حباهـم اللـه بالـثّروة والـثّراء، فبلغـوا المنـى وعاشـوا كأهـل الجنّـة. لقـد أعزّكـم اللـه بالـثّروة وهـو يعدكـم بالـثّراء، فارتقبوهـا بإيمـان لا يتزعزع باللـه والهادي. سـأل أحدهـم كيـف سـنعيش مـن الآن فصاعـدًا عـلى الإيمـان؟ أجابـه نايـف معنّفًـا: سـنعيش مـن الزّراعـة وسـنضيف إليهـا شـيئًا مـن التّجـارة أشرف الأعـمال وأكثرهـا تقرّبًـا إلى اللـه.

سـأل أحـد أعضـاء المجلـس بصـوت احتجاجـيّ: بمـاذا نتاجـر ونحـن لا نـكاد ننتـج طعامنـا؟ بـدا الشّـيخ كمـن لم يسـمع السّـؤال، فأحنـى رأسـه وعـاد إلى غيبوبتـه. قـال نايـف عندئـذٍ: لا تزعجـوا الهـادي. لقـد طرحتـم مـا يكفـي مـن الأسـئلة لهـذا اليـوم. اعلمـوا أنّ الهـادي يجيبكـم بمـا يوحـى لـه، وأنّ مـا يملكـه كلّ واحـد فيكـم سـيصبح للمـزار بأجمعهـا، بـدءًا بالمحاريـث والفـؤوس والرّفـوش والمعـازق والفرّاعـات والـدّوابّ وانتهـاء بالطّعـام والـشّراب والأرض، وأنّ كلّ واحـد منكـم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

سيحصل على ما يحتاج إليه في معاشه، على أن يقدّم شيئًا من عمله «لمجلس الألفة»، بعد أن يضمّ أرضه إلى أراضي «جمعيّة المزار» ويزرعها بما تقرّره الجمعيّة. سأل أعضاء المجلس عمّا سيقدّمه «مجلس الألفة» لهم، فردّ نايف أنّه سيكون لكلّ عضو في المجلس ما لسواه، وأنّ المجلس هو الذي سيمدّ الفلّاحين بالبذار، وسيبيع محاصيل جمعيّتهم، وسيقيم مستودعًا لحماية منتجاتهم من التّلف والضّياع، كما سيقرضهم مالًا، لتمكينهم من إنتاج أكبر قدر من الأرزاق. ارتبك أعضاء المجلس لوهلة؛ فقد سمعوا شروحًا من الأستاذ تجاوزت أحلامهم، ووضعتهم في موقع كانوا لا يجرؤون حتّى على التّفكير ببلوغه، يتيح لهم الإشراف على شؤون السّكان ويعفيهم من مشقّات العمل. استفسر أحد الأعضاء عن الزّراعات الجديدة التي ستباع محاصيلها في المدن؟ فأجاب نايف بصورة تقريريّة: سيزرع مجلسكم التّبغ في أراضيه، فما قولكم أن تزرعه الجمعيّة بدورها في أراضيها؟ كاد بعض أعضاء المجلس أن يقفزوا من أماكنهم احتجاجًا على ما قاله صفيّ الهادي. أليس هو من أطلق على التّبغ لقب الزّراعة الشّيطانيّة، وقاوم إلى أيّامٍ خلت إدخالها إلى قريتهم، لأنّها، كما كان يقول خلال جولاته في بيوت القرية، تتطلّب تغيير حياتهم وعاداتهم ومعارفهم، وتنزل أفدح الضّرر بهم وبأراضيهم؟ ثمّ أليس نايف هو من قام بجولة إلى القرى المحيطة بمزار الدّبّ، التي كان الله قد ابتلاها بزراعة التّبغ، وعاد يصف ما حلّ بها بألوان سوداء وحالكة؟

حدّق أعضاء المجلس في نايف، ثمّ انطلقوا يتحدّثون بصوتٍ واحد، غير آبهين للشّيخ النّائم أو مكترثين باعتراضات تابعه المقرّب. كانت أصوات المحتجّين تتعالى دون انقطاع، إلى أن صارت صراخًا اختلطت فيه الحجج بالشّتائم بالإهانات. فتح النّائم عينيه سائلًا عن أسباب الصّراخ الذي أيقظه. أخبره الأعضاء بما قاله نايف، فقال بصوت غائم: تفعلون ما قيل لكم وعاد إلى النّوم. انطلق نايف عندئذٍ يفسّر لمن أسماهم الأغبياء معنى الوحي الذي نزل بالهادي، ففهموا من إيحاءاته وشروحاته المطوّلة المعقّدة أنّ التّبغ كان قبل الهادي زراعةً شيطانيّةً، وأنّه سيتحوّل بفضله إلى نبات رحمانيّ ستنعكس آثاره على حياتهم خلال فترة قصيرة وسيعرفون أنّه نعمة لا تفوقها نعمة، أنزلها الله لهم مع هاديهم. كان نايف يتحدّث متنقّلًا نظراته من عضو في المجلس إلى آخر. حين رأى إمارات الاقتناع وقد شرعت ترتسم على وجوه محدّثيه، سألهم قاطعًا الشّك باليقين: أتريدون أن يحلّ هاديكم المجلس ويعيّن غيركم فيه، فتذهب أراضيكم إلى جمعيّة القرية، وتذهبون أنتم للعمل في الحقول؟ أم تضمّون أراضيكم إلى أرض مجلس أنتم من أعضائه الذين يقرّرون شؤون المزار؟ فصرخوا ملهوفين فزعين: بل نحن في المجلس ومعه.

انصرف المجتمعون كأنّ على رأسهم الطّير. لقد قرّر شيخهم أخيرًا نمط الحياة التي يريدها لمزار الدّبّ، فإذا هم أوّل ضحاياه، وإذا به يبعث في أنفسهم إحساسًا شرع يعذّبهم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لتوّه. فقد تبيّنوا أنّ يد الهادي وضعتهم فوق المزار وخارجها، ونقلتهم من موقع كانوا فيه أبناء لقريتهم إلى موقع عالٍ، لن يروا المزار منه إلّا إذا طأطؤوا رؤوسهم أمام الشّيخ وربّما أمام نايف. كان أعضاء مجلس الألفة يشعرون أنّهم يبدؤون حياتهم الجديدة بتواطؤ مضمر، لم تسعفهم مخيّلاتهم على تصوّر أبعاده أو نتائجه على قريتهم. وقد شكا أحد الأعضاء للشّيخ ما اعتمل في صدره من وساوس وشكوك، فأعلن أنّه لا يدري ما يقوله للمزار المترقِّبة، وأنّ الاضطراب الذي يعذّبه يتعدّى وضعه الشّخصيّ إلى وضع القرية ذاتها. إلّا أنّه ما لبث أن ندم على إعلان مشاعره، عندما سأله نايف: أتتّهمنا بخيانة قريتنا؟ وهل تعتقد أنّ الهادي سيفارق عالم النّزاهة والتّقوى من أجل متع الدّنيا الزّائلة، وأنّه يمنّ على المزار بما يملكه من ثروة وثراء ليجني منها نفعًا؟ أجاب الرّجل وقد أحسّ أنّ الأسئلة المحرجة تزيل شكوكه وتعيد إليه توازنه: إنّما أردت أن يعرف شيخي ما بقلبي. قال الشيخ: يعذّبك جهلك وفساد نفسك. قبل أن يردّ العضو، كان نايف يسأله: أتريد الخروج من المجلس والانضمام إلى جمعيّة المزار؟ هذا أمر سهل علينا صعب عليك، فماذا تريد؟ صمت العضو يكاد يشرق بريقه، وقد تركّزت أعين الأعضاء المتفحّصة عليه، ثمّ قال: أنا عبد شيخي الهادي.

تفرّق أعضاء المجلس وهم في خوف ممّا حصل. لقد وافقوا على ما رآه شيخهم، لأنّه أخبرهم أنّ خيرهم وخير المزار كامن فيه، ولأنّهم رأوا أنفسهم حيال موقف لم يترك لهم أيّ

مجال للاختيار، وضعهم أمام إكراه لا مفّر منه: أن يكونوا مع الشّيخ، فيقرّر دون استشارتهم ومعرفتهم ودون أن يعتدّ بآرائهم ورغباتهم، كما فعل عندما أمرهم بإقامة الجمعيّة وحدّد الزّراعة التي ستمارسها، أو يكونون ضدّه، فيضاف إلى عدم الاعتداد بهم وإلى تجاهل رغباتهم كره جارف سيكنّه لهم، وسينقل عدواه إلى المزارعين. صحيح أنّ الشّيخ رفعهم ووضعهم فوق القرية، لكن من يضمن لهم أنّ قيمتهم عنده لن تتضاءل إلى أن تنعدم تمامًا بمرور الأيّام وتعاظم سلطته؟ وهل هم بحاجة إلى انتظار المستقبل ليروا بأمّ أعينهم ما تنبئهم به قلوبهم الواجفة، التي أخافتها قرارات معناها الوحيد أنّهم ما عادوا يساوون شيئًا بحدّ ذاتهم، وأنّهم يستمدّون قيمتهم منه؟ كان أعضاء المجلس يبرّرون انزلاقهم إلى خارج المزار بالغنم الموعود، الذي أثار في نفوسهم قدرًا كبيرًا من الذّعر والاضطراب. بهذه التساؤلات كان أعضاء المجلس يعتقدون أنّ صفقتهم الأولى مع الشّيخ هي آخر صفقاتهم معه. فلِمَ فعلوا ما فعلوه، وماذا يربحون من غُنْم جعلهم يخسرون أنفسهم ذاتها؟

تفرّق أعضاء المجلس وقد أصابهم تحوّل داخليّ مخيف، لم يخطر ببالهم إلى لحظاتٍ قليلة، ولم يعتقدوا أنّ شيئًا يمكن أن يسبّب بعضًا منه أذىً لهم. حتى إنّ عضو المجلس أيّوب النّاعس أخذ منذ تلك اللحظة يتحسّس نفسه دون توقّف بكلتا يديه، إلى أن صارت حركته هذه طبيعةً ثابتةً

فيه، فاعتقدت المزار أنّه أصيب بجربٍ لا شفاء منه، وأنّ من الخير لها الابتعاد عنه. كان أيّوب يضع كلتا يديه على صدره وقد بسط أصابع يمرّرهما من تحت إبطيه باتّجاه ظهره وعنقه، منحدرًا بهما نحو بطنه وفخذيه، كأنّه يفتش عن نفسه أو يتشكّك بوجوده. وقد قال ذات مرّة جوابًا على سؤال ماكر ألقاه عليه الأستاذ نايف: إنّما أتحسّس نفسي لأعرف إلى متى سيبقى جسدي على حاله بعد أن مسّه تحوّل بدّله من الداخل، وقلبه إلى نقيضه. يقال إنّ نايفًا أجابه متفلسفًا: أتعتقد أنّ الإنسان يجب أن يتفّحص جسده ليختبر تبدّلات روحه؟ ثمّ هزّ رأسه وأضاف: يا لك من مسكين إذًا! لم يجب أيّوب المعذّب على ملاحظات المفزلك، بل إنّه لم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك اليوم، ومات بطريقةٍ فظيعةٍ لا يعرف أحد إلى اليوم كيف حدثت، وهو صامت أخرس.

لم يتبدّل ابراهيم النّاطور ولم يتغيّر. كانت عصاه قد أدخلته إلى مجلس الألفة بعد أيّام من التّعذيب، التي عانت فيها زوجته وأذاق أبناءه فيها الأمرّين. احتضن نايف النّاطور بأمر من الشّيخ، الذي خلع عليه لقب «ذراع الهادي». فإذا باللقب يدفعه للانطلاق في حقول مزار الدّبّ ودروبها وغاباتها وينابيعها مكرّرًا كلمة «بالعصا» لا يحيد عنها ولا يملّ من ترادها. كان النّاطور يطلق الكلمة السّحريّة من فمه ويده تهزّ عصاه، التي أقسم أغلظ الايمان أنّه حاول

مـرّات كثـيرة كسرهـا عـلى أجسـاد ورؤوس زوجتـه وأبنائهـا، وعـلى ظهـور الـدّوابّ وجـذوع الأشـجار والصّخـور، فـإذا بهـا تسـتعصي عـلى الكـسر، لأنّـه كان قـد حـلّ فيهـا شيء مـن سرّ الشّـيخ حمـدان. إذا كان مـن غـير الصّحيـح أنّ النّاطـور فقـد عقلـه بسـبب سـيطرة عصـاه عليـه سـيطرةً جعلتـه يمسـك بهـا حتـى وهـو نائـم، كـما أشـاع سـكّان المـزار، فمـن المؤكّـد أنّـه كان يقـول مـرّات عديـدة كلمتـه المحبّبـة وهـو غـافٍ. فهـل كان يفعـل ذلـك تخويفًـا للعصـاة مـن أهـل بيتـه، أم تعلّقًـا بعصـاه التـي باركهـا الشّـيخ، عندمـا طلـب إليـه زيارتـه بصحبتهـا بعـد تلـك الواقعـة المشـهودة مـع عائلتـه؟ لا يدّعـي أحـد مـن سـكّان المـزار الوصـول إلى إجابـة قاطعـة عـلى هـذه التّسـاؤلات، لكـنّ عفـاف الصّالـح روت وقائـع مـن لقـاءٍ قـال الشّـيخ حمـدان فيـه أنّ للعـصيّ دورهـا في الدّعـوات، مهـما سـمَت مـدارك أتباعهـا، وزعمـت أنّـه ثبّـت النّاطـور خـلال اللقـاء في لقـب «ذراع الهـادي»، قبـل أن يتأمّـل العصـا بإعجـاب ومـودّة وهـو يداعبهـا وينصحـه بالحفـاظ عليهـا لسـاعات الشّـدّة.

قالـت ابنـة المـزار: إنّ النّاطـور لم يفـارق عصـاه بعـد تلـك المقابلـة، وإنّـه شرع يعالـج بهـا كلّ مـا يعترضـه مـن أمـور أو يطـرح عليـه مـن قضايـا، فانهـال ذات مـرّة بعصـاه عـلى شـجرتي تـين وسـنديان تشـابكت أغصانهـما، كي تُقْلعـا عـن هـذه الحركات الموحيـة، التـي لـن يكـون لهـا مـكان في مـزار الـدّبّ، موطـن الفضيلـة ومسـقط رأس الشّـيخ حمـدان.

لم يتغيّر الناطور إلّا في علاقته بعصاه، عدا ذلك، فإنّه بقي ما كانه من قبل، رجل الهادي، الذي محض شيخه ثقته وسلّمه إرادته. وأيقن أنّ ما يصدر عنه هو قدسيّ منزّه، لا يحقّ له ولا لأمثاله الاعتراض عليه أو مناقشته، بل يجب عليه أن يكون تابعه ومؤيّده، يدافع عنه بالعصا، وينشر بها الحقّ. وللشّيخ الحقّ المطلق في فعل ما يراه ويريده.

لم يشعر النّاطور أنّ قرارات الشّيخ مسّت به أو وضعته أمام نفسه، كما حدث لأيّوب النّاعس، الذي ابتلته أفكاره بجربٍ لا شفاء منه، سبّبته شكوكه ووساوسه وأسئلته حول علاقته بالشّيخ، وبالدّعوة وبالقرارات القدسيّة. وقد قال النّاطور للنّاعس رأيه في أسباب مرضه العصيّ على الفهم، ونصحه أن يقصد الشّيخ نادمًا مستغفرًا، فقد يعفو عنه ويشفيه ممّا أصابه. إلّا أنّ النّاعس لم يأبه لأقواله، بل واصل تحسّس جسده بحثًا عن نفسه، التي طوّحت به إلى درب لم يجد في نفسه الجرأة لرفض السّير فيها، أو للاعتراض عليها فمنعه خرسُه المحيّر من إعلان تأييدها له، بينما كان النّاطور يصرخ به، كلّما رآه، مقترحًا عليه معالجة جربه الغامض بالعصا المباركة.

إذا كان ما حدث قد أغرق أيّوب في خرسه وألحق النّاطور بعصاه، فإنّه فكّ عقدة لسان الأستاذ نايف، فلم يتوقّف بعد ذلك تدفّق الكلام من فمه، الذي بقي مفتوحًا على الدّوام، تتدافع منه سيول الأقوال والآراء وتصدر منه أحكامٌ قطعيّة حول أيّ شيء وكلّ شيء. كان الأستاذ يبدأ حديثه من

نقطـة البدايــة، أي مــن نفســه، فيشــيد بهــا لكونهــا أوّل مــن كشـف معنـى قـدوم الهـادي إلى مـزار الـدّبّ، وأكـثر مـن تأثّـر به وتفاعـل معـه. لم يكـن نايـف يجـرأ بطبيعـة الحـال عـلى اعتبـار نفسـه جـزءًا مـن ظاهـرة الهـادي، ولم يـدّع أنّـه مهّـد لهـا أو بـشّر بهـا، خشـية أن تنـكأ القريـة جـراح ماضيـه، لذلـك كان يقـول في بدايـة أحاديثـه إنّـه أوّل صنيعـة للرّسـالة، ويؤكّـد في نهايتهـا أنّـه أكمـل صنائعهـا، وكان لا ينـأى عـن تكـرار أنّ انتشـار الرّسـالة في مـزار الـدّبّ هـو ببسـاطة نـشر لنموذجـه فيهـا وتأديب لسـكّانها. كان الأسـتاذ، كـما كان يصـف نفسـه عنـد الحديـث عـن ذاتـه، يقســم تاريخــه إلى قســمين منفصلــين تمامًــا، يطلــب إلى أهــل المـزار نسـيان وتجاهـل قسـمه الأوّل وتذكّـر القسـم الثّـاني وحده. وكان يقـول إنّ هـذا التّقسـيم يتّفـق وإرادة الهـادي، الـذي أعـاد خلقـه في القســم الثّــاني مــن حياتــه، معتــبرًا التّذكـير بفــترة مــا قبـل الهدايـة ضربًـا مـن الكفـر والضّـلال، غرضـه الحيلولـة بـين الهــادي وبــين إعــادة خلــق إنســان المــزار عــلى صــورة نايــف ومثالــه.

قـال الأسـتاذ مرّةً بانفعـال وتفاخـر: إذا كان النّاطـور ذراع الهادي، فأنـا نمـوذج الإنسـان المـزاريّ المهتـدي، و النمـوذج أكمـل مـن الـذّراع لأنّـه كلّي، بينـما الـذّراع جـزء صغـير وحسـب منـه، ثـمّ أضـاف غامـزًا بعينيـه الجاحظتـين والدامعتـين: أنتـم لا تـرون إلّا نايفًـا القديـم الـذي كنتـم تسـمّونه المفزلـك وترفضـون رؤيـة الأسـتاذ نايـف. تحنّـون إلى ابـن مـزار الـدّبّ الأفّـاق، وترفضـون

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

صنيعة الهادي المهتدي، فتخرجون على عقد الطّاعة الذي أبرمتموه مع الشّيخ في المغارة.

عندما كان الفتيان يسألونه مازحين عمّا تغيّر بعد الهداية فيه، كان يجيب: تغيّر كلّ شيء. المفزلك مات، قضى عليه الهادي، أو جبل طينته من جديد وأضاف إليها شيئًا من قدسيّته حين مسّه بأصابعها الطّاهرة، فكانت النّتيجة من ترونه أمامكم، داعية الشيخ وعبده: الأستاذ نايف، صنيعة الرّسالة الخالدة ومجسّدها في قريتكم.

هل شاب موقف القرية من نايف إعجاب خفيّ وصامت أم أملت تطوّرات حياة الأستاذ العاصفة والمفاجئة عليها حالة من الاستغراب بلغت حدود الاستهجان والاستنكار في بعض الأحيان وبعض المجالس؟ كان المعجبون بالأستاذ لا يفتؤون يتساءلون عن نوع الطّاقات الخارقة التي استخدمها شيخهم في تحويل رجل معلن الجنون، كانت القرية بأسرها تعرف عنه خجله وتأتآته، وغرقه في القذارة والكسل، إلى خطيب فصيح طليق اللسان، يعبّر عن أعقد أفكار شيخهم بأوضح الكلمات. حين كان القوم يعجزون عن إيجاد جواب على تساؤلاتهم، كانوا يعتبرون نايفًا واحدًا من معجزات الشّيخ، إن لم يكن معجزته الكبرى والوحيدة، ويرون فيه تجسيدًا حيًّا لقدرة الرّسالة، التي كثيرًا ما قالوا إنّها لن تعجز عن تغيير حياتهم، ما دامت قد أفلحت في شفاء جنون نايف المزمن، وما دامت قد فعلت ذلك علنًا وعلى مرأى من الجميع، يوم عرس الشّيخ وكلثوم. صحيح أنّ علامات الجنون

كانت تظهر بين فينة واخرى على الأستاذ، إلّا أنّ القوم كانوا يعتبرونها حصّته من علاقته بشيخه، بينما كانوا يرون في العبقرية المباغتة التي حلّت به تعبيرًا عن أثر الهادي عليه.

أمّا الذين كانوا يستغربون تحوّلات نايف، فكانوا يتساءلون لِمَ وقع اختيار الهادي عليه. ويقولون إنّ تحكيم مجنون سابق بقرية عاقلة قد لا يكون اختيارًا موفّقًا، وإنّهم يستغربون تدبير الهادي من باب الحرص على الرّسالة؛ وليس من قبيل الاعتراض عليه، وإن كان اختيار شيخهم يحزّ في نفوسهم، ويسيء إليهم، ويدّل على عدم الثقة بقدراتهم. حين كان أحدٌ ما ينبّه المستغربين، الذين كان عددهم يتناقص على كلّ حال، إلى ما في تساؤلاتهم من خطر، كان هؤلاء يسارعون إلى إعلان إيمانهم القاطع بما نزل عليهم، ويبدون موافقتهم حتّى على تنصيب مجنون سابق حكيمًا في قرية عاقلة، لإيمانهم أنّ هاديهم يتولّاهم برعايته، وأنّ هذه تجبّ العقابيل التي قد تنجم عن جنون نايف والمزار بأسره. كان المعجبون والمستغربون يتساءلون في نهاية كلّ سهرة: ما ضرّنا أن يكون نايف أو غير نايف ناطقًا باسم الشّيخ، ما دام هذا بيننا، يأخذ بيده المباركة مقاليد أمورنا، ويسوقنا إلى مستقبلنا بحكمته ونزاهته وقدسيّة ما يريده ويراه؟ بهذه التطمينات كانت أمسيات المزار تنتهي، وبها كانت القرية تذهب إلى النوم، وقد ختمت يومها بتأمّل وقبول المسألة المحيّرة، مسألة اختيار نايف دون غيره للعب الدور الثّاني في حمل أعباء الرّسالة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لـــم يطلـــب الشّـــيخ إلى

أعضـــاء المجلـــس إبـــلاغ أهـــالي المـــزار بقراراتـــه حـــول تنظيـــم حياتهـــم وعلاقاتهـــم. انتظـــر لـــيرى مـــا إذا كانـــوا ســـيبادرون إلى ذلـــك دون طلـــب، ومـــا إذا كانـــوا ســـيتهافتون عـــلى القـــوم كي يزفّـــوا لهـــم بشـــائر الخـــير الآتي. لكـــنّ الأعضـــاء لم يفعلـــوا شـــيئًا ولم يبـــادروا إلى شيء، بـــل ترقّبـــوا أن يبلّـــغ الشّـــيخ قراراتـــه إلى النّـــاس، إمّـــا بنفســـه أو بواســـطة نايـــف، كـــما جـــرت العـــادة. بعـــد أيّـــام مـــن الانتظـــار، في أعقـــاب انتشـــار الشّـــائعات المتضاربـــة حـــول مـــا دار في الاجتـــماع، اســـتدعى الهـــادي أعضـــاء المجلـــس كي يســـألهم تفســـيرًا لســـلوكهم. قـــال عـــاصي الخالـــد، أصغـــر أعضـــاء المجلـــس ســـنًّا: أنـــا لم أخـــبر المـــزار بالقـــرارات لأنّـــك لم تأمـــرني بإخبارهـــا. وقال آخـــر معتـــذرًا: أنـــا أخـــبرت أصدقـــائي وأقربـــائي فقـــط. وردّ ثالـــث: وأنـــا قلـــت لنفـــسي إنّ الأســـتاذ هـــو الـــذي ســـيخبر النـــاس بقـــرارات الهـــادي. ثـــار الأســـتاذ عندئـــذٍ، وشرع يعنّـــف هـــذا العضـــو ويقـــول إنّـــه لا يســـتطيع القيـــام بجميـــع الأعـــمال وحـــده، وإنّ التعـــاون شرط نجـــاح عمـــل المجلـــس. فـــإذا بالشّـــيخ يقاطعـــه مثمّنـــا امتنـــاع

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الأعضاء عن القيام بأيّ نشاط قبل صدور الأوامر إليهم. قال الشّيخ بعد هذا التّثمين إنّه لم يستدعهم ليعرف إن كانوا قد أبلغوا قراراته للمزار، بل للتأكّد من أنّهم لم يفعلوا ذلك. التفت نايف إلى الشّيخ وقد حيّرته إشادته بما كان يوشك أن يعتبره عصيانًا من أعضاء المجلس، فإذا بسيّده يحدّق به بدوره ويسأله: من الذي أدخل إلى رأسك الصّغير فكرة أنّ تعاون أعضاء المجلس هو شرط نجاح عمله؟ ألا تعلم أنّ وجود هاديكم هو سبب وشرط وجودكم كلّه، وأنّ نجاحكم رهنٌ بانصياعكم لأوامره وتقيّدكم بما يراه. اعلم إذن أنّني سأعاقب الذين أبلغوا السّكّان بقراراتي دون أوامر منّي، لأنّ تصرّفهم يعني أنّهم لم يتخلّصوا بعد من ذاتيّتهم المريضة، التي كانت تتحكّم بهم قبل الدعوة، والتي يعني الفشل في التصدّي لها والقضاء عليها فشل الدعوة برمّتها. ألم تفهم معنى قولي في خطبة المغارة: أنتم ما عدتم أنتم، وأنا ما عدت أنا؟ هل ترى له معنىً آخر سوى رضوخكم الكلّي لي، وتساويكم أمامي في الولاء والطّاعة، أنا الذي سيكون حرًّا في التصرّف بكم، ومن سيعيدكم إلى حالة العدم الأولى، كي ينسج منكم إنسان المزار المهتدي، الذي تبدأ الحياة الجديدة من الرّسالة التي فيه؛ منّي أنا الذي فيه، لأنّه بذاته خواء، وفراغ وعدم، وبي الكون كلّه.

كان الأستاذ يصمت وقد شحب لونه، وارتجفت شفتاه عندما التفت الشّيخ إلى عاصي الخالد وقال وهو يضع يده على

رأسـه: مبـاركٌ أنـت، لأنّـك نسـيت ذاتيتّـك، وتخلّصـت مـمّا علـق بنفسـك الماضيـة؛ ومبـاركٌ لأنّ سـلوكك يثبـت أنّ هاديـك قـد غـدا مركـز حياتـك وقراراتـك، وأنّـك ألقيـت بنفسـك عنـك، وأحللتـه محلّهـا في قلبـك وعقلـك. أراد نايـف أن يقـول شـيئًا يـبرّر بـه مـا صـدر عنـه، لكـنّ لسـانه لم يسـعفه وعقلـه لم يسـتجب لـه. اعتقـد أنّ هاديـه اسـتردّ منـه مـا كان قـد وهبـه إيّـاه، وخـاف أن يـردّه إلى حالـه القديـم. فكّـر بالنهـوض إلى حيـث يجلـس شـيخه، ليلقـي بنفسـه تحـت أقدامـه طالبًـا إليـه الغفـران، إلّا أنّ سـاقاه خذلتـاه بدورهـما. لأمـرٍ مـا، أطلـق الهـادي عقـدة لسـان الأسـتاذ فجـأةً، فصـاح ودموعـه تتهاطـل مـن عينيـه: أنـا عبـدك الهالـك فعاقبنـي كي أبـرأ مـمّا أنـا فيـه، ثـمّ سـكت. مـدّ الشّـيخ يـده إليـه؛ حرّكهـا في الهـواء قبالـة رأسـه دون أن يمسّـه، وقـال: لسـت عبـد الهـادي الهالـك. أنـت عبـد اللـه المهتـدي نايـف. لقـد صرتـم جميعكـم عبيـد اللـه المهتديـن، لذلـك سيسـمّي كل واحـد منكـم نفسـه منـذ اللحظـة عبـد اللـه المهتـدي. ثـمّ نظـر إلى أيّـوب وأضـاف: لـن يحمـل أيّـوب بعـد الآن الاسـم الـذي جـاء بـه إلى الهـدى، بـل سـيصير اسـمه عبـد اللـه المهتـدي أيّـوب. كذلـك سـيكون اسـم ابراهيـم النّاطـور، فصـاح هـذا دون أن يفهـم مـا يقولـه الشّـيخ: سـيقبل ابراهيـم الكلـب اسـمه المبـارك «بالعصـا». غمغـم أيّـوب اسـمه الرّسـالي دون أن يسـتطيع نطـق حروفـه، وكان عـلى وشـك أن يعيـد علـك اللقـب الجديـد في فمـه لـولا أن نهـره الشّـيخ متذمّـرًا: مـا إن اهتديـت حتـى

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

أصابـك الخـرس والجنـون. سـأل نايـف عندئـذٍ وقـد ردّه اسـمه إلى صوابـه: والقريـة يـا سـيّدي، مـاذا سـيكون اسـم سـكّانها؟ سـتبدأ جميـع الأسـماء بلقـب عبـد اللـه المهتـدي، يـا عبـد اللـه المهتـدي نايـف. صفّـق الأسـتاذ طربًـا وصـاح مبتهجًـا: يـا لـه مـن شيء رائـع. سـيصير جميـع أهـل القريـة عبيـدًا للـه مهتديـن، وسـتكون مسـاواتهم في لقبهـم شرط مسـاواتهم في حياتهـم، أليس هـذا رائعًـا؟ غمغـم أيّـوب لقبـه الطّويـل مـن جديـد غـير مكترث بملاحظـة الشّـيخ، ومـطّ غمغمتـه متلـذّذًا بكلماتـه، ولـولا أنْ نهره الأسـتاذ بحـدّة، لـكان كـرّر الغمغمـة مـرّات ومـرّات.

قـال الهـادي مواصـلًا مـا انقطـع مـن كلامـه: آمركـم بتذكـير أنفسـكم بلقبكـم الجديـد، مـا دمتـم مسـتيقظين. إن كنتـم في الحقـل قولـوا بـلا انقطـاع: أنـا عبـد اللـه المهتـدي مـوسى أو عيـسى أو مصطفـى. وإذا ذهبتـم في زيـارة لا تتوقّفـوا عـن تذكـير أنفسـكم بلقبكـم. وإن أنتـم قصدتـم القـرى المجـاورة سـلّيتم أنفسـكم بتكـراره دون توقّـف. جاهـروا بلقبكـم الإلهـي في نومكـم ويقظتكـم، وحَلّكـم وتَرحالكـم، وعنـد المـرض والسّـلامة، فأنتـم عبيـد اللـه مهتـدون وعبيـدٌ مهتـدون باللـه، هاديكـم المقيـم بينكـم، الماثـل فيكـم، وليّ أمركـم ونعمتكـم، صاحـب دنياكـم ودينكـم، ومخلّصكـم وشـفيعكم. كان الأعضـاء قـد بدؤوا يترنّمـون باللقـب، عندمـا أسـكتهم الشّـيخ قائـلًا: أمّـا أنـا فـإنّ لقبـي منـذ اللحظـة هـو الهـادي، دون أيّـة إضافـة اخـرى أو لقب آخـر. أبلغـوا المـزار أنّ لقـب الشّـيخ كان لمرحلـة بـدء الدّعـوة.

أمّا الآن، فهو دون حقيقتي، يوحي بأنّني بشر كغيري وما أنا ببشر، ويثير في الأذهان التباسًا دنيويًا أنا منزّه عنه، فأنا أنزه من الدنيا ومنزّه عنها. صرخ النّاطور عندئذٍ: سيقولون إنّك الهادي «بالعصا» فابتسم الهادي وقال: إذا اقتضى الأمر.

لم يتساءل أيٌّ من أعضاء المجلس حول الحكمة من اللقب الجديد. لقد أقنعهم ما قاله الأستاذ، وهو أنّ لقبهم المبارك سيعينهم على نسيان حقيقتهم، وأنّ نسيان حقيقتهم هو سبيلهم لنسيان أنفسهم، الذي هو شرط انتمائهم إلى الهادي. ومع أنّ نايفًا لم ير فيما أصاب أيّوب وأمّ ديب البصّارة علامةً إيمانيّةً وشكلًا من أشكال نسيان النّفس والهداية، فإنّه لم يستبعد أن تكون حكمة الهادي قد آثرت أن تتلبّس هذين البائسين وتفعل بهما ما حدث لهما، تحذيرًا للقرية وإنذارًا لأبنائها، فتكون قد حقّقت بهذه الطّريقة الفريدة ما تحقّقه عادة الخطى المفعمة بالإحسان واللطف، التي أخطأ العباد عندما درجوا على اعتبارها العلامات الوحيدة لرسالة الهادي والأشكال الحصريّة لرحمته.

لم يفكّر الأستاذ أيضًا بمصير عبلا وحسّان والجنيداتي وكلثوم، وبالحالة التي وصل إليها أحمد الصّالح، شيخ المزار قبل الدعوة، الذي انزوى في بيته لا يخرج منه، وأعلن أنّه يرى في ظهور حمدان علامةً قاطعةً على اقتراب يوم الحساب، وأنّه سيلزم بيته إلى يوم القيامة الذي غدا وشيكًا، وسيحجم عن قول أي شيء ليس الله ربّ العالمين محوره وموضوعه.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

أو ربّما ظنّ أنّ الأستاذ فكّر بهؤلاء بالطّريقة الفريدة التي تعلّمها من هاديه، واعتبرت الخارجين على الدّعوة عدم لن يمتلئ بالوجود، ما لم تمسّه ألطاف الهادي، أو تحلّ به نعم الهداية. وقد آمن الأستاذ إيمانًا صادقًا بضرورة وجود نماذج نقيضة للهادي ولرسالته، تظهر فيها لأعين المتّقين عقابيل الامتناع عن الانضمام إلى موكب الهدى، فيكون لها على العقول الفاسدة والنّفوس الحاقدة فعل سحريّ، ربّما عجزت حقيقة الرّسالة نفسها عن إحداثه في المراحل الأولى من انتشارها. هكذا كان الأستاذ يرى في حسّان وعبلا وأيّوب وكلثوم وأمّ ديب والشّيخ الصّالح نماذج سلبيةً أدّت دورًا إيجابيًا في نشر رسالة وقفت جهدها على الحيلولة دون نشرها. وكان يقول: إنّ هذه الظّاهرة هي أيضًا إحدى أعاجيب الهادي، الذي يجنّد بقوّته الخفيّة أعداءه لتحقيق الأهداف ذاتها التي يعمل لها أتباعه، فلا هم يفلتون من سلطانه، أو يفلحون في الخلاص من سطوته. بهذه الآراء أثار نايف الرّعب في قلوب أهالي المزار المؤمنة بالهادي، فكان يكرّر على مسامع القرية سؤالًا واحدًا: إذا كان السّير وراء الهادي قدر لا حيلة لنا فيه، فلماذا نستنكف عنه ونعرّض أنفسنا للهلاك دون جدوى؟ عندما كان أحدٌ ما يقول إنّ في هذا ظلم ما بعده ظلم، كان الأستاذ يجيبه: لكنّه فتح لك الطّريق إلى الخلاص بالانضمام إليه، وأعطاك حرّيّة ونعمة أن تكون تابعه، فممّ تشكو أيّها الجاحد؟

هل اختلفت نظرة المزار إلى ما جرى عن نظرة عبد الله

المهتدي الأستاذ نايف؟ لا مراء في أنّ أهاليها لاحظوا ما حصل منذ ظهر الهادي فيهم، واعتقدوا أنّ ما يجري لن يقف عند طرد حسّان وموت عبلا واضمحلال دور الشّيخ أحمد الصّالح وتغييب الجنيداتي وإطفاء روح كلثوم في المزار.

كان سكّان المزار يرزحون تحت ثقل الوعد القدسيّ الذي أتاهم هاديهم به، لكنّهم كانوا ينوؤن كذلك بثقل خبراتهم الكبيرة والصّغيرة، ويتذكّرون عبلا وكلثومًا والجنيداتي، الذي انقطعت أخباره عنهم تمامًا كأنّه مات منذ قرون أو كأنّه لم يعش من قبل في المزار. فكانت النسوة يتنهّدن تحسّرًا على الفتاتين. وكان الرّجال يشعرون بخجلٍ لا يفصحون عنه، عبّر عن نفسه في سائر تجلّيات حياتهم، التي كانت استجابتهم للدّعوة قد عقّدتها أيّما تعقيد، وحوّلتها إلى قلق معذّب سكنهم، مع أنّهم بدوا من الخارج متلهّفين إلى الجديد سعداء به.

مدفوعين بهذه الأفكار والخواطر، كان النّاس يقرّرون في أنفسهم وصْل ما انقطع مع الفتاتين والجنيداتي. فكان بعضهم يزور ضريح عبلا في الليل، ليضع شيئًا من الزّيت عليه، كي تباركه فيتحوّل إلى دواءٍ لأمراض أطفال المزار وشيوخها. وكان بعضهم الآخر يقصد كلثومًا المحتجبة، التي شاع في القرية أنّ السّقم يمتصّ روحها ويبدّد عافيتها، ويحوّلها إلى شبح هالك أمضّه مرض غامض لم يفلح الهادي نفسه في علاجه. فكانوا يرتدّون عن بابها حزانى لأنّها رفضت

مؤسسة دَار الجَدِيد
Dar al Jadeed

مقابلتهم؛ يبربرون بأدعيةٍ وضراعات ترجو الله أن يعيدها إلى ما كانته قبل زواجها.

غير أنّ حكايات كلثوم وأخبارها لم تغب عنهم تمامًا في الفترة التي تلت زواجها من الهادي. صحيح أنّها اختفت فجأةً من حياتهم اليوميّة، وانقذفت نحو زاوية عاتمة من علاقاتهم، فما عادت أعينهم تراها فيها، إلّا أنّ ماضيها كان ما يزال حيًّا فيهم، يمدّهم بقصصٍ لا نهاية لها ترنّمت النّسوة بها في الأماسي، ولهجنَ بها في طريقهنّ إلى نبع الماء والحقول. إلى أن اعتقد صبية المزار ويافعوها أنّ كلثومًا لم توجد البتّة في مزار الدّبّ، وأنّها من صنع ذاكرة قرية قرّرت أن تعيش على حكاياتها، وتستحضر ذاتها الماضية من خلالها. كان رجال المزار يذكرون بدورهم اسم كلثوم، إلّا أنّهم كانوا يفعلون ذلك بطريقة عابرة وسريعة، كأنّها لا تعنيهم أو كأنّهم لا يعرفون من تكون، ثمّ يتركون طيفها السّاحر يمرّ مرورًا عذبًا، بطيئًا وسرّيًّا، في خيالاتهم، ليستمتعوا في ذواتهم بما حرمهم الهادي من الاستمتاع به بأعينهم، وحرّم عليهم التحدّث عنه، بعد أن غدا جزءًا من حصاناته الخاصّة. ليس سرًّا أنّ الفتية سألوا آباءهم بصراحة إن كانت كلثوم قد عاشت في قريتهم، ثمّ استعلموا عن صفاتها وأوصافها، قبل أن يذهبوا للبحث عن آثارها في الصّخور والأشجار، فوق صفحة ماء النّبع وفي غناء الطّيور، واثقين أنّهم سيعثرون على ما قالت أحاديث المزار أنّه آثارها المنقوشة في كلّ مكان. وزاد من هوس الفتية أنّهم لم يعثروا بين نساء القرية على واحدة تشبهها ولو من

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بعيـد، فاسـتغربوا أن يكـون مـا يقـال عنهـا صحيحًـا أو قريبًـا مـن الحقيقـة، واعتقـدوا أنّهـا كانـت وهـمًا داعـب خواطـر أهلهـم البؤسـاء، أو نـورًا التمـع في سـماء القريـة قبـل أن يختفـي، تـاركًا آثـاره التـي لـن تمحوهـا الأيّـام.

بالمقابـل، لم يصـل إلى مسـامع سـكّان القريـة شيء يبهـج نفوسـهم حـول كلثـوم. كانـت المـرأة، حسـب الأخبـار القليلـة المتسرّبـة عنهـا، قـد غـيّرت عاداتهـا القديمـة تغيـيرًا تامًـا، فـما عـادت تلـفّ رأسـها بمنديـل حريـريّ مطـرّز يـبرز منـه وجههـا الجميـل، وخاصّـةً عينيهـا الفاتنتـين الضّاحكتـين، بـل أخفتـه منـذ وقـت طويـل تحـت منديـل أسـود نبقـت منـه عينـان ذابلتـان ذاويتـان، فقدتـا ذلـك الوهـج السّـاطع الـذي كان ينبعـث منهـما، وجعـل عجائـز المـزار يقلـن أنّهـا واحـدة مـن بنـات ملـوك الجـان الأزرق. قيـل أيضًـا أنّهـا أقلعـت عـن ارتـداء الثّيـاب المزركشـة واسـتبدلت بهـا ثيابًـا سـوداء بـرز مـن خلالهـا نحـول جسـدها واصفـرار وجههـا، ووشَـت بالتبـدّل الـذي أصابهـا وأدّى إلى إقلاعهـا عـن الضّحـك والتحـدّث بصـوت مـرح صاخـب، وعـن ضيـاع مـا كان لهـا مـن عفويّـة آسرة، كثـيرًا مـا طوّحـت بعقـول شـبّان وفتيـات المـزار جميعًـا.

كانـت عفـاف الصّالـح قـد غدت صديقـة كلثـوم المفضّلـة، تزورها مـن حـين لآخـر في بيتهـا، دون أن تفلـح في إقناعهـا بمرافقتهـا إلى النّبـع والذّهـاب معهـا إلى الحقـول والبيـادر. كـم حاولـت ابنـة الصّالـح سبر أغـوار كلثـوم! وكـم فشـلت في اسـتدراجها إلى الحديـث عـن نفسـها أو معرفـة مـا يـدور داخـل رأسـها!

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

كانت كلثوم تردّ على أسئلة صاحبتها بطريقة واحدة لا تحيد عنها، فتذكر عبلا في بداية أيّ حديث، مهما كان لونه أو طابعه، ثمّ تحمّل نفسها قسمًا من مسؤوليّة ما يجري، قبل أن تصمت بقيّة الوقت. حين كانت عفاف تطلب إليها الاهتمام بالدّنيا، كانت تردّ باختصار: يهتمّ بالدنيا من لم يأخذ حصّته منها بعد. وعندما تطلب رأيها بما يجري في المزار، كانت تجيب بإيجاز: تستحقّ المزار ما جرى وما سيجري لها. كانت عفاف الصّالح تصمت عندئذٍ بدورها، كي لا تسبّب لصاحبتها قدرًا من الأذى الرّوحيّ يفوق الأذى الشّديد الذي كان يظهر على وجهها وصوتها. هل ذكرت كلثوم حسّانًا الأشهب في يومٍ ما؟ كلّا، إنّها لم تفعل ذلك، لكنّها لم تستطع السّيطرة على انفعالاتها، فاحمرّ وجهها وتغيّر صوتها، عندما أخبرتها ابنة الصّالح بما يقال حول قرب عودته. سألتها عفاف إن كانت قد عرفت حسّانًا، فألقت بنظرة عاتبة إليها وابتسمت بحياء دون أن تجيب، تمنّت عفاف عندئذٍ أن تكون عودة حسّان قريبة، وقالت في نفسها إنّ كلثومًا القديمة لن تعود إلى ذاتها إلّا بعودة حسّان إلى القرية، فإذا بكلثوم تنظر إليها كأنّها قرأت ما راود الفتاة وقالت بلهجة قاطعة: بل إنّ مزار الدّبّ لن تعود إلى ذاتها إلّا متى رجع إليها الأشهب. قطعت كلامها فجأةً تحاول الإمساك بزمام لسانها، لكنّ رغبتها في الإفصاح عمّا في نفسها غلبتها، فأردفت: لو كانت عبلا بيننا، لهانت الأمور علينا.

صمتت برهـةً ثـمّ سـألت بدورهـا عفافًـا إن كانـت تعـرف مـن يكـون حسّـان الأشـهب، وأضافـت دون انتظـار إجابـة الفتـاة: بـدأت المـزار حياتهـا الجديـدة بالتخـلّي عـن حسّـان، وكرّسـتها بالتخـلّي عـن عبـلا، وقطعـت صِلاتهـا بماضيهـا بالتخـلّي عـن غيرهـما. سـألتها عفـاف: مـن هـم هـؤلاء الذيـن تخلّـت المـزار عنهـم؟ فلـم تجـب. كانـت كلثـوم قـد عـادت إلى صمتهـا مـن جديـد، دون أن تفلـح في السّـيطرة عـلى دموعهـا التـي سـالت ببـطءٍ فـوق خدّيهـا، بعـد أن احتبسـت في عينيهـا منـذ وقـت طويـل.

كان رجـال مـزار الـدّبّ قـد تناسـوا أمّ ديـب البصّـارة أيضًـا، العجـوز التـي علقـت بلسـانها جملـة واحـدة تتـضرّع فيهـا إلى الهـادي أن يعفـو عنهـا.

كانـت أمّ ديـب سـيّدة نسـاء المـزار بلا منـازع، قبـل أن تعتكف في بيتهـا لا تفارقـه بسـبب الجملـة التـي تسـلّطت عليهـا. الحقيقـة أنّ المـرأة لم تسـجن نفسـها في بيتهـا منـذ الأيّـام الأولى لمأسـاتها، فقـد حاولـت إعانـة بنـات جنسـها في القريـة، كـما كانـت تفعـل في سـابقات الأيّـام، آن كانـت تسـاعدهنّ عـلى تزويـج أنفسـهنّ، بـأن تكتـب لهـنّ حجابـات تليّن قلـب الحجـر، تدسّـها بيدهـا في طعـام الطّرائـد، كـما كانت تسـمّي الرّجـال، وتضعهـا في مخدّاتهم وفرشـاتهم وحتّـى في سراويلهـم. كانـت النّسـوة يحبـبنّ أمّ ديـب أشـدّ الحـبّ، لأنّهـا قطعـت دابـر العنوسـة في المـزار، وأكرهـت رجـال القريـة عـلى الـزّواج مـن نسـائها دون غيرهـنّ. ووجـدت

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لـكلّ امـرأة، مهـما كانـت درجـة قبحهـا، العريـس الـذي تترصّـده. ولـو لم يقيّـض اللـه للقريـة هاديًـا يخلّصهـا بطريقتـه العجيبـة مـن البصّـارة، لكانـت بطشـت برجـال القريـة أشـدّ البطـش، وروّعتهـم أفظـع ترويـع، ولأكرهتهـم بالتّأكيـد عـلى الـزّواج ممّـن أرادت، بعـد أن عرّضـت عمـر الأحـدب لمـا لا يحتملـه إنسـان، حـين رفـض الـزّواج مـن سـهيلا الحـولاء، فدسّـت لـه جنـاح غـراب تحـت إبطـه نـام الليـل بطولـه وهـو يفعـل فعلـه فيـه. حـين نهـض الشّـاب في اليـوم التّـالي مـن فراشـه، كانـت رائحـة بولـه قـد دفعـت بأمّـه وأبيـه وإخوتـه إلى الفـرار مـن منزلهـم، وكان قـد بـدأ يكـرّر بـلا انقطـاع جملـةً لم يفهـم هـو معناهـا ولم يتذكّـر أيـن تعلّمهـا تقـول: «مشـت المـي يـا سـهيلا مشـت المي». كان لسـان الفتـى يلفـظ هـذه الكلـمات الغامضـة، فيجـري المـاء بـين سـاقيه كالنّهـر. وقـد بقـي عـلى هـذه الحـال إلى أن أعلـن أبـوه موافقتـه عـلى الـزّواج مـن الحـولاء، ففكّـت أمّ ديـب رصـد الغـراب عنـه، وإن التصـق بـه لقـب «مشـت المـي» إلى أن نـسي النـاس اسـمه الحقيقـي. هكـذا جعلتـه البصّـارة عـبرة للرّجـال، فأخـذ هـؤلاء يتقاطـرون إلى بيتهـا، ليدفعـوا لهـا نقـدًا وعينًـا مـا أسـمته «بـدل ذمّـة»، كي تـرقّ لحالهـم، فـلا تزوّجهـم بمـن تشـاء سـاعة تشـاء.

تنـاسى رجـال القريـة البصّـارة، لأنّ الهـادي كـفّ يدهـا عنهـم وأوقعهـا في ورطـةٍ لم تقـم لهـا بعدهـا قائمـة. بينـما أقامـت النّسـوة عـلى ذكرهـا والترحّـم عـلى أيّامهـا، عندمـا كانـت كلمـة

واحـدة منهـا كافيـةً لتزويـج أبشـع مخلوقـات اللـه مـن أجمـل وأقـوى الرّجـال، وكانـت والقبيحـات مـن نسـاء القريـة يجثمـن كالكابـوس عـلى صـدور رجالهـا أجمعـين.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لـو كانـت روايــة هــذه

الأحــداث تتبـع تسلســلها التاريخــيّ، لكانــت روايتــه توقّفــت هنــا، ولقــال ســامعوها إنّهــا ناقصــة ومحــيّرة. لكــنّ اللــه يلطــف بعبــاده ويــرقّ لحالهــم، لمــا يــراه فيهــم مــن ضعــف فطرهــم عليــه، فيمــدّ يــده لحظــات الاضطــراب الكــبرى أو بعدهــا بقليــل لمســاعدتهم ولإنقاذهــم مــن كوابيــس يتعرّضــون لهــا فــلا يعرفــون لهــا تفســيراً أو يســتطيعون الخــلاص منهــا بمفردهــم. ولــولا لطــف اللــه أو الهــادي لــكان مــن المحــال مواصلــة هــذه الحكايــة، ولتوقّفــت روايتهــا في النّقطــة الميتــة التــي بلغتهــا المــزار ذات يوم، دون أن تعــرف لهــا ســبباً. فقــد أشرقــت الشّــمس عــلى القريــة، فــإذا بأهلهــا يقّــاظ لا يتذكّــرون إن كانــوا قــد ذهبــوا إلى النّــوم في تلــك الليلــة. بــل إنّهــم لم يتذكّــروا أيّ شيء عــلى الإطــلاق، بــدءاً بأســمائهم وانتهــاءً بــأيّ شيء يمــسّ ماضيهــم وحاضرهــم. تطلّــع القــوم حولهــم ليجــدوا أناســاً لا يعرفونهــم ولم يســبق لهــم أن رأوهــم، فاســتغربوا الأمــر وعاجلوهــم بالسّــؤال: مــن أنتــم، ومــاذا تفعلــون في هــذا المــكان؟ كان الأب يطــرح هــذا الســؤال عــلى

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

زوجتـه وأبنائـه وإخوتـه وأمّـه وكان الولـد يطرحـه عـلى أبيـه وأمّـه وإخوتـه وأعمامـه، وكان الجميـع يطرحونـه عـلى الجميـع، لأنّ أحـدًا في مـزار الـدّبّ لم يسـتطع تذكّـر مـن يكـون أو التعـرّف عـلى بيتـه وأهلـه وأبنـاء قريتـه. لم يسـأل أحـد مـا إذا كان قـد مـسّ المـزار جنـون ظهـرت أعراضـه في السّـابق عـلى كثيريـن مـن أبنائهـا. ولم ينتبـه أحـد إلى الحالـة المحـيّرة التـي وجـدت القريـة نفسـها فيهـا بـين ليلـة وضحاهـا.

تـرى، مـن الـذي كان سـينتبه إلى مـا في الوضـع الجديـد مـن مفارقـة، إذا كان جميـع مـن في المـزار قـد فقـدوا ذاكرتهـم دون أيّ مقدّمـات، عـدا نايـف والنّاطـور وعـاصي الخالـد وعـدد قليـل مـن أعضـاء مجلـس الألفـة؟ كيـف يعـرف سـكّان المـزار أنّهـم مـا عـادوا في وضعهـم الطبيعـيّ، وهـم الذيـن انتقلـوا بـين ليلـةٍ وضحاهـا مـن حالـة قديمـة إلى حالـة جديـدة، وكانـت لديهـم جميعهـم ذاكـرة في الحالـة القديمـة خسروهـا في الحالـة الجديـدة؟ لـو أنّ أحـدًا منهـم نجـا مـن الظّاهـرة المحـيّرة، لكانـوا قالـوا فيـما بعـد، عندمـا سـيقيّض لذاكرتهـم أن تعـود إليهـم، أنّ أشـخاصًا غـير طبيعيـين اندسّـوا بينهـم، لذلـك لم يطرحـوا عـلى الآخريـن أو عـلى أنفسـهم السّـؤال المحـيّر حـول هويّتهـم. لكـنّ أحـدًا لم ينـج في المـزار، بـدءًا مـن ذلـك الصّبـاح الغامـض. كان المـزاريّ يسـأل أيّ شـخص يصادفـه: مـن أنـت ومـن أنـا، ومـاذا تفعـل هنـا، وبيـت مـن هـذا... الـخ؟ فـكان يتلقّـى جوابًـا واحـدًا في كلّ الحـالات: مـن أنـت، ومـن أنـا، ومـاذا تفعـل هنا...الـخ؟ لم

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

يلاحظ المزاريّون ما أصابهم، فقبلوا هذا التّقليص الذي ردّ حياتهم إلى فكرة واحدة تجسّدت في السّؤال عن هويّتهم، وهو سؤال البداية في كلّ حياة، فهل كان المزاريّون يبدؤون حياةً جديدةً أم كانوا يضعون حدًّا لحياتهم السّابقة؟ ذلك مالا يعرفه وما لن يعرفه مزاريّ إلى نهاية الأيّام.

فيما بعد، قال الأستاذ نايف، أحد القلائل الذين أعفاهم الهادي من الدّاء الذي أصاب القرية: إنّ أيّام «من أنا، ومن أنت» كانت أغرب ما حصل في حياته من أحداث وأعاجيب، وإنّه والنّاطور وعاصي الخالد، والغريب مرشد مجلس الإلفة وسكّان المزار وهم يسعون إلى أفضل طريقة لزراعة وجرد التّبغ، قد أصابهم الملل لسماع العبارة الاستفهاميّة القصيرة، التي نسي القوم ما عداها، وانطلقوا يكرّرونها كالببّغاوات. روى الأستاذ أيضًا أنّ أمّ ديب البصّارة، التي نسيت بدورها كلّ شيء عن نفسها وشرعت تسأل من تصادفه: «من أنا، ومن أنت»؟ لم تفلح في نسيان الجملة التي تطلب فيها من الهادي العفو عنها، والتي يبدو أنّه لم يعفِها من تكرارها.

كان أهالي المزار لا يتذكّرون شيئًا من ماضيهم، كأنّ يدًا ما طوّحت بهم قبل ثوان معدودات إلى الحياة في هذا الجرد الصخريّ الأخضر، الذي يسمّونه مزار الدّبّ. أو كأنّهم لم يجدوا بعد ما يبدؤون به حياتهم، فجلسوا تركبهم الحيرة وتشلّ عقولهم، لأنّهم لا يعرفون شيئًا عن الدّنيا وعن أنفسهم. أمضى المزاريّون المساء الأوّل لليوم الأوّل لضياع

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

هويّتهم بطريقة طبيعيّة، فتكوّموا في زوايا بيوتهم العاتمة حول المواقد التي بقيت بلا نار، وجلسوا كعادتهم وهم يفركون بأصابع أيديهم أصابع أقدامهم أو يداعبون ذقونهم، أو يعلكون أطراف شواربهم ولحاهم بأطراف أفواههم، أو يمدّون أيديهم إلى جيوبهم فيخرجون منها أشياء لا يعرفون ما هي كعلب التّبغ والسبحات والقدّاحات التي كانوا في الماضي يقدحونها بحصاة خاصّة إلى أن تصدر شرارة تشعل فتيلًا يشعلون بدورهم سجائرهم منه. صحيح أنّ الرّجال لم يسألوا نساءهم وأولادهم من يكونون، وأنّ هؤلاء لم يسألوا بعضهم بدورهم سؤال الصّباح المتواتر، إلّا أنّ الاستغراب كان سيّد الموقف، إذ استغرب كلّ إنسان وجود الآخرين إلى جانبه ومعه، واستغرب وجوده حيث هو. هل نسي المزاريّون حقًا كلّ شيء؟ إذا كانوا قد نسوا ما كان في رؤوسهم، فلماذا إذن سارعوا إلى العمل في حقول مجلس الإلفة، قبل أن يقصدوا حقولهم الخاصّة في جمعيّة المزار، وينتقلوا من هناك إلى البيادر الكبرى الغربيّة، حيث تناولوا غداءً موحّدًا في صحون جماعيّة كبيرة، بينما ألقى الأستاذ نايف عليهم درسًا توجيهيًّا حول ما قرّره لهم الهادي وحول الحكمة الكامنة فيه؟ هل ساقتهم يد الهادي إلى ما قاموا به دون أوامر أو إرشادات من أحد؟ وهل انغرست إرادته فيهم إلى درجةٍ تتجاوز التذكّر والنّسيان، وتستقلّ عنهم وعن ذاكرتهم وحاجاتهم، وتدفعهم كطبيعة بديلة إلى القيام بالتصرّفات

العفويّة والمنظّمة التي كانت تدفعهم إليها في السّابق طبيعتهم الأصليّة التي فطرهم الله عليها؟ لا يدري أحد لهذه الأسئلة جوابًا. كلّ ما نعرفه أنّ المزاريّين كانوا يقصدون حقول المجلس قبل شروق الشّمس، فيعملون لساعات قبل أن يتّجهوا إلى حقول الجمعيّة، فالبيادر الغربيّة، فالحقول من جديد، فالبيادر، التي كانوا يعرفون الدروب المفضية إليها دون إرشادٍ من أحد، فيجتمعون فيها إلى أن يقودهم النّاطور منها إلى بيوتهم، التي نسوا مواقعها تمامًا، بعد أن يوزّع عليهم تعليمات العمل، التي كانوا يأتون قبل فجر اليوم التّالي إلى الحقول وهم يتذكّرونها حرفيًا.

لم يكن أحد من أهالي المزار يعترض على التّعليمات التي ينقلها إليهم النّاطور، بل إنّ أحدًا منهم لم يفهمها، مع أنّها كانت تنطبع في نفسه كأنّها نقشت فيها نقشًا. هل يعود موقفهم هذا إلى الظّروف الخاصّة التي كانوا يمرّون بها؟ دون أدنى شكّ، فلولا هذه الظروف، لما قبلت جملو السّامر أن يلعب أبناؤها مع أولاد حميدة الخليل في مكانٍ واحد. ولولاها أيضًا لقامت السّاعة بين نساء العوض والحرق، اللواتي كثيرًا ما اشتبكنَ في عراكات حامية، شددْن خلالها شعور بعضهنّ على نبع الماء وفي الطّرقات، بعد أن نشب بينهن ذات مرّة عراك رهيب حول بلّانة قطعتها إحدى بنات العوض، واستولت عليها إحدى فتيات الحرق، فما كان من الأولى إلّا أن ضربتها بالفرّاعة على أنفها فقصّته، بينما كانت

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

استغاثاتها تستنفر أسرتها التي هبّت لنجدتها في معركة قتل فيها خمسة رجال وامرأة، وكسرت ساق حمار بيت العوض، الذي كان يعرف أبناء بيت الحرق واحدًا واحدًا، ويكنّ لهم حقدًا أسودَ لا يقلّ عن حقد أصحابه عليهم، والذي لم يقصّر في لبطهم عندما كانت تتاح له الفرصة، وهو ما أجّج بدوره نيران المعارك المتّصلة بين العائلتين، حتى إنّ المزار أسمت إحدى الوقعات الدّامية بين أبناء وبنات ورجال ونساء وحلفاء الأسرتين «معركة الحمار». لكنّ حكمة الهادي شاءت لهم أن ينسوا من يكونون، فلم يعرفوا إن كانت هذه المرأة زوجتهم أو أمّهم، أو أنّها فلانة التي قالت عنهم كذا وكيت بالأمس القريب. وأنّ هذا الصّغير هو طفلهم المحبّب، الذي لم يكونوا يسمحون له بالجلوس على حصيرة واحدة مع ابن حامد الوحش، اللّصّ الذي يسرق الزيت المبارك عن قبر عبلا ليشتري بثمنه تتنًا من قريةٍ سخطها الله فأسموها المخروبة، وعَرَقًا من القرية الأخرى التي اسمها العامرة. وما عساهم يقولون وقد سهّل الهادي أمورهم ومحا ذواتهم، لتصبح أنفسهم صفحةً بيضاء ينقش عليها ما يشاء من طباع وأفكار وعادات؟ لقد جعلهم النّسيان يقبلون التّرتيب الذي رآه لهم الهادي، ويتّخذون موقف الرّاضي إزاء عصا النّاطور، التي تسوقهم إلى حقول المجلس وأراضي الجمعيّة والبيادر الغربيّة، حيث تأمرهم أن يقتعدوا الأرض رجالًا ونساءً حول صحون كبيرة، فيأكلون ويستمعون إلى ما قيل

لهم إنّه توجيه من سلسلة توجيهات يوميّة، سيلقيها عليهم مندوب المجلس الأستاذ نايف في أوقات طعامهم الميّتة، فلا يضيّعون وقت العمل الذي يجب اعتباره وقتًا مقدّسًا.

تحدّث نايف في التّوجيه الأوّل شارحًا الحكمة من ضياع أسماء المزاريّين من ذاكرتهم، وأشاد بهذه الخطوة الإلهيّة المحكمة، التي تلغي مبدأ «اعرف نفسك»؛ المبدأ الأنانيّ الذي خرّب حياتهم وحياة بني البشر، ليحلّ محلّه مبدأ «انسَ نفسك» الذي يسمو بالنّفس إلى درجة نسيانها.

إنّ مبدأ «انس نفسك»، الذي قرّرتم بالأمس تبنّيه وشرعتم تطبّقونه لتوّكم، يتّفق ورغبة هاديكم مثلما يتّفق ونمط حياتكم الجديد. وهو الذي يبارك يومكم هذا فتوغلون خلاله في نسيان أنفسٍ ورثتموها عن عصرٍ قبل عصره، تستحقّ أقصى النّسيان وأشدّه، لكونها احتملت العيش دون أن تكتشف هاديها بداخلها أو تعلم أنّه كان ينسى نفسه عندما كان يحجم عن تذكيرها بذاته وهو كامنٌ فيها. سمع النّاطور أقوال نايف الغامضة، فهمَ أنّ شيئًا ما أصاب الهادي، فصاح متفجّعًا: هل نسي الهادي اسمه أيضًا؟ ارتبك الأستاذ للسّؤال المباغت، إلّا أنّه سرعان ما تمالك نفسه وواصل حديثه: لذلك يجب اعتبار هذا اليوم فاصلًا في وجودكم، وبداية عهد جديد تقطعونه للهادي، يتجاوز معناه أشخاصكم وقريتكم، أساسه تسليم حقيقتكم البشريّة لمن سيقودكم إلى جنّة ستجري أنهارها من لبن وعسل تحت أقدامكم في أقرب

الآماد، فلا تبحثوا بعد يومنا هذا عن أنفسكم في أنفسكم، فأنتم لن تجدوا فيها أحدًا سوى الهادي، حقيقتها الأزليّة المغيّبة عن عيونكم بأضاليل معرفة النّفس، مع أنّ نفوسكم ليست لكم ومع أنّكم لن تستطيعوا معرفتها، أنتم عبيد الهادي المهتدون، الذين تمنّع عن كشف نفسه لكم، لأنّكم أردتم معرفته وهي من معرفة الله، ولأنّه ما كان ليسمح بسقوطكم بين براثن كفر يحول بينه وبين تخليصكم من حالكم برسالته، التي عرف منذ الخليقة أنّها ستنزل فيكم، لتنسيكم أنفسكم وتعرفونه. هل فهمتم الآن لماذا كرّمكم الهادي بالنّسيان؟ ولماذا يجب أن يكون مطمحكم منذ اللحظة وإلى أبد الدّهر نسيان أنفسكم لمعرفته؟ كانوا يقولون للواحد منكم: «اعرف نفسك»، فكان يظنّ الأمر بسيطًا، ويعتقد لسذاجته أنّ ما قالوه هو ما يطلبونه إليه. لكنّهم كانوا يرمون إلى إخفاء الحقيقة عنه، وهي أنّه بمعرفته نفسه سيجهل هاديه الذي هو داخله. بينما يقول الهادي لك اليوم: «انس نفسك»، إذا أردت أن تتعرّف إليّ فيها وفيك وتعرف أنّني أنا أنت وإن جهلت ذاتك؛ وأنّني كنت فيك منذ الأزل وسأبقى فيك إلى الأبد، وإنّ إعلاني عن نفسي فيك من خلال نسيان ذاتك هو علامة اندماجك بي، الذي يمحوك من الوجود محوًا، فلا يبقى فيك منك سوى إرادتي ووجودي، ولا تكون لك البتّة من قيمة إلّا القيمة التي أضعها فيك كمخلوق عامل يؤمن بي.

كان الآكلـون يرفعـون رؤوسـهم باتّجـاه الأسـتاذ مـن حـين لآخـر، غـير آبهـين لشروحـه المعمّقـة عـن أحوالهـم، كان مـا يقولـه يرتطـم بصفحـات نفوسـهم الخارجيّـة فيقفـز فوقهـا قبـل أن يغـرق فيهـا، مثلـما يرتطـم الحجـر بصفحـة الماء فيتقافـز فوقهـا قبـل أن يغـوص فيهـا. وقـد أسـف الأسـتاذ كثـيرًا لأنّ أحـدًا لم يطـرح عليـه سـؤالًا مـا، مثلـما كان يحـدث في الأيّـام الخـوالي، عندمـا كان يشـارك في نـشر الدّعـوة ويمهّـد لخطـب وأحاديـث الهـادي بأحاديـثَ وخطـبٍ مطوّلـة كخطـاب المغـارة. ولـولا خوفـه أن يصـل كلامـه محرّفًـا إلى آذان الهـادي، لألمـح إلى أنّ وضعهـم القديـم كان أنسـب للخطابـة مـن وضعهـم الجديـد، وإلى أنّـه يجـد صعوبـةً في شرح أفـكاره لهـم، لأنّهـم بنسـيانهم مـن يكونـون يفقـدون القـدرة عـلى فهـم مـا يريـده الهـادي لهـم ومنهـم، وهـذا أمـرٌ يتعـارض في نظـره مـع الرّسـالة ويلحـق الـضّرر بهـا.

لم يقـل الأسـتاذ شـيئًا مـن هـذا بالطبـع، ولم ينفعـل سـامعوه بمـا خطـر لـه، كـما لم ينفعلـوا منـذ لحظـات بمـا قالـه بصوتـه الجهـير، فلـم يجـد بـدًّا مـن إكـمال مـا أوعـز الهـادي بـه إليـه، فأضـاف: عرّفتكـم معجـزة النّسـيان الـذي أصابكـم عـلى حقيقتكـم، فـإذا بكـم خـواء يملـؤه الهـادي بذاتـه. اعلمـوا الآن أنّ إرادتـه فيكـم سـتتحوّل إلى طاقـة عمـلٍ لا ينقطـع، وأنّ قصـد الرسـالة هـو تحويلكـم إلى كائنـاتٍ تجـد في العمـل معنـى حياتهـا الأرضيّـة، وتعتـبره دينهـا الدنيـويّ الوحيـد. تنـام وهـي تحلـم بـه وتفيـق

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

متشـوّقةً إليـه، لا تـأكل مـا دام لديهـا مـا تعملـه، ولا تـشرب إذا كان إرواء عطشــها ســيقطع عملهــا. لا تتذمّــر ولا تضجــر مــن العمـل القـاسي، مـا دامـت القسـوة مـع النّفـس اختبـارًا لإيمانهـا. لا تريــح ذاتهــا أو ترحمهــا، إن هــي زيّنــت لهــا فكــرة القعــود عـن العمـل، أو وسوسـت لهـا بمحاسـن الرّاحـة والكسـل. العمـل ثـمّ العمـل ثـمّ العمـل. هـذه هـي وصيّـة الهـادي، وهـذا هـو معنـى حياتكـم وغـرض إيمانكـم، فـلا تتوقّفـوا عـن العمـل لأيّ سـبب. عالجـوا أمراضكـم بالعمـل، وتصـدّوا لمـا يحـلّ بكـم مـن مصائـب بالعمـل، وقولـوا مـا اسـتطاعت ألسـنتكم: اللّهـم، أنـا عبـدك المهتـدي أطلـب إليـك إعطـائي القـوّة لإنجـاز مـا أكلّـف بـه مـن أعـمال في أرض المجلـس أو الجمعيّـة، فـلا تخيّـب رجـائي. اللّهـم إنّي بعـت الدّنيـا بطاعـة هاديـك، فامنحنـي القـدرة عـلى تنفيـذ مـا يكلّفنـي بـه مـن أعـمال، واجعلنـي عبـدًا للعمـل كـما جعلتنـي عبـدًا لـه ولرسـالته. توقّـف نايـف ينفعـل بمـا قالـه، ثـمّ أطلـق صيحـةً قـال فيهـا: مـن لا يؤمـن لا يـأكل، ومـن لا يعمـل لا يـأكل، لأنّ مـن لا يؤمـن بالعمـل لا ديـن لـه في شرعنـا.

لم يصفّـق أحـد للأسـتاذ ولم يكـترث أحـد لانفعالـه. ولم يضحـك أو يسـخر أحـد منـه، بـل واصـل المزاريّـون اجـترار طعامهـم وتأمّلـه، كأنّهـم في بلـدٍ غـير المـزار يلقـي عليهـم رجـلٌ لا يعرفونـه خطبـةً بلغـةٍ لا يعرفونهـا أو يفهمـون منهـا شـيئًا. كان الأسـتاذ يسـتغرب بـدوره سـلوكهم، ويتمنّـى لـو عاودهـم وعيهـم محمّـلًا برسـالة الهـادي دون غيرهـا. وكان يثـير عجبـه تدبـير الهـادي المقتـدر.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الـذي يأمـر قريـةً كاملـةً أن تفقـد ذاكرتهـا، مـع أنّـه كان قـادرًا عـلى أمرهـا بنسـيان مـا تعرفـه ويمـلء ذاكرتهـا بالدّعـوة وحدهـا. أوشـك أن يلقـي، لـولا أن سـتر اللـه، هـذا السـؤال عـلى القـوم، وكاد أن يحـاول الإجابـة عليـه. لكنّـه سرعـان مـا غـيّر الموضـوع وقـد اقشـعرّ بدنـه، بعـد أن رأى نفسـه وهـي توشـك أن تسـقط في هاويـة الكفـر المفزعـة. بلـع ريقـه ولعـن الشّـيطان في سرّه، وقـال: تعلمـون أيّهـا الأحبّـة أنّ لـكلّ زمـان دورة، وأنّ دورة زمانكـم الجديـد بـدأت بنـزول الرّسـالة، التـي طهّرتكـم مـن خطاياكـم إلى درجـةٍ نسـيتم معهـا مـن تكونـون، وسـتنتهي بعودتكـم إلى أنفسـكم، ولكـن بعـد أن يكتمـل تطهّرهـا بالعمـل وتصبـح نفوسًـا مهتديـةً، تنفـر مـن ذواتهـا وأسـمائها القديمـة وترفـض التعـرّف عليهـا. اعلمـوا الآن أنّ الهـادي سـيهبكم أسـماءكم الجديـدة وذواتكـم المهتديـة بقـدر مـا سـتفلحون في أعمالكـم وإيمانكـم، وأنّ معيـار الإيمـان الوحيـد سـيكون عملكـم. فـلا يلومـنّ أحدكـم إلّا نفسـه وكسـله، إن هـو بقـي غائبًـا عـن ذاتـه لفـترة طويلـة؛ ولا يأملـنّ أحـد منكـم في نفسـه شـفيعًا سـوى عملـه؛ دينـه الجديـد ومـبرّر وجـوده. اعملـوا إذن لاكتسـاب هويّتكـم الجديـدة؛ واعملـوا فالعمـل بـاب خلاصكـم، متـى اجتزتمـوه دخلتـم الجنّـة التـي وعـد الهـادي بهـا المؤمنـين مـن عبـاده.

اعلمـوا أيضًـا أنّ اسـتجابتكم لإرادة الهـادي في نسـيان أسـمائكم وأراضيكـم وأطفالكـم ونسـائكم هـي أوّل علامـة مـن علامـات

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

خلاصكم، فقد أنكرتم على أنفسكم ما أنكره هاديكم عليها، وهذه تضحية تؤهّل كلّ واحد منكم للتحوّل إلى إنسان المزار المهتدي، الذي لا يعرف أناه، ويعيش للمجموع الذي يعيش بدوره له.

ما إن أنهى الأستاذ خطابه، حتى هبّ العشرات يسأله كل واحد منهم: من أنت، ومن أنا؟ خيّل للأستاذ أنّ جهده ضاع سدًى، وأنّ المزار لم تفهم الرّسالة التي نقلها إليها، فقرّر أن يطلب إلى هاديه تقصير فترة هذا الاختبار الذي يبلو به أتباعه. تعالى عندئذٍ صوت سيّده يقرّعه.

التفت إلى الآخرين معتقدًا أنّهم سمعوا الصوت المجلجل، فإذا هم في غفلةٍ عن أيّ شيء. نظر إلى النّاطور، فرآه يقتعد صخرةً قريبةً، وقد أمال رأسه فوق عنقه وأوشك أن يغفو. أدرك لحظتها أنّه اقترف إثمًا عظيمًا. وقد تبيّن في سيل الكلمات الذي كان يتدفّق على اللسان المبارك كلمة زنديق. سارع إلى تينة حيّة السودا، التي كان يأتيه الصوت منها، ارتمى على ركبتيه وقال بضراعةٍ: أنا عبدك الذّليل وأداتك الطيّعة. ردّ الصوت: بل إنّك زنديق.

[صفحة ناقصة]

...بهـا شيءٌ انقـضّ عليـه مـن السّـماء الصّافيـة، ثـمّ قـال النّاطـور متألمًـا: هـذا غـير جائـز، هـذا غـير جائـز. كان قـد شرع يـرى بعـين خيالـه صغـرى بناتـه سـلمى و هــي تتلـوّى تحــت فهــد الــكاسر، الــذي أعــاد الهــادي إليــه وعيـه ليسـتغلّ غفلـة الفتـاة و يقتادهـا إلى خربـة الخـال، حيـث راح يتلـذّذ دون أن تقاومـه. رفـع يديـه يغطّـي بهـما وجهـه كي لا تـرى عينـاه مـا تقـع عليـه عـين خيالـه. بعـد قليـل انطلـق يعـدو كالمجنــون نحــو بيــت الهــادي، وهــو يــصرخ: نســاؤنا...بناتنا... أعراضنــا... حريمنــا... بناتنــا... فهــد الــكاسر.

عندمـا دقّ بـاب منـزل الهـادي كان مـا يـزال يـصرخ. فتـح لـه أحدهـم، فحـرّك يديـه مشـيرًا إلى خربـة الخـال، دون أن يسـعفه لسـانه بكلمـة. سـأله الآخـر عـمّا بـه طالبًـا إليـه تهدئـة روعـه، فأطلــق غمغــمات مبهمــة خرجــت مــن أســفل صــدره. قــال الرّجـل عندئـذٍ مخاطبًـا أحـدًا مـا داخـل البيـت: إنّـه رجـلٌ لا أعرفـه؛ مجنـون يهـذي بيديـه وعينيـه وحـركات فمـه ويتصبّـب عرقًـا مـن رأسـه إلى أخمـص قدميـه.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

جاء الهادي إلى مدخل البيت. مدّ يده باتّجاه جبين النّاطور دون أن يمسّه وسأله إن كانت عائشة الزّاهر قد صدّته عنها، ولماذا يخشى فهد الكاسر، ويحجم عن تأديبه بعصاه؟ أراد النّاطور أن يقول شيئًا، فأشار الهادي إلى المزار وقال بصوتٍ وادعٍ: أنت ذراع الهادي ونايف لسانه والمزار لكما، فافعلا بها ما تريانه.

عاد إلى بيت الأستاذ، فوجده ينتظره على مقربة منه. كانت المزار تحتهما تمامًا، وقد تناثر سكّانها في الحقول بين مجرى النّهر وأسفل الجبل يعملون بدأبهم المعهود. قال الأستاذ: هي ذي المزار تحت قدميك، فماذا تريد أن تفعل بها؟ أجاب النّاطور: عائشة وفهد هي للفراش وهو للقبر. قال صوت الهادي: ليكن ما تريد. سأل الأستاذ: وسلمى؟ قال وقد اضطرمت عواطفه الأبويّة: نزوّجها من سلطان الحسن. قال الصّوت: هي له رغم أنّه لا يريدها. سأل الأستاذ: وأنا، ماذا تعطيني؟ قال النّاطور: عفاف الصّالح، أترضيك عفاف ابنة التقيّ الورع الشّيخ أحمد الصّالح؟ ردّ الأستاذ: من الذي لا ترضيه ابنة الصّالح؟ قاطعه الصّوت: بل ستتزوّج من وضحة، ابنة النّاطور الأرملة لتكون بينكما وحدة لا تفصمها الأيّام. وعفاف؟ سأل الأستاذ: أتعطيني إيّاها زوجةً ثانية؟ قال صوت الهادي: عفاف لن تتزوّج أبدًا. سأل نايف الصّوت: والمزار، أيّها المقدّس، ماذا نفعل بها؟ أجاب الصّوت: لن نفعل بها شيئًا بل سنفعل لها كلّ شيء. المزار

مـكان رسـالتنا ومسـقط وحيِنـا وموطننـا. لـذا سـنجعلها جنّـة المؤمنـين، بعـد أن نطهّـر نفـوس آهليهـا مـمّا فيهـا مـن أدران المـاضي ونغسـل قلوبهـم مـن مشـاعر الحسـد والطّمـع، ونسـاوي بينهـم فـلا يعـرف أحـد منهـم بعـد ذلـك مـا لـه مـمّا لسـواه، ولا يشـتهي أحـد منهـم مـا لغـيره لأنّـه سـيكون لـه، ولا يتطلّـع مـزاريّ إلى مـا بـين يـدي غـيره إلّا وكأنّـه بـين يديـه، فتصـير المـزار بيتًـا واحـدًا وأرضًـا واحـدةً وأسرةً واحـدةً، ويدخـلّ المـزاريّ إلى أيّ بيـت كأنّـه يدخـل إلى بيتـه، وينـام في أيّ سريـر كـما ينـام في سريـره، ويكـون مـا لرجـل المـزار لنسـائها ومـا لنسـائها لرجالهـا، ويصبـح كلّ واحـد مـن أطفالهـا ابنًـا لـكلّ مـن فيهـا.

ومتى سترجع المزار إلى ذاتها أيّها المقدّس؟

لـن تعـود أبـدًا إلى ذاتهـا إن كنـت تعنـي ذاتهـا القديمـة، بـل هـي سـتوغل في نسـيان مـا كانتـه بقـدر مـا تتمكّـن الدّعـوة الجديـدة منهـا، ويشـتدّ إيمانهـا بهـا. لقـد ماتـت المـزار القديمـة إلى الأبـد، وليـس النّسـيان الـذي أصابهـا إلّا شـكل موتهـا وعلامتـه، وشـكل رحمتـي ودليلهـا.

كيف ذلك أيّها الهادي؟ سأله نايف الخائف.

كـم فكّـرت بإبـادة إنسـان المـزار كـما أبـدت مـن قبـل عـاد وثمـود وقـوم لـوط! لكـنّ الرحمـة أخذتنـي بـه، فقـرّرت أن يكون في النّسـيان موتـه وحياتـه، وأن ينبعـث إنسـان الهدايـة الجديـد مـن هـذا المـوت النّسـيانيّ الـذي يحـوّل أجسـاد المزاريـيّن إلى

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

أوعية فارغة أملؤها بالدّعوة، دون أن أسمح لها بالعودة إلى نفوسها ولنفوسها بأن تعود إليها في أيّ يوم. اعلم، أيّها العبد نايف، أنّ الهداية هي إيغالك في الابتعاد عن ذاتك، وإلّا كان موتك هو البديل لنسيانك. فهل تبيّنت الآن رحمتي؟ إنّ المزار تنسى في يومنا هذا ذاتها، وسينسى أبناؤها غدًا ما كان لهم من أموال وأملاك ونساء، وسيكرّسون أنفسهم للعمل ويرون فيه دين الدنيا وناموس الأرض وحقيقتهم. عندئذٍ ستعود المزار إلى وعيها بالعمل، ليكون وحده في وعيها. عندما ستبلغ المزار هذه الدّرجة من الإشراق العمليّ، فإنّها ستبدأ بالتقدّم نحو ذات جديدة سيكتسبها المشرفون على العمل، فالمزاريّون الأكثر تفانيًا وإخلاصًا، فأبناؤهم وبناتهم وزوجاتهم، إلى أن يكتمل الانتقال ويكتسب جميع المؤمنين نفوسًا جديدةً بأسماء جديدة، وينسون ما كانوا عليه من فطرةٍ في سابقات الأيّام.

هل ستكون شروط إقامة مجتمع المزار السّعيد قد اكتملت ساعتئذٍ، أيّها المقدّس؟

ردّ الصوت حانقًا: لِمَ أنت نافذ الصّبر قليل الأناة، يا عبد الهادي نايف؟ أتعتقد أنّك بلغت والنّاطور والعاصي مرحلة من الكمال تؤهّلك لأن تكون من خدم الدّعوة؟ إلّا فاعلم إذًا، أيّها المهتدي بالهادي، أنّك ستتغيّر كسواك، وأنّه لم يصبك ما أصاب غيرك لأنّك بين يدي هاديك، يصوغك بالطّريقة التي تحلو له، ويظهر فيك أنّت الصّاحي، ما سيظهره في

غـيرك مـن عبـاده الغافلـين، فتكـون كغـيرك آيـةً عـلى كليّـة قدرتـه وتماميّـة رسـالته. أتعتقـد أنّ نايفًـا القديـم سـيبقى، وأنّـه سـيحافظ عـلى اسـمه القديـم؟ كلّا، لـن يبقـى، بـل سـيتغيّر بتغـيّر روحـه، التـي سـتضلّ سـواء السّـبيل إن هـي أكرهـت عـلى ارتـداء اسـمها القديـم.

وماذا ستكون أسماؤنا يا مولاي؟

لم أخـتر أسـماءكم المسـتقبلية بعـد، وإن كانـت سـتبدأ جميعهـا باسـم عبـد الهـادي عوضًـا عـن عبـد اللـه المهتـدي، الـذي أعدّكـم لمرحلـة النّسـيان التـي تمـرّون فيهـا بنجـاح وطاعـة.

سـأل الناطـور نايفًـا إن كان القـوم سـيتذكّرون شـيئًا مـمّا جـرى لهـم خـلال غيابهـم، فـردّ الصّـوت، أنّهـم نيـام، غـير أنّهـم ليسـوا كغيرهـم مـن النّيـام؛ فقـد أخـذت منهـم أحلامهـم، ذاكـرة النّائمين التـي بهـا يفكّـرون. هـؤلاء الذيـن تراهـم نيـام بـلا أحـلام يقـاظ بـلا ذاكـرة، ولـن يتذكّـروا شـيئًا مـن هـذه المرحلـة الفاصلـة في حياتهـم وفي الدّعـوة.

لماذا يا مولاي؟

لأنّنـا لـو سـمحنا لهـم بتذكّـر شيء مـن المـزار السّـابقة، لكانـت الرّسـالة بـلا قيمـة أو معنـى، ولارتـدّت المـزار عـلى ذاتهـا متـى شـاءت. هـذا إن نحـن نجحنـا في جعلهـا تغادرهـا أصـلًا.

تنهّـد نايـف وسـأل صاحبـه: أفهمـت الآن مراحـل العمـل الـذي علينـا القيـام بـه؟

قـال الصّـوت: لم نبلّغكـما رسـالتنا كلّهـا بعـد، فاسـتمعا إلى مـا

يقال لكما وناقشاه في نفسيكما، فنجاحكما سيتوقّف على رعايتنا لكما وعلى حسن استيعابكما لما يقال. قال الرّجلان: ظننا أنّك أكملت رسالتك وانصرفت عنّا، لا سمح الله، أيّها الصّوت المبارك. أجاب الصّوت متسائلًا: أتعتقدون أنّ المزاريّين سيبقون دون ذاكرة إلى الأبد؟

بمشيئتك يا مولاي، قال النّاطور. ردّ الصّوت: من تؤخذ منهم ذاكرتهم يفكّرون بأحلامهم. خيّل لهما أنّ الصّوت يحدّق بهما، عندما تناهى إليهما سؤاله: هل فهمتما ما أعنيه؟ هل فهمت يا عبد الهادي نايف ما أقوله لك؟ أجاب نايف: نعم فهمت. ستمنع أهالي المزار أن يحلموا.

لماذا، أيّها المقدّس، لا تأخذ منهم قدرتهم على الحلم كما حرمتهم قدرتهم على التفكير والتّذكّر؟

من المحال حرمان المزار من قدرتها على الحلم. الأفكار تصنع وتعطى يا عبد الهادي. أمّا الأحلام فهي لا تصنع ولا تعطى، وإنّما تنبثق من داخل الرّوح.

هل سنحظّر جميع أحلام المزاريّين، يا سيّدي؟

سنحظّر أحلامهم التي تنبثق من أرواحهم. لن نترك لهم القدرة على صنع أحلام خاصّة بهم. هل فهمتما الآن معنى تغييب المزار عن ذاكرتها، مستودع أحلامها؟

يقولون يا مولاي إنّ الخطر على الإنسان يأتي من أعماله.

هذا جهل وضلال، يا عبد الهادي. خطر إنسان المزار يأتي

مـن أحلامـه التـي تصنـع أفـكاره وآمالـه. إذا كان المـزاريّ قـد نـسي مـن يكـون، فلكيـلا يحلـم أو يفكّـر.

قـال نايـف: فهمـت الآن مهمّتـي، وإن كنـت لا أعـرف بعـد كيف سـأتحكم بأحـلام قريـةٍ بـلا ذاكـرة أو وعي.

ردّ الصّـوت: أعطهـا أفـكارًا تنسـيها قدرتهـا عـلى صنـع أحلامهـا وأقنعهـا أن أفـكارك هـي أحلامهـا.

ومـاذا نفعـل إذا أخفـى مـزاريّ أفـكاره الحقيقيّـة وحلُـم أحلامًـا محظـورة؟

سـنراقب أحلامهـم يـا عبـد الهـادي، سـنراقب أحلامهـم. لـن نتركهـم لأنفسـهم تفعـل بهـم مـا تشـاء.

سـأل نايـف بصـوتٍ واهٍ:لم لا تمنـع المزاريـيّن مـن الحلـم، أيّهـا الهـادي، مـا دمـت قـادرًا عـلى التحكّـم بأفكارهـم وأحلامهـم وأفعالهـم؟

أجـاب الهـادي: أعلـم أنّنـي أعـرف مـا يـدور في رؤوس الخلـق في اليقظـة والنّـوم، وأنّنـي أقـرأ أحلامهـم قبـل أن تحصـل. وأنّكـم لـن تسـتطيعوا الإفـلات مـن كليّـة حضـوري بعـد اليـوم، فأنـا سـأقف بينكـم وبـين أنفسـكم في كلّ حـين. لكنّنـي أترككـم تحلمـون بقدرتكـم عـلى استرداد أنفسـكم كي أحاسـبكم، يـا عبـد الهـادي.

قـال نايـف ضارعًـا:لا تحاسـبني أنـا، أيّهـا الهـادي، فأنا مؤمن أشـدّ الإيمـان بمـا تقـول، ولـديّ آلاف الأدلّـة عليـه مـن حيـاتي ذاتهـا،

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

فأنت تعرف الأشياء قبل حدوثها، وتوجّهها إلى حيث تريد، أو تمنع حدوثها إن شئت. قال الصّوت: سينضمّ المتقدّمون إلى ذاتهم إلى جمعيّة تؤسّسها اسمها «جمعيّة رعاية الأحلام» تسهر على منع أحلام المزاريّين، وتنشر بدلًا عنها أحلام الرّسالة، وسيتولّى عبد الهادي النّاطور تنفيذ أوامري بحقّ الحالمين من أبناء المزار.

وماذا ستفعل هذه الجمعيّة يا مولاي؟

ستروي للمزاريّين أحلامًا لم تسمع أو تحلم بها قرية أخرى، سيشارك فيها جميع أبناء المزار.

وكيف سترى قرية كاملة الحلم ذاته، يا مولاي؟

يحلم أبناؤها وهم أيقاظ. إنّ أحلام اليقظة هي الأحلام الوحيدة التي تناسب الرّسالات الكبرى.

وكيف نتحكّم بأحلام اليقظة؟ سأل نايف.

قال الهادي: أجبت على هذا السّؤال عندما طلبت إليك تزويد المزار بأفكارك. ألم أخبرك أنّ النّاس يصنعون الأحلام التي توافق واقعهم وأفكارهم، وأنّ المزار نسيت واقعها بنسيان ذاتها، ولم يبقَ لها من طريقٍ نحو ماضيها سوى أحلامها. تحكّم بأحلام قريتك تتحكّم بأفكارها. أتعلم كيف ستتحكّم بأحلام المزاريّين؟

أخبرتني منذ قليل يا مولاي. أنشر بينهم أحلام اليقظة أو أدفعهم إلى صنع أحلام يقظتهم بأنفسهم، وهذا أفضل الحلول، كما أرى.

سـأل عبـد الهـادي النّاطـور إن كان الهـادي سـيلغي حيـاة أتباعـه الخاصّة؟

طبعًـا. أجـاب الصّـوت. إنّ الحيـاة الخاصّـة تتعـارض مـع وجـود الجماعـة الإيمانيـة المهتديـة وتقـع خارجهـا. عندمـا قلـت إنّ الواحـد للـكلّ، والـكلّ للواحـد، كنـت أنكـر وجـود الواحـد إلّا مـن خـلال الـكلّ، وأرى أنّ الـكلّ يجـب أن يكـون للواحـد، لأنّ هـذا لا يسـتطيع شـيئًا لنفسـه بمفـرده. إنّ الفرديّـة لا تسـتقيم مـع الرّسـالة، وإنّ هـلاك الـذّات المزاريّـة هـو شرط تحقّـق الذّات الإلهيّـة في المـزار. اعلمـوا أنّ ذات المـزاريّ تضعـه خـارج قبضـة خالقـه وتغـذّي فيـه حلـم تحدّيـه، بينـما الجماعـة المزاريّـة هـي ركيـزة الدّعـوة وشرط نجاحهـا.

كيف نعرف أنّ ذات المزاريّ قد ألغيت، أيّها المقدّس؟

مـن سـلوكه يـا عبـد الهـادي، ومـن الأخبـار التـي سـتصلنا عنـه وعـن حركاتـه وسـكناته. إنّ الإشراف عـلى حيـاة المزاريّين سـيكون شـأنًا مـن شـؤون «جمعيّـة رعايـة الأحـلام»، التـي سـتعتبر كلّ بيـتٍ في المـزار فرعًـا لهـا، وكل مـزاريّ عضـوًا فيهـا. والتـي سـتطلب إلى المـزاريّ تقديـم تقريـرٍ لهـا عـن حياتـه، قبـل توجّهـه في الصّبـاح إلى العمـل في أرض المجلـس، يعـترف فيـه بمـا راوده مـن أفـكار وعـنّ لـه مـن خواطـر، لتعاونـوه في القضـاء عـلى ذاتـه ومحوهـا مـن نفسـه محـوًا. ستتسـاءلان الآن عـن السّـبل التـي سـنعرف بهـا مـا قـد يخفيـه المزاريّـون عنّـا مـن أفـكار

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

وأحلام ممنوعة. لن نقدّم لكما الإجابة عن هذا السّؤال، كي لا نحمّلكما أكثر ممّا تحتمله طاقتكما البشريّة المحدودة، لكنّنا سنعمد إلى إبلاغكما بوقائع العالم الخفيّ لكلّ فردٍ في المزار. بل إنّ الجمعيّة لن تبدأ عملها إلّا بعد أن نُظْهِر في هذه القريّة قدراتنا التي لا حدود لها، والتي ستخترق، بعون الهادي، الحجب وتكشف المخبوء أينما كان، ومهما كان الشّكل الذي يتلبّسه.

كان الخوف قد أخذ بقلبي التابعيَن المخلصَين، فصمتا وقد كادت أنفاسهما تتوقّف. لم يجرأ أيّ منهما على طرح مزيد من الأسئلة، ولم يأت بحركةٍ خشية افتضاح ما أصابه من ذعر وقلق بسبب المهمّة الموكولة إليه.

قال الصّوت عندئذٍ:لم أكمل رسالتي إليكما، وها أنتما تصابان بالخوف، فهل قرّرتما مواجهة المزار بالخوف؟ أجابه النّاطور وكأنّه يطمئن نفسه: بل «بالعصا». قال الصّوت: وبالعقل. بعصاك وعقل عبد الهادي نايف وبتدبير هاديكم الربّاني المحكم قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء. قال نايف إنّه متشوّق للعمل، وإنّ دقّات قلبه ليست علامة خوف بل دليل إيمان وعزم. حذّره الصّوت آمرًا: لا تقل هذه الترّهات لمن يعرفك أكثر ممّا تعرف نفسك، لمن انتقاك وأعاد صياغتك حتى كاد المزاريّون لا يعرفون من أنت.

قال نايف معتذرًا: خفت ألّا أكون قادرًا على حمل ما

حمّلتني إيّاه. فرد الصّوت: خوفك في محلّه، فأنت لست قادرًا بالفعل على حمل المهمّة التي أوكلتها إليك. لكنّك ستحرّك بعوني وتأييدي الجبال، مهما كانت قدراتك الجسديّة محدودة وطاقاتك العقليّة قليلة. ألا تعلم، أيّها الشّقيّ، أنّك مجرّد أداة من أدوات هاديك، وأنّك لا تساوي شيئًا بدونه؟

أجاب نايف بخشوع: نفسي فداك لأنّها لك ومنك.

قال الصّوت مواصلًا ما قطعته الأسئلة من شروح:لن ينفذ أحد إلى المزار إلّا من ماضيها، بعد أن أخذ هاديكم حاضرها ومستقبلها بيده. ولن تتقدّم المزار إلى ذاتها الإيمانيّة ما دامت ترتبط برابطةٍ ما مع هذا الماضي. فهل تعرفان كيف يمكن للقرية أن ترتدّ إلى ما كانت فيه من ضلالة؟ قال التابعان بصوت واحد: من خلال حكايات عجائزها الخرفات اللواتي يروين القصص القديمة، ومن خلال نوادر شيوخها الذين يعيشون على الماضي.

سرّ الصّوت للإجابة وأخبر تابعيه أنّ الصّواب جانبهما. فالعجائز لن يذكرنَ حكاياتهنّ ما حيينَ، وسيبقى الشّيوخ غارقين إلى نهاية أيّامهم في غفلة النّسيان. قال نايف: ستعود القرية إلى ضلالاتها من خلال أعيادها وعاداتها ومزاراتها.

علّق الصّوت: صدقت، هذا باب للضّلال عليكما إغلاقه كي لا يلج المهتدون منه إلى جهنّم. قال نايف بصوت مرح: تستطيع جمعيّة رعاية الأحلام منع المزاريّين من زيارة

المـزارات والمقابـر والاحتفـال بأعيادهـم القديمـة. أضـاف الصّوت: زيـارات المـزارات حـرام. كلّ مـن يـزور مـزارًا يخـرج عـلى الدّعـوة ويسـتحقّ العقـاب.

سأل النّاطور: بما في ذلك مزار عبلا؟

قـال الصّوت:خاصّـةً مـزار عبـلا، الـذي يجـب عـلى جمعيتّكـم هدمـه وجعلـه أثـرًا بعـد عـين. سـأل الناطـور مجـدّدًا إن كان ثمّـة أعيـاد خاصّـة بالدّعـوة، فأجـاب الصّـوت بأنـاة: سـيكون هنـاك عيـد المغـارة وعيـد إعـلان الرّسـالة في المغـارة وعيـد المجلـس وعيـد الأرض والعمـل وعيـد جمعيّـة رعايـة الأحـلام.

أضـاف نايـف ضارعًا:وستسـمح لنـا بالاحتفـال بيـوم ظهـورك المبـارك فينـا كعيـد للتجـلّي والنّجـاة. قـال الصّـوت: سنسـمح لكم بإقامـة عيـد لنجاتكـم. تسـاءل النّاطـور إن كانـت المـزار سـتبقى مفتوحـة الأبـواب أمـام الغربـاء، ردّ الصّـوت: سـنغلقها إلى أن تـبرأ مـن ذاتهـا وتهتـدي إلى نفسـها، وسـتكون عصـاك مسـؤولةً عـن هـشّ الغربـاء عنهـا. اسـتفهم نايـف إن كان أبنـاء القريـة السّـابقون يعـدّون مـن الغربـاء؟ ثـمّ ذكـر اسـم حسّـان الأشـهب، فقـال الصّـوت بنـبرةٍ أقـرب إلى الـصّراخ: سـيمنعه النّاطـور مـن دخـول المـزار مهـما كانـت ذريعـة عودتـه، فـإن عـاد إليهـا بعـد طـرده منهـا كان دمـه حـلالًا «لجمعيـة رعايـة الأحـلام». صمـت التّابعـان مـن جديـد، فقـال الصّـوت: لمـاذا لم تسـألا عـن كلثـوم. لم يجبـه الرّجـلان، فاخبرهـما أنّ الأشـخاص مهـما علـت منزلتهـم

مؤسسة دَارالجَـديْد
Dar al Jadeed

يبقَون أدنى قيمةً من الدّعوة، وأنّ إحجامهما عن طرح أسئلة حول كلثوم هو دليل ضعف إيمانيّ خطير، وأنّه سيسكت عن هذه السّابقة وحدها، ولن يسمح لهما بتكرارها مهما حصل. قال نايف: ظننّا أنّها تحت أنظارك وأنّك تتولّاها بالرّعاية. ردّ الصّوت: ليست كلثوم من عالم المزار القديم، بل هي هذا العالم نفسه. وهي لن تعود إلى ذاكرتها لأنّها لم تفقدها. ليس لكلثوم من علاج سوى مسحها من حياتكم وذاكرتكم ودفنها في النّسيان، إلى أن يرى هاديكم لها تدبيرًا نهائيًا وشيكًا؛ هي التي ستعيش المزار فيها إلى ما بعد انقضاء ماضيها، وستقاومكم إلى أن تقنعكم بعبثيّة هدايتكم ودوام زمانها. احذروا كلثومًا في كلّ عملٍ من أعمالكم، وضعوا اسمها في ذاكرة جمعيّتكم إلى الأبد، لأنّها جعلت من نفسها دهر المزار الذي لا ينقضي وحقيقتها التي لا تزول. سكت الصّوت حانقًا، فقال نايف: لقد آمنت دومًا أنّ كلثومًا كالأفعى. أضاف الهادي وقد تَجسَّدَ بين تابعيه: لن ننتصر على المزار ما لم نقهر كلثومًا، ولن ترتفع للدّعوة راية، إذا لم ننجح في كسبها إلى جانبنا أو إزالتها من لاوعي المزاريّين. تأمّل الهادي تابعيه بنظرةٍ خالطها الأسى، وقال مطلقًا من صدره زفرةً حارقةً: ليست كلثوم شخصًا بعينه. إنّها طبيعة المزار وذاكرتها، وهي سرّ بقائها وسببه، فهل تعتقدون أنّ بوسعكم قهرها في معركةٍ واحدةٍ؟ كاد النّاطور أن يطلق صيحته، فمنعه الهادي هامسًا: لا تنفع عصاك معها، يا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عبد الهادي إبراهيم، فهي كائن سرابيّ يصعب تحديد مكانه وأبعاده، كما أنّها لا توجد دومًا حيث يوجد جسدها، الذي كثيرًا ما يكون مجرّد واحدة من تجلّياتها. قال نايف: هل أتجرّأ وأسألك إن كانت تشبهك؟ ردّ الهادي: إنّها تشبهني كما تشبه العين الأخرى، مع أنّها نقيضي. لذا فإنّ لها من القوّة مالي، وبها من عجائبيّة ما بي، وفي إهابها ما في إهابي من كلّيّة وشمول.

أحسّ التابعان بصعوبة العمل الذي ينتظرهما، وفهما للمرّة الأولى حجم معاناة هاديهما وكبر العقبات التي تعترضه ورسالته. عرف الهادي ما دار في رأسيهما، فوضع يديه على كتفيهما وقال مشجّعًا: لقد غلب هاديكم أعدادًا لا حصر لها من الأبالسة والشّياطين قبل أن يلبس رداءه الآدميّ، فمن تكون كلثوم في النّهاية، وما هي قوّتها إذا قيست بقوة الشّيطان الأكبر، الذي عاركه هاديكم مليون مليون سنة، قبل أن يفلح في التغلّب عليه والإفلات منه والنّزول إليكم؟ خرّ النّاطور ساجدًا وقد أخافه ذكر الشّياطين، وتساءل في نفسه إن كان عليه أن يخوض بعصاه الضّعيفة معارك مماثلة ضد شياطين المزار. ضحك الهادي وقال منتشيًا: ليس في المزار من شيطان سوى كلثوم، وقد أعفيتكم للتوّ من العراك معها، فلا تخف وأقلع عن الارتجاف. سأل نايف الهادي:أمن أجل هذه الرّسالة خلقتنا يا مولاي، وهل خضنا بدورنا معارك ضد شياطين ما قبل أن نلبس رداءنا الآدميّ

الراهن؟.أجـاب الهـادي:لم تخوضـوا أيّـة معـارك قبـل بلوغكـم الحيـاة الدّنيـا، وإن كنتـم قـد خلقتكـم لتكونـوا أدوات لهاديكـم، تفعلـون مـا يكلّفكـم بـه. ليـس كلّ مخلـوق عـدوًّا للشّـيطان، يـا عبـد الهـادي، بـل إنّ معظـم المخلوقـات شـيطانيّة، كـما تظهـر لـك مراقبتـك لمخلوقـات مـزار الـدّبّ. لا يعـارك الشّـيطان قبـل الحيـاة إلّا أصحـاب القداسـات. ولا يقهـره منهـم سـوى الآلهـة. فالشّـيطان ليـس خصـمًا سـهلًا، وقـد جنـدل آلافًـا كثـيرةً مـن الملائكـة أو قهرهـا. ولـولا الخـوف عليكـم لأمـرت أعـدادًا هائلـةً منهـا بالظّهـور لأعينكـم الآدميّـة، حرّرتهـا في السّـماء الرّابعـة، حيـث كان الشّـيطان الأكـبر يحتجزهـا في سـجن بحجم السّـموات والأرض ويجبرهـا عـلى السّـجود لـه وعبادتـه. أمّـا أنتـم فإنّكـم لم تخلقـوا لمحاربـة الشّـياطين بـل لعبـادة الهـادي، ولا يجـوز لكـم قهـر أيّ شـيطان سـوى الشّـيطان الكامـن فيكـم.

أَمِـنَ الحتمـيّ أن تكـون أحـلام المـزار خارجـةً عـن الدّعـوة، يـا مـولاي؟ سـأل النّاطـور الحائر.مـا دامـت فطـرة المـزار باقيـة، فـإنّ أحلامهـا سـتكون ضـدّ الدّعوة.ومـا الغـرض مـن السّـيطرة عـلى أحلامهـا، أيّهـا الهـادي؟ اسـتفسر نايـف. السّـيطرة عـلى روحهـا، مركـز طبيعتهـا وفطرتهـا. لـن تلقـي المـزار بنفسـها بـين يدينـا، إن لم نحتـلّ روحهـا مـن الدّاخـل ونصوغهـا بمـا يخـدم الرّسـالة.

دخـل الهـادي في الحالـة التـي كانـت تنتابـه عنـد اللحظـات الكـبرى مـن نـشر الدّعـوة، فـمال نايـف عليـه كعادتـه في مثـل هـذه الأحـوال يسـمع همـس شـفاهه. قالـت الشّـفاه للأسـتاذ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بعـد أن تعـذّر عليـه فهـم أصواتهـا الأولى؛ لـن تتطهّـر نفـوس المزاريّـين بإرادتهـا، ولـن تفـارق خطاياهـا بمحـض رغبتهـا. فقـد علّمتهـا كلثـوم معانـدة الهدايـة ومقاومـة الحـقّ، لذلـك سـتجبر «جمعيّـة رعايـة الأحـلام «أهـالي المـزار عـلى نشـدان السّـعادة إجبـارًا، ولـن تـترك لهـم أو للمصادفـات تقريـر مـا لا حـقّ لهـم في تقريـره. قاطعـه نايـف متسـائلًا: هـل سـتكفي طاقـاتي وطاقـات عبـد الهـادي النّاطـور لإنجـاز هـذا كلّـه يـا مـولاي؟

أنتـما مـا عدتمـا نايفًـا والنّاطـور، يـا عبـد الهـادي. أنتـما تتّصـلان الآن بي بأربطـةٍ لا تراهـا عيونكـما، سـتكفل النجـاح لمسـعاكما. لسـتما عـلى كلّ حـال مـن سـيأمر المزاريّـين بكتابـة تقاريـر عـن أنفسـهم للجمعيّـة. أنـا الـذي سـآمرهم بذلـك. إنّ كل مـزاريّ سـيكتب تسـعين اعترافًـا خـلال الأشـهر الثّلاثـة الأولى مـن نفيـه عـن ذاكرتـه، قبـل أن يـردّ عـن غربتـه. قـال النّاطـور عندئـذٍ كأنّـه يعنّـف نايفًـا: وسيكشـف الهـادي لنـا المخبـوء في القلـوب، فـماذا تخـشى؟

تلعثـم الأسـتاذ. أربكـه هجـوم النّاطـور المباغـت، فقال إنّ أسـئلته اسـتفهاميّة غرضهـا إيضـاح الأمـور للنّاطـور، لأنّـه يعـرف هـو شـخصيًّا أجوبتهـا منـذ وقـت طويـل، فهـو صفـيُّ الهادي وعشـيره وحامـل أمانتـه وعـارف أسراره. كان النّاطـور قـد شرع يعتـذر لنايـف، عندمـا أردف الصّـوت: سـتعّد الجمعيّـة قائمـةً بأسـماء جميـع المزاريّـين دون اسـتثناء لتقـرّر لـكلّ منهـم أصدقـاءه ومعارفـه، ونـوع الأفـكار الـذي يلائمـه، وطبيعـة الأحـلام التـي

مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

ستراوده، ومساحة الأرض التي عليه زراعتها، ونوع الطّعام الذي سيحبّه والثّياب التي ستعجبه، ويوم مولد أولاده وعدد الصّبية والبنات فيهم، ومكان سكنه وطوله ووزنه ولون عينيه وشعره. سأل نايف: لم لا نطلب إلى المزاريّين كتابة تقارير يصفون فيها دخائلهم وأشكالهم في آنٍ معًا؟ أجاب الهادي: نطلب إليهم تقارير كهذه، ونعدّ نحن تقارير عنهم نقارنها بتقاريرهم، لنعرف ما تخبّئه صدورهم ونكشف عن نواياهم وضمائرهم. لا تعتمد في شؤونٍ كهذه إلّا على الجمعيّة، يا عبد الهادي نايف. ولا تعتمد على أعضاء الجمعيّة دون تحفّظ، كي لا تكون أسيرهم أو تضع بين أيديهم جزءًا من إرادتك. أعطِ اليوم هذا العضو من الجمعيّة أمرًا بإعداد تقارير عن هذا المزاريّ أو ذاك، ثمّ أعطِ في الغد عضوًا آخر الأمر ذاته، وقارن بين ما كتبه العضوان، ثمّ أعِد عليهما الكرّة بعد حين، وقارن ما كتبه كلٌّ منهما اليوم بما كتبه بالأمس. لا تثق بأحد، لأنّ في الثّقة الغفلة وفي الغفلة الهلاك. ولا تقرّب منك أحدًا، أشعِر الجميع أن قربك مطمحٌ يهون الموت في سبيل بلوغه. لا تصادق أحدًا من المزار، بل قرّب هذا اليوم إليك لتبعده غدًا عنك، أظهر المودّة له اليوم لتلقي به إلى جحيم نقمتك في الغد. استقلّ عنهم دون أن تترك لهم فرصة الاستقلال عنك. لا تصدّقهم، فقد تقتضي مصلحة الدّعوة أن تكون حقائقهم أكاذيب، ولا تكذّبهم فقد تتطلّب الرّسالة قبول أكاذيبهم واستخدامها كحقائق.

ومتى تشفع لهم مواقفهم من الدّعوة يا مولاي؟ سأل النّاطور.

لن نسجّل لهم أو عليهم شيئًا. سنأخذ بالحسبان انضمامهم إلى الدّعوة، لكنّنا سنستمرّ في الشّكّ بصدق إيمانهم، ولن نراهم إلّا من زاوية طاعتهم.

لو خيّرت بين مؤمن يعصي أوامرك باسم المبادئ التي جاءت بها الدّعوة، وبين كافر يطيعك، فأيّهما تختار، يا عبد الهادي النّاطور؟

أختار المؤمن أيها الهادي. صرخ الهادي نافذ الصّبر:لأنّك ناقص عقل وخبرة. أتختار من يعرقل عملك باسم الهداية وتفضّله على من يطيعك وهو من غير المهتدين؟ يا لك من حمار، قال نايف للنّاطور: ألم تفهم معنى ما قاله الهادي في موعظة المغارة حول الطّاعة؟

شرع الأستاذ يتلو عن ظهر قلب أقوال الهادي، فإذا بالنّاطور يقول محتجًّا:لكنّك قلت إنّ الإيمان هو أساس حياتنا وأنزلته منزلةً تعلو على منزلة الطّاعة؟ أجاب الهادي: كان ذلك في الماضي، حين صار إيمانكم بالدّعوة دليل إيمانكم بالهادي، أمّا اليوم، فإن الكفر لا يتهدّد الدّعوة، بل يتهدّدها العصيان. في الماضي، كان المؤمن العاصي أقرب إلى الله من العاصي غير المؤمن، أمّا في يومنا هذا فليس هناك من صفة في المزاريّين أسمى من الطّاعة.

قال النّاطور عندئذٍ: العصا لمن عصا.هل سنطبّق هذه الأسس على جميع المزاريّين يا مولاي؟سنطبّقها على الجميع، دون أيّ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

استثناء مهما كان تافهًا. سنطبّقها عليك وعلى أعضاء المجلس والجمعيّة، وعلى الغنيّ والفقير، والكبير والصّغير، والشبّان والشابّات والفتيات، والرّجال والنّساء، والأرامل والمتزوّجين، والجهلة والمتعلّمين؛ بل إنّنا سنطبّقها على الموتى من أبناء هذه القرية.

وكيف نطبّقها على الموتى؟ استفهم النّاطور متحيّرًا. بجعل الأحياء ينسونهم. لقد أمرنا بمنع زيارة المزارات والأضرحة والقبور. أليس في هذا المنع تمويتًا للموتى، أيّها النّاطور؟ اعلم أنّ المزار عاشت إلى الأمس القريب تحت أجنحة موتاها، ممّن سمحت لهم بالحياة في وعيها، وإنّ الأحياء من المزاريّين كانوا قبل الدعوة كالأموات، لا يجدّدون أنفسهم ومعتقداتهم وعاداتهم، وإنّما يكرّرون كلّ يوم وساعة ما عاشه أجداد أجدادهم قبلهم. ولولا أن شقّ نور الهادي قلوبهم ونقلهم إلى حياتهم الجديدة، لعاشوا ماضيهم إلى أبد الدهر.

لماذا لا ننبش قبور الموتى ونرمي بعظامهم البالية إلى الكلاب؟ سأل النّاطور مولاه.هذا ما فعلناه، عندما فصلنا الأحياء عن الأموات بالدّعوة. لقد قتلَت الدّعوة موتى المزار إلى الأبد، ونبشت قبورهم وذرّت رمادهم في ريح النّسيان؛أقترح أن نفصل المزاريّين إلى مهتدين طائعين وإلى غير مهتدين وغير طائعين، فما رأي مولاي؟

تضعون قوائم بأسماء المزاريّين، وتجعلون لكلّ قائمةٍ لونها المميّز، فتخصّون المهتدين باللون الأحمر، وقليلي الهداية باللون الورديّ، وغير المهتدين أو المتظاهرين بالإيمان باللون

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الأبيـض. حـاذروا أن تختلـط الألـوان عـلى الـورق فيختلـط المهتـدون بغيرهـم في الواقـع، ويعصـون أوامرنـا في الامتنـاع عـن الـزّواج منهـم ومحادثتهـم وتنـاول الطّعـام والـشّراب معهـم ومسـاكنتهم وإعـادة مـا أخـذوه مـن أراضيهـم وأموالهـم ومعاونتهـم في أيّ عمـل وقبولهـم في «جمعيّـة رعايـة الأحـلام». وقليلـو الهدايـة يـا مولاي؟تطلبـون إليهـم الانتسـاب إلى صفوفكم خـلال أجـلٍ محـدّد، فـإن أبـوا عوملـوا كغـير المهتديـن.

والذيـن لم يهتـدوا عـن غـير كفـرٍ، مـاذا يكـون جزاؤهـم يـا مـولاي؟ سـأل النّاطـور مـن جديد.قـال الصّـوت: هـؤلاء هـم أعداؤنـا الأدلّاء وجرثومـة الارتـداد إلى المـاضي، فهـم لم يتّخـذوا موقفًـا مـن الدّعـوة بـل تجاهلوهـا، وهـذا عـداءٌ لهـا يفـوق عـداء خصومهـا المعلنـين.

ومـاذا نفعـل بالقوائـم يـا سـيّدي؟تحفظونها عـن ظهـر قلـب، مثلـما سـيحفظها أعضـاء الجمعيّـة ورؤسـاء مجموعـات العمـل وأعضـاء المجلـس. وتسـتخدمونها في كلّ كبـيرة وصغـيرة، وتحسّـنون مـا فيهـا مـن معلومـات، وتزيـدون عليهـا وتضيفـون في جميـع المناسـبات.

وإذا اهتـدى أحـد الخطـاة مـن غـير المهتديـن، مـاذا نفعـل باسـمه؟تضمّونه إلى قائمـة المهتديـن تحـت الاختبـار، دون أن تحذفـوه مـن قائمـة غـير المهتديـن. بـل إنّكـم لا تحذفـون الاسـم مـن هـذه القائمـة، حتـى لـو صـدر قـرار منّـي بتعيـين صاحبـه عضـوًا في مجلـس الألفـة. سـأل الصّـوت نايفًـا عندئـذٍ: أفهمـت

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

معنـى كلامـي؟ قـال نايف:نعـم، يـا مـولاي، فهمتـه. فالقائمـة ستبقى مسـتقلّة عنـك وعنّـا وعـن أيّ شيء، وسـتصبح الأسـاس الـذي يتوقّـف عليـه نجـاح الدّعـوة.

أحسـنت يـا عبـد الهـادي، قـال الصّـوت. القائمـة هـي أهـمّ ركيـزة لنجاحكـم بعـد عنايـة الهـادي. وهـي سـتتحوّل إلى كتـاب المـزار، الـذي سـيبقى بعـد ذهابهـا، والـذي سـتبقى مـن خلالـه. وهـل سـتقتصر القائمـة على الأسـماء والصّفات الشّـخصيّة لسـكّان المزار؟سـتضمّ كلّ مـا لـه علاقـة بـكلّ واحـدٍ منهـم، مـن اللحظـة التـي يسـمح الهـادي فيهـا لأبويـه بإنجابـه إلى أن يقـرّر لـه شـكل وزمـن موتـه.

كيـف نعـرف هـذه الغوامـض يـا مـولاي؟ قـال نايـف مضطربًـا. بمعونـة هاديـك. أمّـا وقائـع حيـاة المـزاريّ اليوميّة، فسـتجمعونها أنتـم عـبر الجمعيّـة.

مثل ماذا يا مولاي؟

علاقاتـه وأفـكاره، وأقوالـه، وذوقـه ومشـاعره، وكيـف يمـضي أوقاتـه، ومـا ينتابـه مـن صحّـة ومـرض وقـوّة وعافيـة، وفقـر وغنـى، وهمّـة وكسـل...لكن ذلـك يتطلّـب الكثـير مـن العمـل يـا مـولاي.

سينقسـم المزاريّـون إلى عاملـين في الحقـول وعـمّال في الجمعيّـة، وسـيراقب عـمّال الجمعيّـة عـمّال الحقـول، وعـمّال الحقـول عـمّال الجمعيّـة، فأيـن تتوّهـم الصّعوبـة؟

ألن يكون في المزار أنشطة اخرى غير رقابة سكّانها؟

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

وهـل تعتقـد أنّ الحيـاة تسـتقيم دون أنشـطةٍ أخـرى، يـا عبـد الهـادي؟ لكـن مـن سـيقومون بهـذه الأنشـطة سـيكونون مـن أعضـاء وعضـوات الجمعيّـة. فهـؤلاء هـم الذيـن سـيكتبون الأغـاني وسـيغنّونها في الأعـراس والمآتـم والأعيـاد. وهـم الذيـن سـيرقصون وسـيهزجون وسـينظّمون السّـهرات والاحتفـالات والدّعـوات، وهـم مـن سـينقل إلى المزاريّـين المعرفـة التي يسـكبها هاديهـم في قلوبهم.وهـل سـنقبل النّسـاء في الجمعيّة؟سـتمارس الجمعيّـة المسـاواة بأوسـع معانيهـا وأكثرهـا شـمولًا، ولـن تقبـل معيـارًا للمسـاواة بـين أعضائهـا سـوى الـولاء لهـا.وإذا لم ينتسـب المزاريّـون إلى الجمعيّـة، مـاذا نفعل؟سينتسـبون، بـل إنّكـم سـترفضون انتسـاب الكثيريـن منهـم، لأنّ معظـم سـكّان مـزار الـدّبّ سـيتهافتون عـلى الانتـماء إليكـم، أليسـت الجمعيّـة هـي مـن سـيوزّع العمـل والأرزاق، ومـن سـيعطي الفقـر لمـن يشـاء والغنـى لمـن يشـاء، ويدخـل السّـعادة إلى قلـب مـن يـرضى عنـه والشّـقاء إلى حيـاة مـن ينقـم عليـه؟ أنتم تفكّـرون اليـوم بطريقة تنسـيب المزاريّـين إلى جمعيّتكـم، وسـتجهدون أنفسـكم في غـد قريـب لإيجـاد سـبل تمنعـون بهـا تدفّقهـم عليكـم. لكنّنـي آمركم ألّا تفعلـوا ذلـك، وأن تتطلّعـوا إلى تنسـيب جميـع أبنـاء المـزار، مهـما كان موقعهـم أو عمرهـم أو جنسـهم، إلى الجمعيّـة، إلى أن يتطابـق عـدد أعضائهـا مـع عـدد المزاريّـين، وتصـير الجمعيّـة هـي المـزار والمـزار هـو الجمعيّـة.

والأرزاق، كيف ستوزّعونها، أيّها المقدّس؟ سأله النّاطور.

بحسـب الطّاعـة والهدايـة، أيّهـا المهتـدي. اعلـم أنّ لا رزق

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

للعصــاة ولغــير المهتديــن، ولا طعــام أو شراب أو حيــاة لهــم.

وكيف يعيشون وهم في حماك وفي قريتك؟

سـتكون أبـواب الجمعيّـة مفتوحـةً لهـم، فـإن عملـوا معهـا كفلنـا رزقهـم، لأنّهـم سـيخدمون بذلـك الدّعـوة وإن لم يؤمنـوا بهـا؟

أتأمرنـا بقتـل مـن لا يخدمـون ولا يهتـدون يـا مـولاي؟ سـأل نايـف.

بعــد انقضــاء أجــلٍ ندعوهــم خلالــه للانتــماء إلى الجمعيّــة، أجابتــه الشّــفاه.

قال التّابعان عندئذٍ:

لتكن مشيئتك.

رفــع الهــادي ذراعيــه في الهــواء، مثلــما كان يفعــل خــلال اجتماعاتـه السّـابقة بالمـزار، حتـى خيّـل لتابعيـه أنّـه سـيرجع إلى الفراديــس العــلا.

التمـع فجـأةً ضـوء باهـر أمـام عينَـي الرّجلـين حجـب عنهـما الرّؤيـة، فقـال الصّـوت:

هـا قـد جـاءت مـن جديـد أوقـات احتجـابي، وحانـت أوبتـي إلى حقيقتـي النّورانيّـة. لـن يـراني مـن الآن فصاعـدًا سـوى مـن صـدق إيمانهـم، ولـن يبـصرني هـؤلاء منـذ اللحظـة بأعينهـم بـل بقلوبهـم، مـع أنّنـي لـن أفارقهـم، بـل سـأكون معهـم وبينهـم إلى أبـد الدّهـر. أمّـا أنتـما وأعضـاء المجلـس، فإنّكـم سـترونني حيثـما ولّيتـم وجوهكـم.

فتح نايف عينيه، فإذا هو في المغارة وقد غرقت في الضّياء. سأل وقد خرّ على ركبتيه: وكيف يتّصل المؤمنون بك يا مولاي؟

بقلوبهم، يا عبد الهادي. على «الجمعيّة» تصديق ما في القلوب إذاً؟ تصدّقها إن سمعت صوتي، قال الهادي، فهو علامة على أنّني فيها، وعلى أنّها قلوب صادقة.

ستكون في قلوبنا على الدّوام، يا مولاي. قال نايف، فردّ الهادي:

وسيرنّ صوتي في آذانكم في الليل والنّهار، لأنّه سيكون منذ اللحظة حقيقتي. ليس صوتي هو ما سيبقى منّي في المزار، بل أنّه هو أنا الباقي فيها فأطيعوه واستمعوا إليه، وتأمّلوا في معنى أن يكون لكم من الدّعوة نداؤها ومن الهادي صوته. قال نايف: سنطيع صوتك الذي سيكون هادينا.

قال الهادي: إيّاكم أن تعلّموا المزار الاستهانة بالأصوات. اعلموا أنّه لا يبقى من الدّعوات الكبرى سوى أصوات الهداة، وأنّ من لا يسمع صوت هاديه في نفسه لا يكون مؤمنًا وإن أمضى عمره عابدًا متجهّدًا.

وهل ستكون في مكانٍ محدّدٍ خلال فترة احتجابك؟

تأدّب يا عبد الهادي، فأنت الآن في حضرة هاديك المحتجب. ألا ترى أنّني معك وفيك ولست في المكان الذي أنت فيه؟ اعلم أنّني في كلّ مكان وفي كلّ زمان، وأنّني ساكن الأكوان

والنّفـوس الـذي لا يرتبـط بموقـع أو بمخلـوق. أبعـدَ هـذا تسـألني أيـن أكـون؟

أريـد أن أعـرف أخـيرًا إن كان هنـاك مـن يسـتطيع الخـروج عـلى طاعتـك، يـا مـولاي.

لا أسـتطيع أنـا نفـسي إخراجكـم عـن طاعتـي، مـا إن أجعـل هدايتـي تدخـل إلى قلوبكـم.

والشّيطان، أيقدر أن يعيدنا إلى المزار القديمة؟

ليـس فيكـم مـن شـيطان سـوى طبيعتكـم البشريّـة، ولـن يقهركم شيء مـا دمتـم تقهـرون طبيعتكـم وفطرتكم.

لماذا تركتنا لفطرتنا ولم تهدنا إليك منذ ولادتنا، يا مولاي؟

لأنّنـي أردت وصـول طبيعتكـم إلى منتهـى الشـوط، وبلـوغ فطرتكـم أوجهـا، فيكـون انضمامكـم إلى الدّعـوة سـبيل خلاصكـم الوحيـد، بعدمـا عشـتموه قبـل الدّعـوة. أتعرفـان لمـاذا قلـت لكـما أنّ كلثـوم هـي الشّـيطان؟ لأنّهـا فطـرة وطبيعـة، فاحذروها واحذروهـما، ووجّهـوا عمـل الجمعيّـة نحـو القضـاء عليهـا وعـلى تجلّياتهـا، تكفلـون بقـاء الشّـيطان خـارج نفوسـكم.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

قـال نايـف: بينـما أنـا في الفراش، أفكّـر في أحسـن الطّـرق لتنفيـذ مـا أمـر بـه الهـادي، جـاءني الصّـوت المبـارك هامسًـا في عتمـة الليـل: قـال عليـه السّـلام: سـأقصّ لـك وقائـع الحلـم الـذي ستشـاهده عفـاف الصّالـح، هـذه الضالّـة الفاسـقة، التـي أوهمتهـا كلثـوم أنهـمّا خـارج قبضتـي. سـألت وأنـا بـين النائـم والصّاحـي إن كان يحسـن بي تسـجيل الحلـم، لاسـتخدام نصّـه خـلال محاسـبة ابنـة الصّالـح. فأجـاب: إنّ الحلـم مسـجّل منـذ أول الدّهـر في لـوح القـدر وأنّـه يرويـه لي اعتـمادًا عـلى النـصّ المكتـوب ذاتـه. سـألته إن كانـت أحلامـي مسـجّلةً في الكتـاب المحفـوظ، فقـال بلطـفٍ جـليٍّ: لـو كانـت لـك أحـلام، لمـا اخترتـك مسـاعدًا للدّعـوة ورئيسًـا لجمعيّـة رعايـة الأحـلام. والنّاطـور يـا مـولاي، مـا هـي أحلامـه؟ قـال سـيّد الأكـوان: ليسـت للناطـور أيّـة مزايـا أو صفـات، بـل إنّ اسـمه لم يكـن مسـجّلًا إلى البارحـة في اللـوح الأبـديّ. ولـولا أن أمـرت بفتـح ملـفٍّ لـه، لخلَـت سـجلّات الأرض والسّـماء مـن ذكـره تمامًـا. سـألته إن كان قـد شرع يقـرأ أحـلام المزاريّـين. قـال

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إنّه كان يعرفها قبل أن ينزل إلى المزار، وإنّه اعتمد عليها في اختيار مكان نشر الدّعوة. قلت وقد استبدّ بي الفرح لسماع رأيه في قريتي: بوركت المزار، ذكّرني عندئذٍ بكلثوم وغيرها ممّن حاولوا إرباكه فقلت مستدركًا: اللعنة على المزار وعلى كلثوم وعفاف، التي تربكنا بأحلامها بعد أن أراحنا الهادي من ذاكرتها.

هل غلبني النّعاس فنمت كي أسجّل في ذاكرتي ما رواه الهادي لي بالحرف وأنا غائبٌ عن نفسي، أم أنّ هلوسة التّعب أنطقتني بما قصّه عليّ وكأنّني كنت أقرؤه بدوري من الكتاب المحفوظ؟ لست أدري. فقد أفقت في اليوم التّالي مثقلًا بهموم الحلم الذي شاهدته عفاف الصّالح لعنها الله، والذي هو أقرب إلى الكابوس منه إلى أيّ شيء آخر. ترى لماذا أراد سيّدي ومولاي لي أن أحفظ النّصّ الحرفيّ لحلم ابنة الصّالح، مع أنّه منع الجمعيّة من محاسبتها؟ أتراه أراد إظهار قدراته لي، أنا المؤمن بها أكثر من أي مؤمن آخر من أتباعه؟ أم تراه يشكّ بولائي وإخلاصي، ويختبر صدق إيماني؟ لم أعرف أجوبة لهذه الأسئلة المحيّرة، فقلت مطمئنًا نفسي: من أنا حتى أفهم غامض حكمته، وماذا أفعل لرد المقدور، إن رفع رداءه عنّي وسحب حمايته لي؟

قال صوت الهادي في عتمة الليل: افتح عينيك يا عبد الهادي على ما سيدور من حولك. تأمّل بإمعان مجريات الحياة العاديّة لمزار الدّبّ، لترى ما فيها من غرائب وأعاجيب،

وتكتشف تحت سطحها الذي يبدو ساكنًا اضطراب نفوس أهاليها الصّامتين، وتعرف المدى الذي بلغته الدعوة فيهم. أجبت مغمغمًا: فتحت عينيّ يا مولاي فلم أر شيئًا. قال: ألا ترى عفاف الصّالح وهي ترجع من النّبع؟ قلت: أراها بوضوح. فأردف متسائلًا: ألا تسمع صوت كلثوم يخاطبها، قلت: هو في أذني. سألني: ماذا يقول الصّوت يا عبد الهادي؟ قلت: يطلب إلى عفاف الذهاب إلى كلثوم. وأين توجد كلثوم الآن؟ قلت: في بيتك المبارك، أيّها الهادي. سأل: أعرفت الآن معنى الحلم؟ قلت: من أين لي ذلك، وأنا لم أشاهد منه شيئًا بعد؟ قال بنفاذ صبرٍ وقد ضايقته غفلتي: ألا يعني وجود كلثوم في بيتي شيئًا لك، أيّها العبد الغافل؟ أجبته: إنّما هي هدايتك التي أنطقتني. عاد عندئذٍ إلى الحلم وسألني: أتسمع الآن ما تقوله كلثوم لعفاف؟ قلت: تأمرها أن تتذكّر ما سترويه لها وأن تحفظه إلى أبد الدّهر، لأنّها ستكون شاهدةً على ما حدث للقرية خلال فترة غيابها عن ذاتها. سألني مولاي إن كانت ابنة الصّالح ستمتثل لأمر كلثوم، فقلت: كلّا، لن تطيعها، لأنّها في الجمعّية، فقال: بل ستطيعها مع أنّها لن ترجع إلى ذاكرتها، ولن تتذكّر من وقائع المزار ما ستخبرها كلثوم به. قلت: تريد كلثوم أن تجعلها كتاب أيّام المزار. قال: وشاهدتها. قلت: هذا ليس حلمًا بل هو جريمة. أمرني عندئذٍ أن أصمت كي أستمع إلى وقائعها. قالت كلثوم: استمعي يا عفاف الصّالح. أيّتها

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الفتاة التي تجهلين من تكونين كما تجهلين من يخاطبك، والتي تحوّلت حياتك إلى وعاءٍ سيبقى فارغًا إلى الأبد، ما لم تستعيدي ذاكرتك من حمدان. استمعي يا ابنة الصّالح واحفظي ما سأقوله لك، ثمّ افعلي ما سأطلبه منك، كي لا تغلقي بيديك دروب عودتك وعودة المزار إلى ذاتكما. افتحي عينيك جيدًا لتشاهدي ما سأتيح لك رؤيته من مصائب تحلّ بالمزار خلال غيابكم الراهن عنها. انظري إلى هذا البيت، أتعرفينه؟ يقول صمتك إنّك لا تعرفينه. حسن، إنّه بيتكم، بيت أبيك وأمّك الذي أمضيت فيه عمرك كلّه، فهل ترين ما يحدث فيه؟ أتخجلين من النّظر إلى ما يحدث؟ إنّ المرأة التي في الفراش هي أختك، أمّا الرجل فهو نايف المفزلك. أنت لا تعرفين من يكون نايف المفزلك، ولن يسبق لك أن شاهدته، أليس كذلك؟ حدّقي به جيّدًا كي لا يفلت من عين خيالك، عندما ستأتي ساعة الحساب في المزار. إنّه نايف المفزلك، فهل حفظت اسمه؟ تأمّلي هذا البيت أيضًا. تقول نظراتك إنّك لا تعرفينه. من أين لك أن تعرفيه وأنت بلا ذاكرة؟ إنّه بيت عائشة الزّاهر. سأقول لك من هي عائشة الزّاهر هذه. إنّها امرأة كغيرها من نساء هذه القرية، وهي أمّ هذين الطّفلين الجميلين اللذين يلعبان بصخبٍ قرب ابراهيم النّاطور. المستلقي في الفراش معها. هل تعرف عائشة الرّجل الذي بقربها، وهل تعلم أنّه ليس زوجها حامد، زينة شباب المزار؟ كلا، إنّها لا تعرفه ولا تعرف

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إن كان رجـلًا آخـر غـير حامـد. صـاح الأسـتاذ فجـأةً: هـذا الحلـم ليـس صحيحًـا يـا مـولاي، فأنـا زوج ابنـة ابراهيـم النّاطـور، ولم أفعـل شـيئًا مـمّا تقولـه كلثـوم.

اخرس يا عبد الهادي فما تراه هو وقائع المزار الآتية.

تـراءى لنايـف أنّـه سـمع صـوت النّاطـور. ارتعـب وسـأل الهادي: هـل سـيكتب عـليّ يـا مـولاي سـماع صـوت النّاطـور كلّـما خطـر لـه أن يحدّثنـي؟ قـال الهـادي: كلّا، فالنّاطـور ليـس جـزءًا مـن حلـم عفـاف بـل هـو كابوسـك. صمـت الهـادي، فاسـتأنف نايـف مشـاهدة الحلـم، وسـمع صـوت كلثـوم يسـأل الفتـاة: إذا أضعت أنـت ذاكرتـك، وأضـاع أهلـك أرضهـم، وأضاعـت أختـك شرفهـا، فـماذا يتبقّـى لكـم؟ أجـاب نايـف: يبقـى لهـم ولنـا الهـادي أيّتهـا الأفعـى اللعينـة. لم تكـترث كلثـوم لتدخّـل نايـف، بـل واصلـت أسـئلتها: أتريـن هـذه الأرض يـا ابنـة الصّالـح؟ إنّهـا أرض أبيـك، فـماذا حـلّ بهـا؟ أصبحـت قطعـةً مـن أرض المجلـس، انظـري إلى مـا حـلّ بـك أنـت أيضًـا. كنـت تعملـين في أرضكـم، وصرت لا ترفعـين رأسـك عنهـا بعـد أن ضمّهـا المجلـس إلى أراضيـه. كانـت الفتـاة تنظـر إلى كلثـوم بـلا اكـتراث، كأنّهـا تنظـر في فـراغ. سـأل نايـف الهـادي: لمـاذا سـمحت بذهابهـا إلى امـرأةٍ تسـمّم عقلهـا، فقـال إنّـه لم يسـمح لهـا أو يمانـع في ذهابهـا؛ بـل تابـع الطّريقـة التـي أمـرت كلثـوم بهـا ابنـة الشّـيخ بالقـدوم إليهـا، وراقـب كيـف انقـادت الفتـاة لهـا دون مقاومـة، مـع أنّهـا لم تتعـرّف إليهـا حـين دخلـت إلى بيتهـا. قـال نايـف إنّ سـهولة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

القيـاد هــي واحــدة مــن صفــات المزاريّــين، الذيــن فطرتهــم الطبيعــة عــلى تصديــق مــا يقــال لهــم دون تدقيــقٍ أو تمحيــص. فعقّــب الهــادي: يجــب تعويــد المــزار عــلى رفــض مــا يقــال لهــا مــن الآن فصاعــدًا، بعــد أن حســمت أمرهــا وقبلــت الدّعــوة. قالــت كلثــوم مواصلــةً حديثهــا: لا تنــسي مــا رأيتــه، ولا تتفرّجــي عــلى قريتــك ونفســك وهــما تغرقــان. انطلقــي في طرقــات ودروب وأزقّــة المــزار وأيقظيهــا قبــل فــوات الأوان. لم تفهــم الفتــاة شــيئًا مــن تحذيــرات وأقــوال كلثــوم، بــل واصلــت النّظــر إلى محدّثتهــا كأنّهــا لا تقــول لهــا شــيئًا. قالــت كلثــوم عندئــذ بيــأسٍ: لم يعــد ثمّــة جــدوى مــن المــزار. ثــمّ صمتــت وبقيــت عــلى صمتهــا إلى أن تلاشــت صورتهــا مــن عينَــي نايــف، الــذي فهــم فجــأةً معنــى المنــام فهمــس: لم يظهــر ســبحانه عجائبــه في كلثــوم، بــل أظهرهــا في عفــاف الصّالــح، صديقتهــا التــي تحدّاهــا بهــا، بــل وجعلهــا تقــرّ يائســةً بهزيمتهــا أمامهــا.

انتهــى الحلــم. فتــح نايــف عينيــه في العتمــة وســأل بصــوتٍ أرعــب زوجتــه، التــي هبّــت مــن نومهــا تســأله مــن يكــون: ألهــذا ســمحت لهــا بالذهــاب إلى كلثــوم يــا مــولاي؟ أجــاب الهــادي بضحكــةٍ هــزّت ســقف البيــت، وجعلــت المــرأة الخائفــة تتذكّــر الحوقلــة والبســملة.

قــال نايــف: رأيــت فيــما يــرى النّائــم أيّــوب الأخــرس يخــرج مــن بيتــه، في أثــر زهــرة، الضّبعــة التــي كانــت تتقدّمــه إلى الحــرش الشّرقــي. كان الرّجــل يضــع حطّتــه عــلى رأســه ويلبــس حــذاءه

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

في قدميـه، وقـد التـفّ بعباءتـه القديمـة، التـي جـاء بهـا مـن الباديــة البعيــدة، حيــث كان يذهــب للحصــاد كلّ صيــف. ســمعت صــوت أيّــوب الأخــرس وهــو يتعــالى طالبًــا إلى زهــرة انتظـاره، بـل إنّـه كان يتوسّـل إليهـا أن تأخـذه معهـا إلى مغارتهـا. قلـت في نفـسي: تـرى هـل يعـرف الهـادي بعـودة صـوت أيّـوب إليـه؟ قـال صـوت مـولاي: أنـت تـرى وتسـمع مـا أسـمح لـك برؤيتـه وسـماعه دون سـواه. إنّنـي أسـمح لـك بسـماع صـوت أيّـوب، رغـم أنّـه مـا زال أخـرس. صـاح أيّـوب: انتظرينـي يـا زهـرة لأذهـب معـك إلى مغارتـك. تسـاءلت والضبعـة تهـرول أمـام أيّـوب: أتـراه كان عـلى علاقـةٍ مـا معهـا، دون علـم الهـادي والمجلـس والمـزار؟ أليسـت زهـرة صديقـة بيـت أيّـوب النّاعـس الذيـن ربّـوا ابنتهـا كلثـوم، فلـم لا تنتظـره؟ قـال صـوت الهـادي: سـتنتظره في الحـرش، فـلا تسـتعجل النّتائـج. كانـت زهـرة قـد بلغـت رأس تلّـة الحـرش ووقفـت هنـاك تنتظـر أيّـوب الناعـس. بلـغ مكانهـا وقـد أضنـاه التّعـب، فوقـف يلهـث ويعاتبهـا لأنّها لم تـراعِ شـيخوخته، بـل واصلـت جرْيهـا غـير آبهـةٍ بتعبـه. انقضّـت زهـرة فجـأةً عـلى النّاعـس فاتحـةً فكّيهـا عـلى اتّسـاعهما. خَفَـتْ خوفًـا شـديدًا عليـه. حاولـت تحذيـره منهـا، لكـنّ صـوتي لم يخـرج مـن حلقـي. قـال الهـادي: لـن تتقيّـد زهـرة بعـد الليلـة بعهودهـا حيـال المـزار، بـل سـتعامل سـكّانها كـما عاملـت في السّـابق قريـة المخروبـة. قلـت: لكـن النّاعـس ربّى ابنتهـا. لذلـك يسـتحقّ المـوت، أجـاب صـوت الهـادي. كانـت الضّبعـة قـد

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ابتعدت عن النّاعس، وأخذت تدور حوله، بينما كان هو يلتقط حصىً وحجارةً يرميها بها ليبعدها عنه. كانت الدّوائر التي تتحرّك بها الضّبعة تضيق حول النّاعس، الذي كانت قوّته تتلاشى بسرعةٍ وحجارته التي يدفع بها الخطر عنه تقلّ. أدركته الضّبعة أخيرًا وهو لا يقوى على رفع يده. انقضّت عليه، فأشاح نايف عن المشهد. بعد برهةٍ قال الهادي: تشجّع وانظر فقد انتهى كلّ شيء. نظرت إلى حيث أمرني الهادي. رأيت الدّوائر المرتسمة على الأرض الرّطبة، وتخيّلت كيف ضاقت من حول أيّوب، الذي اختفى في جوف الضّبعة ولم يبق منه سوى قدميه داخل حذائه الذي عجزت عن التهامه. سألت سيّدي: هل تسمح لي يا مولاي بإحضار حذاء أيّوب وإقامة جنازة له؟ أجابني الصّوت: منذ متى كانت المزار تقيم جنازةً لحذاء، يا عبد الهادي؟

أمعن نايف النّظر في هذين الحلمين، فأحسّ أنّ الهادي يختبره دون مبرّر. خاف عندئذٍ من عاقبة مثوله الدائم بين يدَي مولاه الكلّي الحضور، الذي لا يأكل أو يشرب أو ينام أو يستريح. وتدلّ زياراته الليليّة على أنّه سيقاسمه وقته وبيته ونومه وراحته. تذكّر أنّ الهادي يقرأ الأفكار قبل وقوعها، فقال يتقصّد إسماعه: إنّما أنا خادمه وعبده وأسير إرادته، فلم لا أكون طوع بنانه ورهن إشارته؟ أراحته الفكرة التي أيقن أنّ الهادي سكبها في قلبه فشكره بصوت مسموع قائلًا: إذا كان يعدّني لأعباء المهمّة الجسيمة التي كلّفني بها ويشركني

في معرفـة غوامـض مسـتعصية عـلى الأفهـام البشريّـة العاديّـة، فلـماذا يقينـي عنـاء المعانـاة التـي خبرهـا وهـو ينحـدر مـن نـور الألطـاف إلى عـالم الألم؟ وكيـف أسـمو مـن خلالـه إليـه، إن أنـا حافظـت عـلى الفطـرة التـي للفانـين مـن أبنـاء المـزار؟ كان العتم يتجمّـع أمـام عينيـه، وشـخير زوجتـه يوقـظ في نفسـه التّـوق إلى النّـوم، وأفـكاره تغـوص بـه في عتمـة الكـون الكـبرى حيـث لا معـين لـه سـوى الهـادي. أحـسّ بتعـب الجسـد يسـلمه إلى تعـب الـرّوح، فاعتقـد أنّ حياتـه في المـزار قـد استنفذت غرضهـا بإتمـام رسـالة الهـادي. نهـض عندئـذٍ مـن فراشـه وغـادره كمـن تدفـع بـه يـد إلى خارجـه، ثـمّ مـا لبـث أن خـرج مـن بيتـه أيضًـا. كانـت صـورة الهـادي ترتسـم فـوق التّـلال والأشـجار والبيـوت وعـلى صفحـة السّـماء. قصـد الحـرش الشّرقـيّ. حـين شـاهد قدمَـي النّاعـس في حذائـه، خـرّ عـلى وجهـه أمـام العجائـب البيّنـات بعـد أن ركـض كالمجنـون في عتمـة الحـرش المفزعـة.

قبـل مطلـع الشّـمس، التقطـت النّسـوة المحتطبـات نايفًـا مـن مشـارف الجـرف الأوسـط، حيـث أسـقطته ألطـاف الهـادي الحانيـة مغشـيًّا عليـه وهـو عـلى بعـد خطوتـين فقـط مـن الهاويـة المميتـة. رأتـه النسـوة فاعتقـدنَ أنّـه ميـت. كان وجهـه أصفـرَ كالشّـمع، وكذلـك جلـد يديـه وسـاقيه. وكان متجلببًـا بعبـاءة أيّـوب النّاعـس، وهـو حـافي القدمـين عـاري الـرأس. تجمّعـت المزاريّـات الخائفـات. عندمـا تعـالى صراخهـنّ أخـيرًا، أفـاق. نظـر حولـه، فـإذا بالـوادي العميـق يفتـح ذراعيـه لـه.

التفت إلى الاتّجاه الذي جاء منه، وإلى موقع سقوطه مغشيًّا عليه، فأدرك للتوّ أن يد الهادي تداركته حين تخلّى هو ذاته عن نفسه؛ ساعة تركه عقله يخبط في الليل على هواه، وينطلق نحو الهاوية القاتلة. سجد حيث هو وقال وهو يفتح ذراعيه على اتّساعهما، ويرفع رأسه إلى السّماء: لا تتركني يا مولاي، لا تتركني أيّها الهادي، أنا عبدك الذي تمنّى ليل البارحة أن تعفيه من بركة حضورك القدسيّ في ليله ونهاره، فأبَنْتَ له بعد هنيهةٍ أنّ تخلّيك عنه لحظةً واحدةً سيعني هلاكه. فشكرًا لك يا ربّاه.

انطلق عائدًا إلى بيته وقد احتلّت رأسه فكرة الاندماج التامّ في هاديه. كان يحسّ أنّه يمتلئ بهذا الشّوق الملحّ إلى حقيقته المتجسّدة في سيّده ومولاه، وأنّه غدا كيانًا غضّ العود، تكاد ريح مولاه تقتلعه من جذوره البشريّة لتطوّح به إلى حيث يريد له أن يكون، في إهابه وصحبته، أنعشته رياح الاندماج بمنقذه، أيقن أن عريه لم يكن بدوره أمرًا عارضًا، وأنّ جسده ليس سوى خرقة جديرة بالازدراء، عجزت عن حمل روحه المستجيبة لإرادة مدبّر الأكوان، فاستحقّت المصير الذي كان ينتظرها أسفل الجرف. انكشفت لعينيه أسرار ومعاني اللحظات القليلة، التي مرّت بين رغبته في مبارحة الهادي وبين سقوطه مغشيًّا عليه أمام الجرف، فشرع يحمد ربّه هاديه بصوت خطابيّ صارخ. خال أنّه لا يخرج من حلقه، بل من كلّ ذرّةٍ في جسده العاري.

وصل إلى بيته، فإذا بزوجته تغطّ في نوم هانئ وشخيرها يملأ البيت الصغير ذا السّقف المنخفض. قال بصوت هامس: حرّرني الهادي وصلبني في آنٍ معًا. أخذ مني عفافًا وأعطاني هذه. فهل تراه فعل بي ما فعله كي لا أنسى قدرته عليّ، وأتذكّر أنّ نعيم الرّوح يقابله شقاء الجسد، وأنّ الدّنيا دار عذاب، وأنّني سأبقى مشدودًا بقيودي الأرضيّة الثّقيلة، التي تمثّلها وضحة النّاطور، مهما ارتقت بي خيالات الإيمان المجنّحة؟ أعادته ابنة النّاطور، كما كان يسمّيها، من عالم الطّهر الذي رفعته إليه هاوية الجرف، فأحّس أنّها هي الجرف القاتل الذي أسقطته فيه يد القدر، وأنّ أحدًا لن ينقذه منه، بعد أن تخلّى الهادي عنه ودفعه إليه دفعًا. قال عندئذٍ في سرّه، ضاربًا عرض الحائط بالخوف الذي لازمه منذ ضاعت ذاكرة المزار: إنّ سيّده يلعب معه لعبة أشّد دهاءً من لعبته مع القرية. ودّ عندئذٍ لو أنّه لم يصطفيه، إذن لكان أفقده ذاكرته وأراحه. صمت لحظةً يتوقّع ردّ الهادي، بل إنّه انكمش على نفسه كمن سيتلقّى صفعةً قويّةً على عنقه، ثمّ أردف متذمّرًا: يكون قد أنقذني كي يعذّبني ما حييت. ووفّر عليّ الموت السّريع لأنّه يراني جديرًا بهذا الموت البطيء، الذي يعلم هو وحده متى ينتهي. خطر له أن يتصوّر ماذا كان يمكن لابنة النّاطور أن تفعل لو أنّ الهادي ترك لها ذاكرتها. ما الخطر الذي يمكن لهذه الشّقيّة أن تمثّله على الدّعوة؟ ولم يريحها الهادي من

ذاكرتها ويعفيها من الالتزامات التي يفرضها عليها حياله الحدّ الأدنى من الوعي، الذي يملكه عادةً أمثالها. أتراه ينتقم منها لوقوفها إلى جانب أمّها يوم عاقبهما النّاطور، كما انتقم ليلة البارحة من والد زوجته أيّوب النّاعس؟ أم تراه يعذبّه هو، رجله ولسانه في المزار، ويبلو صبره ويعرّضه لاختبارات دائمة، بسبب المكانة التي له في الدعوة، والتي ربّما كان لا يجوز لصاحبها أن يبقى بمنأى عن الرّقابة الدّائمة لصاحب الأمر؟ أيعذّبه مولاه أم يكرّمه؟ أيشكّ فيه أم يمحضه ثقته؟

تقاذفت هذه الأسئلة إلى ذهنه فأغوته ضلالاتها بالذّهاب إلى حافّة الجرف من جديد. ماذا كان بوسع ابنة النّاطور أن تفعل بذاكرتها، لو أنّه أبقاها لها، وهل كانت لها ذاكرة حقًّا؟ لماذا لا يعفيها، قدّس الله سرّه، من الغياب عن ذاتها، وهي الغائبة بطبيعتها عن كلّ شيء؟ لماذا لا يشفع لها أنّها زوجته؟ أليس هو من زوّجه منها بكلمةٍ رماها فجأةً من فمه المبارك؟ تساءل عندئذٍ قائلًا: أما كان من الأرحم لي، لو أنّني فقدت أنا أيضًا ذاكرتي مع القرية، فأراحني مولاي من عذاب الرّوح وشقاء الجسد؟ أم تراه أنزل رحمته بالمزار وحجبها عنّي ليجرّب فيّ اختباراته الرّوحيّة والإيمانيّة؟ هل أكون في حالتي هذه، قد أرغمت على الاحتفاظ بذاكرتي لأعاني ما أنا فيه من عذاب، بينما ترتع المزار في طمأنينة النّسيان؟ أغضبه ما وسوست له به أفكاره. لاح له أنّ الدّعوة لم تكن بحاجة إلى إنزال هذا القدر من الظّلم بأتباعها، كي

لا تمحـو وجودهـم مـن عالمها، وأنّ كلمـة واحـدة مـن الهـادي كانــت ســتكفي لغســل نفوســهم مــن أدرانهــا. ازداد شــكّه في حكمـة مـولاه فـصرخ والألم يطحنـه طحنًـا: اللهـمّ خـذ نفـسي، خـذ روحـي وذاكـرتي. أرحنـي مـمّا أنـا فيـه ليكـون لإرادتـك فيـما تريـده لها مـن نفـاذ. كان نايـف متكـوّرًا عـلى نفسـه فـوق أرض بيتـه البـاردة، يخـال أنّ أنفاسـه توشـك أن تفـارق صـدره، وأنّ عقلـه قـد تحـوّل إلى كتلـة حجريّـة صلبـة تـزداد ثقـلًا داخـل جمجمتـه، عندمـا تناهـى إليـه صـوت النّاطـور معنّفًـا: أإيمـانٌ وزندقـةٌ في آنٍ معًـا أيّها الدّجّـال؟ ردّ نايـف صارخًـا: إليـك عنّـي وعـن المـزار. ألم تجـد الدّعـوة داعيـةً أفضـل منـك يرشـد النّـاس إلى الطّريـق القويـم؟

لم يكــن الأســتاذ قــد أكمــل كلامــه، حــين اندفــع النّاطــور إلى داخـل البيـت يسـأله ملتاعًـا: مـاذا جـرى. هـل عاودتـك نوباتـك القديمـة؟ قـال نايـف وقـد رآه يقـف فوقـه كالعمـود: ابعـد عنّي، أيّهـا الكابـوس، ابعـد عنّـي، ابعـد عنّـي. كان النّاطـور قـد شرع يبتعــد فعــلًا عنــه، عندمــا أضــاف الأســتاذ حانقًــا: وعــدني أن تفارقنـي إلى غـير رجعـة. فـماذا جـاء بـك، ومـاذا أعمـل للخـلاص منـك؟

اتّجـه النّاطـور إلى زاويـة البيـت، اقتعـد الأرض ثـمّ أخـرج علبـة التّبـغ، فلـفّ سـيجارة أشـعلها وهـو يراقـب نايـف. كان الرّجـل مـا زال مرتميًـا عـلى الأرض وهـو نصـف عـارٍ. انتبـه الأب أنّ ابنتـه لم تسـتيقظ مـن نومهـا بعـد. ناداهـا طالبًـا إليهـا النّهـوض للعناية

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بزوجها، إلّا أنّها لم ترد. تذكّر أنّها لن تستجيب لندائه وإن سمعته، فهي لا تعرف اسمها ولا تعرف من يكون وماذا تعني كلمة زوجها، وأنّ كلمة العناية ليست في حالتها سوى أحرف جوفاء بلا مدلولات، فقال: إذا كانت هذه هي البداية، فما عسى أن تكون النّهاية؟ سحب نفسًا من سيجارته واتّجه إلى حيث ترقد المرأة، مستغربًا التبدّل الذي أصابها وجعلها تنام إلى ما بعد شروق الشّمس، هي التي كانت تستيقظ قبل أيّ فرد في منزله. ناداها. انتظر قليلًا ثمّ لكزها بقدمه كعادته في إيقاظ نساء بيته. مدّ يده أخيرًا إلى الغطاء وهو يسأل حانقًا: إلى متى ستنقبرين، يا بنة الكلب؟ رفع الغطاء عن الجسد النّائم ثمّ أطلق شهقةً مباغتةً وارتدّ إلى الخلف مذعورًا. لم تكن ابنته هي التي تنام في الفراش، بل عائشة الزّاهر. التفت إلى نايف يسأله عن ابنته، أجاب الرجل المرمي على الأرض وعيناه تلتمعان بنار حمّى داخليّة تعصف به: تركتها مساء الأمس في الفراش. سأله الأب: وهذه من تكون، وكيف جاءت إليك؟ نظر نايف إلى المرأة وقال بهدوء: هذه عائشة الزّاهر. كيف جاءت عائشة الزّاهر إلى بيتي وفراشي؟ نظر إلى النّاطور وقال متّهمًا: أنت من أتى بعائشة إلى هنا، أيّها اللعنة التي حلّت بعائشة وبالمزار وبي. سأل النّاطور وقد نفذ صبره وتصاعد غضبه: ماذا فعلت بابنتي؟ أين هي وضحة؟ تكلّم. ماذا تنتظر كي تجيبني؟ قال نايف: لا أعرف، كانت في الفراش ليل البارحة، حين ساقتني يد الهادي إلى حافة الجرف.

أفـاق نايــف مــن النّوبــة التــي اعترتــه منــذ الأمــس، ليجــد نفســه بــين يــدي ذعــر لم يســبق لــه أن خــبر مــا يماثلــه. كان قــد تحــوّل مــن تأمّــل علاقتــه بالدّعــوة والوجــود إلى التّســاؤل عــن سر الاختبــارات التــي يعرّضــه ســيّده الهــادي لهــا، ويفتّــش في حياتــه عــن سبب يفسّرهـا. أخـذ ينقّـب في ماضيـه وحـاضره، في أفـكاره ومشـاعره، في روابطـه وعلاقاتـه مـع القريـة والهـادي، وفي طفولتــه المبكــرة ويفاعتــه وشــبابه، فلــم يعــثر عــلى شيء يــبرّر هــذا الغضــب الــذي نــزل بــه. تمنّــى مــن جديــد لــو أنّــه فقـد ذاكرتـه مـع المـزار. وقـال في نفسـه: إنّـه يتعـرّض لعقـاب كان يجــب أن يتــوزّع عــلى الأهــالي كلّهــم، وإنّــه يفتــدي القريــة ويتعـذّب عنهـا، بينـما هـي غافلـة عنـه لا تشـعر حتـى بوجـوده. تســاءل عندئــذٍ في سرّه: أأكــون مســيحًا جديــدًا كتــب عليــه الهـادي أن يصلـب وحيـدًا، دون أتبـاع أو مؤمنـين، تنكـره قريتـه، ويكــون عقابــه الأقــسى أن يعيــش ويمــوت بصحبــة النّاطــور، يهـوذا الدّعـوة الجديـدة؟ كان السّـؤال يطـنّ في أذنيـه، فاتحًـا أمـام عقلـه مـا ظنّـه آفاقًـا جديـدةً تعينـه عـلى فهـم حالتـه. عندمـا تناهـى إلى سـمعه صـوت النّاطـور يطلـب إليـه النّهـوض للبحـث عـن ابنتـه المختفيـة، ردّ متسـائلًا: أيـن نفتّـش عنهـا؟ لقد اختفـت دون سـبب وسـترجع دون دعـوة. انقـضّ النّاطـور عليـه بعصـاه صارخًـا: مـا أدراني أنّهـا اختفـت حقًـا، وكيـف أصـدّق أنّك لم تقتلهـا خـلال الليـل وتدفنهـا في مـكان مـا، وكيـف أعـرف أنّـك لم تلـق بهـا في الجـرف الأوسـط، عندمـا سـاقتك النّوبـة إليـه في الليــل؟

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

تشاجر الرّجلان، ثمّ تعاركا، وكالا الشّتائم لبعضهما، وتبادلا الضّرب بالأيدي والرّفس بالأرجل، وأنشب كلٌّ منهما أظفاره في وجه الآخر وعضّه وقذفه بالحجارة، وضربه بالعصيّ والفؤوس، وأسال دمه، ووضع يديه حول عنقه محاولًا خنقه، ورماه بأقذع الأوصاف، وطارده في غابات مزار الدّبّ وجبالها، وألقاه في النّهر، وطوّح به عن صخور المنحدرات المرتفعة إلى الوديان الغائرة، ودحرج عليه الكتل الحجريّة العملاقة التي لم تفلح يد إنسان من قبل في تحريكها، ومزّق ثيابه ولحمه. كانت المزار تتفرّج على المشهد باهتمام صامت في البداية، ثمّ بعدم اكتراث جليّ، بعد أن امتدّ من الصّباح الباكر إلى ما بعد مغيب الشّمس، وبدا كعراكٍ بلا نهاية.

حين استبدّ الإنهاك بالمتقاتلين، ارتميا في الغابة غير بعيد عن بعضهما وقد استنزف التّعب روحيهما وجسديهما.

استيقظا بعد فترة لم يعرفا كم طالت واتّجها نحو المغارة الكبيرة في الحرش الغربيّ. كانا يسيران تفصل بينهما مسافة قليلة، وقد تمزّق جسداهما وتعفّرا بالتّراب واصطبغا بلون الدّم النّازف من جراحهما. كانا يبدوان كشبحين نهضا لتوّهما من المقبرة القريبة، واتّجها لعقد لقاء مع ملك الموت. وقد أقسم النّاطور بعد أشهر من تلك الليلة أنّه سمع بأذنيه صراخ الجان وهم يفرّون مذعورين لمرآهما، وأكّد أنّ منطقة النّهر خلت منهم، وأنّهم هربوا بأنفسهم إلى المزار، التي وجدوها ذاهلةً عن نفسها، فتحيّنوا الفرصة وفعلوا بها الأفاعيل، والعياذ بالله، دون أن تدري ما حصل لها.

لماذا اتّجه الرّجلان معًا إلى المغارة دون غيرها من الأماكن؟ هذا ما لم يعرفا له جوابًا. لقد سمعا صوتًا يأمرهما بالذّهاب إلى المغارة، فنهضا معًا في اللحظة عينها واتّجها إلى حيث قادهما الصّوت، ودخلا إلى المغارة في وقت واحد، وسارا إلى مكان المنصّة ووقفا وقد نكسا رأسيهما في وقت واحد، مع أنّهما لم يشاهدا أحدًا أو شيئًا في المكان المقدّس. كم مكث الرّجلان على هذه الحالة؟ قال النّاطور فيما بعد أنّه بقي واقفًا على قدم واحدة اتّصل ليلها بنهارها، لا يأكل خلالها ولا ينام أو يتنفّس، بينما عصاه تنقره نقرًا متواترًا يصل إلى جسده واهنًا فلا يوجعه أو يؤذيه. وقال نايف إنّه لم يشعر في حياته كلّها بانفصال جسده التّرابيّ عن روحه المنزّهة ببركات الهادي كما أحسّ به خلال فترة انتصابه في حضرة صاحب الحضرة. لم يوجّه أحد خلال هذه المدّة كلمةً واحدةً إلى الرّجلين، لكنّ حديثهما الدّاخليّ كان يتعالى، مقرّعًا تارةً، ومنبّهًا أو منذرًا تارةً اخرى، كان القصد من العقاب وضعهما في مواجهةٍ مع نفسيهما، رغم أنّ ابراهيم النّاطور لم يكن في مواجهة نفسه تمامًا، بل كان في مواجهة عصاه، التي عذّبه تعداد ضرباتها أكثر مما آلمته الضّربات ذاتها، التي نزلت عليه بردًا وسلامًا.

أمضى الرّجلان فترة عقابهما وحيدين، يعيش جسدهما على معاقبة نفسيهما؛ فلم يتبادلا الكلام، ولم يلتفت أيٌّ منهما إلى الآخر أو يطلب إليه الصّفح والغفران، مع أنّ الإحساس

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بالمرارة كان قد فارقهما تاركًا مكانه لفراغ لم ينجحا في ملئه بأيّة مشاعر. فهل رجع السّبب في ذلك إلى أنّ أحدًا منهما لم ينتبه إلى وجود الآخر بقربه، أم أنّ الهادي كان يفرغهما من ذاتيهما وينظّف دخيلتيهما ممّا علق بها من عواطف وأفكار تضرّ بالدّعوة وبالجمعيّة وبالمزار المهتدية؟ كان الرّجلان ينكّسان رأسيهما وقد تحوّلا إلى عمودين أجوفين وخاويين، يقفان لافتقارهما إلى قوّةٍ تعينهما على السّقوط.

مرّت الأيام وهما على حالهما، لا يدريان ما يجري لهما أو يعلمان بما يدور حولهما. هل كان نايف يفكّر بهذا الذي جرى له، مثلما فكّر في الأيام السّابقة لعراكه مع النّاطور بما حصل في المزار وبعلاقته به؟ كلّا إنّه لم يفعل ذلك؛ ليس لأنّه كان عازفًا عن التّفكير في وضعه، فهذا كان يملك عليه عقله طيلة السّنوات القليلة الماضية، بل لأنّه لم يجد في رأسه أيّة أفكار من أيّ نوع كان، للمرّة الأولى منذ قيّض له أن يتحوّل إلى صفيّ الهادي وتابعه المطيع. وقد أقلقه بعد صحوته الثّانية، كما شرع يسمي أوبته من الغيبة العقليّة التي عاناها في المغارة، أنّه لم يقلق وهو في المغارة للأمر، بل اعتبره نعمةً من الهادي منّ بها عليه، بعد أن أوردته أفكاره موارد التّهلكة، وساقته إلى حافّة الجرف الأوسط القاتلة، حيث تداركته اليد المباركة، وسحبته من أشداق الموت، حين أزمع أن يطبّقها عليه ويغيّبه في جوفه الأسود الغامض. فهل تراه لم يعرف القلق على عقله، رأس مال الدّعوة الثّمين،

لأنّ الهـادي أراد لهـذا العقـل أن يسـتريح بعـد الاضطـراب الـذي عصـف بـه عقـب مـا شـهدته المـزار مـن غرائـب، أم أنّ عراكـه مـع النّاطـور وحيرتـه أمـام الأحـداث المزاريّـة فرضـا عليـه راحـةً إجباريّـةً، بعـد أن كادت أفـكاره تعيـده إلى وضـع كالوضـع الـذي كان فيـه قبـل الدّعـوة؟ مهـما يكـن مـن أمـر، فـإنّ الأسـتاذ أحـسّ بالامتنـان لتلـك القـوة التـي انتشـلته مـمّا كان قـد انزلـق إليـه، وشـعر بـسرور غامـر بالخاطـر الـذي قـال لـه بعـد أوبتـه العقليّـة الثّانيـة إنّ غيابـه العقـليّ كان تمهيـدًا ضروريًّـا للمرحلـة التّاليـة للغيـاب العقـليّ التّـام الـذي كتبـه الهـادي عـلى المـزار، إعـدادًا لهـا للحيـاة الجديـدة. كان الأسـتاذ يـرى كيـف تقاطعـت وتشـابكت خطـوط الأحـداث التـي مـرّت بالمـزار وبـه، ويتفهّـم هـذا الشّـكل مـن العقـاب الجماعـيّ الـذي لم يوفّـر أحـدًا، بمـا في ذلـك هـو نفسـه. إلّا أنّـه كان يـرى في الوقـت نفسـه، الفـروق والتّفاصيـل بـين الحالـة المزاريّـة العامّـة وحالتـه الخاصّـة، ومنهـا أنّ المـزار سـتغيب غيابًـا أبديًّـا عـن وعيهـا، بينـما أخـذ غيابـه هـو شـكل غفلـة عقليّـة كانـت يجـب أن تسـبق قيامـه بالمهـامّ الكـبرى في «جمعيّـة رعايـة الأحـلام». كـما أنّ المـزار مـا عـادت تعـرف مـن هـي أو مـن سـتكون، لأنّ الهـادي سـيظهر في بديلهـا بالـذّات معجـزة الدّعـوة، في حـين عـرف هـو طيلـة فـترة غيابـه مـن هـو ومـاذا سـيكون بعـد أوبتـه العقليّـة الثّانيـة، لأنّ صوتًـا هـو بالتأكيـد صـوت الهـادي كان يطمئنـه عـلى مسـتقبله أوّلًا بـأوّل. هـل يفـسّر هـذا عـدم إحساسـه بالقلـق؟ الأرجـح أنّـه

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

يفسّر ما اعتراه من غياب عقليّ أقلقه ويقين إيمانيّ أراحه في آنٍ معًا، بينما لا يدري أحد ما إذا كانت المزار تشعر بأيّ يقين إيمانيّ في غيبوبتها العقليّة التامّة.

كانت مقارنة أوضاعه بأوضاع المزار تبيّن له أنّه لم يُستثن من العقاب الذي حلّ بالقرية، وأنّ عقابه قد أخذ شكلًا تخفيفيًّا بالقياس إلى علاقته بالمزار، وتحقيريًّا فيما يخصّ علاقته بالنّاطور، الذي فرضت عليه صحبته وأكره على الزّواج من ابنته، ووضع على مستوى واحد معه في المجلس والجمعيّة، واعتبر عقله مكافئًا لطاقاته العقليّة، فسمح له الهادي بالحفاظ عليه، مع أنّه لم يكن في حاجةٍ إليه في أيّ وقت، وأتيح له أن يشاركه مصيرًا جسديًّا وروحيًّا واحدًا خلال فترة غيابهما في مغارة الهادي المباركة. حين كان نايف يصل إلى هذا الحدّ من التفكير، كان يقول مستسلمًا: في كلّ رسالة خالدة شيء كثير من الظّلم. ولعلّه من الخير أن ينزل ظلمها بأتباعها المتفهّمين، على أن يقع بالمهتدين العاديّين من أنصارها. عند هذا الحدّ، كان يضرب كفًّا بكفّ، ويصمت مقهورًا. هل يفسّر تعامل الهادي مع إبراهيم النّاطور كندٍّ له انقطاع الصّلة بينهما داخل المغارة وعجز النّاطور عن التغلّب عليه خلال عراكهما مع أنّه أقوى منه بكثير؟ وهل يشرح وصوله معه في اللحظة نفسها إلى الموقع المقدّس وخروجه معه في اللحظة ذاتها منه؟

كان الأستاذ يلقي بهذه الأسئلة على نفسه، فيرى في النّاطور

لعنـةً نزلـت بـه، ويظـنّ أنّ الهـادي وضـع الآخـر إلى جانبـه في المجلـس والجمعيّـة، وزوّجـه مـن ابنتـه ليحلّـه محلّـه إن هـو غضـب عليـه أو سـحب ثقتـه منـه. عندئـذٍ كان يـرى في الدّعـوة بديـلًا لمعتقـدات المـزار الأصليـة وفي الهـادي بديـلًا لإلههـا، وفي المجلـس والجمعيّـة بديـلًا لعـالم المزاريّـين الحقيقـيّ، وفي النّاطـور بديـلًا لـه، وفي كل واحـدٍ مـن القريـة بديـلًا محتمـلًا لأيٍّ سـواه أو لإبعـاده عـن مكانـه مـن الهـادي والحلـول محلّـه فيـه، زارعًـا بينهـم بـذور شـقاقات وعـداوات لم يعرفـوا لهـا مثيـلًا في حياتهـم السّـابقة. في مثـل هـذه السّـاعات مـن الشـطط الجامـح، كان الأسـتاذ يتسـاءل مـا إذا كان الهـادي يحكـم المـزار بقوّتـه أم بضعفهـا، بدهائـه أم بغفلتهـا، بذاتـه أم بأبنائهـا. وكان لا يجـد صعوبـةً في الإجابـة عـن هـذه الأسـئلة، التـي كان مـا يلبـث أن يكبتهـا في أغـوار نفسـه قائـلًا: انظـر إلى الحـرب النّاشـبة دون مـبرّرٍ بينـك وبـين النّاطـور تعـرف الإجابـة عـلى أسـئلتك. أكان الأسـتاذ يوغـل بعـد ذلـك في كشـف واقـع المـزار المـؤسيّ، فيطـرح عـلى نفسـه أسـئلةً إضافيّـةً حـول أحـوال قريتـه التـي دفعـت راضيـةً ثمنًـا فادحًـا لأحلامهـا وأوهامهـا، وبلغـت موقعًـا يعنـي بقاؤهـا فيـه موتهـا غريبـةً عـن ذاتهـا، وخروجهـا منـه مأسـاةً لا يعـرف أحـد نتائجهـا؟ لا يـدري أحـد غـير الهـادي مـا يخالـط الأنفـس مـن مشـاعر ويضطـرم فيهـا مـن أحاسـيس.

ومـن المؤكّـد أنّـه كان سيمسـخ تابعـه إلى قـرد أو كلـب، لـو طـرح عليـه سـؤالًا واحـدًا مـن الأسـئلة التـي طرحـت نفسـها عليـه قبـل قليـل.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لم يطرح الأستاذ أسئلته، لكنّه أخذ يفهم، على كلّ حال، أنّ المزار لم تكن ما ظنّها إلى الأمس، مجرّد قرية حلّت بها البركة المقدّسة للهادي، بل هي، على فقرها وشقاء أبنائها، قطب الرّحى في تجربة الهداية، وأنّه هو والهادي والنّاطور والمجلس لا يساوون شيئًا بدونها. عندئذٍ كان يقول: ليس الرّسول شيئًا، إن كان بلا أتباع. إنّ ثمّة آلافًا مؤلّفة من الرّسل في كلّ مكان شقيّ وفي كلّ قرية بائسة. لكن أحدًا لا يأبه لهم، لأنّهم بلا أتباع. في هذه اللحظات، كانت تنهال الأسئلة الصّعبة على ذهنه من جديد، وكانت تبقى فيه إلى أن يبعدها عنه مغمغمًا: عندما يكون الهادي منطلق الدعوة وركيزتها، تغيب مزار الدّبّ عن ذاتها ويحترب نايف والنّاطور وتصنع الجمعيّة أحلام يقظة للقرية التي لا يجوز أن تكون لها أحلامها الخاصّة.

أمّا عندما تكون المزار نفسها مرتكز الدعوة... توقّف عن التّفكير وأمسك عن الاسترسال فيما كان جنونه يقوده إليه. سأل آخره مستغربًا: هل قرّرت وضع نهايةٍ لحياتك أيّها المجنون؟ إذا كنت قد قرّرت هذا، فأنت مجنون مضاعف، مرّةً لأنّك تسير وراء قرية ستتركك وحيدًا كما سبق لها أن تركت عبلا وكلثوم وحيدتين، ومرّةً لأنّك ستضرّ بنفسك، أنت نايف المفزلك الذي رفعه الهادي إلى مكانٍ لم يبلغه أحد من آبائك وأجدادك ولن يبلغه أحد بعدك في المزار. فهل تريد بيع الحقائق الجليّة بأوهام واهية يكشفها الهادي

قبـل حدوثهـا. صحيـح أنّ ضيـاع وعـي المـزار قـد أضـاع قيمتـك في نظـر الهـادي وأفقـدك وعيـك بطريقـة قاهـرة تجعلـك عاجـزاً عـن إعـادة قومـك إلى صوابهـم بغـير إذنـه وتدبـيره وحـده. ولكـن لمـاذا تريـد أن تعيـد للمـزار وعيهـا، ألـكي تفشـل الدّعـوة؟

وتضيّـع عـلى نفسـك كلّ شيء وترجـع ذلـك المنبـوذ الـذي كانـت تسـمّيه المفزلـك؟ اللّعنـة عـلى المـزار والمزاريّـين، واللّعنـة عـلى الأسـئلة الصّعبـة والحقائـق الجليّـة، والسّـلام عـلى الهـادي، وطـوبى للنّاطـور، وللمجلـس، ولجمعيّـة رعايـة الأحـلام والأوهـام، ولتَغـبِ المـزار عـن ذاتهـا إلى أبـد الآبديـن. إن كان غيابهـا يعنـي حضـور الهـادي والدّعـوة وأتباعهـما.

كان الأسـتاذ قانعًـا أنّ وجـود المـزار لم يعـد يعنيـه، وأنّ ضياعهـا يزيـد قيمـة الهـادي في حياتـه وقيمتـه هـو في الدّعـوة. لم يقـل بعـد ذلـك شـيئًا.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجَدِيد
Dar al Jadeed

قراءة هذَا النَّص البدِيع من مَزَار الدُّبِّ تَجعَلُ المرْء يُدْرِك أنَّ الثَّقافة السُّوريَّة فِي سَاعتِها الخامسة والعشْرين لَم تَخسَر بِفُقْدَان مِيشيل كِيلو مُفَكِّرًا أَلمعِيًّا مُتمرِّسًا بباطنُ نِتاجه الفكر والْعَمل فحسب، بل تَخسَرُ فضلا عن ذَلِك رِوائِيًّا مُتحقِّقًا يَتَقاطَعُ مِخيَالُ اَلقَصِّ لَديْه مع وَاقِعٍ جَملُوكيٍّ شَرِس فِي شهيقٍ وزفير. غَائِية اَلفقِيد فِي هَذِه السَّرْديَّة، كمَا فِي إِهدائه اَلمُكرَّس لِلْبقَاء مع اَلحَقِّ والنَّاس، السَّعْي لِتحْقِيق قِوَام جَمالِيٍّ مداره تَجرِبة ذَاتِية ثرّة تُمْليهَا مَعرِفة وَطِيدَة بِالمكان والزَّمان.

خَلدُون الشَّمْعة

لَم يَسبِق وأن كُتِبَ فِي العربيَّة رِواية على هذَا النَّحْو الاسْتِثْنائيِّ فِي آليَّة اِختِلاق دِين. مَا يُحيلنَا إِلى جُذُور اِختِراع أُسطُورَة السُّلْطة، سَوَاء كَانَت نِظامًا فِي دَولَة ، أو شيْخًا فِي قَريَة. دِينٌ يَجِد قَدَاستَه فِي مُسْتنْقَع الجهل، ونشر العمَاء بَيْن الاتباع، تنْسُجُها دَقَائِق صِناعة الإيمان والزَّنْدقة. إِذ لَا سُلطَة مِن دُون دِين، يَنسَخ مَا قِبَله، ويبدأ معه، فالنسيان كفيلٌ بالماضي.

فَوَّاز حدّاد

مَزَار الدُّبِّ، قِراءة عَمِيقَة وفانْتازيَّة للْواقع السُّوريِّ ومحاولةٌ مُغَايرَة لتظْهِير تحوُّلاته وخفاياه. هُنَا، الحكايةُ ذَرِيعَة لقَول مَا لَا تَقدِر عليه إِلَّا المخيِّلة، بِسَعتِهَا وَحدسِها، ومَا تَعجَز السِّياسة، وَحِيدَة، عن قَولِه.

نجوى بركات

ميشيل كيلو

كتبَ وترجـــمَ وعـــارضَ بلا كلالة. سُجـــن وأخيرًا هُجّـر.
وطنيّ آمَنَ و ناضلَ من أجل العدالة والازدهار في سوريـا.
(اللاذقيّة، ١٩٤٠ ـ باريس، ٢٠٢١)

9 789953 112251